الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٤)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٠ - ١٤١٦هـ

الجزء السابع عشر

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لابي شامة

الجزء الأول

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمت الاشارة اكثر من مرة الى كتاب الروضتين وذيله لأبي شامة، شهاب الدين عبد الرحمن ابن اسماعيل المقدسي [٥٩٩ ـ ٥ ٦٦هـ / ١٢٠٢ـ ١٢٦٧م] على انه أوفى مصدر عربي تحدث باسهاب عن أحداث الحروب الصليبية ، فهو قد نهل مادة جزئية الآساسيين من مصادر الذين تقدموه، واحسن النهل والاختيار واستوفى الروايات ، وأبدى رأيه في ترجيح بعضها على بعض أحيانا ، أما في الذيل فهو المصدر ، وهو شاهد عيان معاصر لكل ما سجله، وهنا تجلت أصالته وتفوقه على غيره من المؤرخين، وبذلك بات مصدر الجميع الدين جاءوا من بعده..

لقد أكثر أبو شامة من الاشارة الى نفسه واسرته واحواله في الذيل كما ترجم لنفسه، لهذا لن أعرف بهذه التوطئة به وبحياته.

لاشك أن أبا شامة مؤرخ عملاق، كان صاحب أحاسيس مرهفة، ولكم يتمنى المرء لو دفعه فضوله التاريخي وحبه للمعرفة نحو التوغل الى صفوف الفرنجة لوصف أصولهم ودوافعهم ونظمهم وما جبلوا عليه من عادات وتقاليد.

لعله لم يفعل ذلك لأنه كان يؤرخ لدولتين مسلمتين وليس لأعدائهما لكن أو ليس من شروط التغلب على العدو معرفته بالعمق من جميع الجوانب ؟ ومع صحة هذه المسلمة يبدو أن المسلمين جميعا حتى رجال السلطة منهم اهتموا برصد حركات العدو الصليبي عسكريا وسياسيا ،

ولم يـأبهوا بما رسا وراء ذلـك، كـان همهم تحريـر الأرض مـن هذا العـدو وردعه ، وكـف عاديته والخلاص منـه ،فقد ظـل الفرنجة طـوال قرنين في نظر المسلمين كفارا وأعداء، ومعرفة هذا كافيـة، ولئن اهتم الفرنج بتاريخ المسلمين وأحـوالهم ، فانهم فعلـوا ذلك لكـونهم غزاة أراداوا العيـش على الأرض التي انتزعوهـا ، وسعوا الى تدبر وسائل الحياة في أوسـاط عدوانية من كل جـانب ، كما استهدفوا حيـازة المزيد من الأرض ، فعدوانيـة وليم الصـوري جعلته أول المستعـربين إن لم نقـل المستشرقين ، لكن العـرب لم يكـونـوا عـدوانيين ،يضـاف الى هذا ان المؤرخ العـربي ظـل على قـاعـدة الأوائل يؤرخ للملوك والـدول ، ويكتب لا لنشر المعرفة بين النـاس ، بل تلبية لطلب أحـد رجال السلطة، وظل رجال السلطة جنـدا أحاسيسهم الحضاريـة فقيرة ، وفهمهم للثقـافة العربيـة سطحي جدا، فـزين الـدين صاحـب إربل وسواها عنـدما جاءه حيص بيـص ليمدحه ، قال لـه لن أفهم عليـك شيئا مما ستقـوله ، لكن أعـرف أنك تحتـاج عوني ، فأمـر له بمبلغ مـن المال، وصلاح الـدين أمر ببيـع خزانـة الكتب العظيمـة التي وجـدهـا في قصور الفـاطميين بـالقـاهـرة ، لكنـه احتفظ بـالمجـوهـرات والذخائر لنفسه ولآله.

الانتصارات في حطين وسواها جعلت من بعـض رجال الجند والمرتزقة والعبيـد أبطـالا ، لكن لا بـد مـن التمييـز بين البطل العسكـري وبطـل اشـادة الحضارة العـربية، والحفـاظ عليهـا، ولابد مـن التذكير أن رجـال الفكر سـايروا مشاعـر الحكام وماشـوا رغباتهم ، ودونـوا ماكان يـرضيهم ويفقهوه، فهم هنا كانوا على دين ملوكهم .

بفضل التفـوق الحضاري العـربي جاء النصر في حطين ، وحين بـدد خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ثمار حطين السياسية والعسكرية ، ظل التفوق الحضاري يهيء الفرصة لمتابعة التحرير وطرد الغزاة وهذا ما كان ، وعليه يتـوجب على الباحث في تـاريخ الحروب الصليبية وتاريـخ الاسلام

بشكل عام ألا تصمه قعقعة الحديد ، عن سماع أصوات بناة الحضارة ، وألا يعمي غبار المعارك ناظرية عن رؤية عمق المؤثرات الحضارية وألا تدفعه عاطفة النصر العسكري الى عدم التوازن في تقرير حقائق الأمور

هذه والحق اشكالية كبرى تحتاج الى البحث المعمق ، ولعله يكفي هنا اثارتها فالسؤال يشكل نصف المعرفة، والشك هو الطريق نحو اليقين والايمان.

أنا على دراية أن رجال السلطة الأيوبية بنوا المدارس ، لكن جل هذه المدارس جاءت بمثابة ترب لهم، وكانت دينية ضيقة المجالات ، تعتمد على دراسة نصوص مكررة لهذا جاء نتاج رجالها إما اختصارات أو شروح، وكادت جوانب الابداع أن تختفي ، ذلك أن الحضارة العربية جاءت وليدة لحلقات العلماء، ومقارعة الحجة بالحجة في أجواء من الحرية والالتزام الخلقي، لكن المدرسة لم توفر هذه الشروط ، بل جعلت من العمل العلمي عملا دينيا ضيقا متوارثا ، وتوافق هذا مع تنامي عقلية التصوف الطقوسية ، فالتصوف الان لم يعد اعمال زهد وتفكر ، بل حلقات ذكر وسماع وطعام ، وعيش رغيد داخل الزاوية بدون عمل منتج.

انها المرة الأولى التي يطبع بها كتاب الروضتين مع ذيله بشكل علمي محقق ، وقد اعتمدت في عملي على مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس ، وهي فيما اعلمه أفضل مخطوطات هذا الكتاب ، وكان أبو شامة قد قسم الروضتين الى جزئين ، لكن لكبر حجم كل جزء أعدت النظر بالتقسيم فجعلته ثلاثة أجزاء ، يغطي الأول منها أخبار الأحداث حتى وفاة أسد الدين شيركوه وتسلم صلاح الدين لوزارة القاهرة ، ويروى الثاني أخبار نشاطات صلاح الدين حتى تمكنه من الانفراد بالسلطة في الشام ومصر

وبعض أجزاء الجزيرة ، ويتحدث الثالث عـن بقية اللأحداث حتى بعيد وفاته.

ان بعض مصادر الروضتين قـد توفر لنا ، وما توفـر أقدمت على نشره داخل موسوعتنا ، لكن هناك مصادر كثيرة هـامة عاد اليها أبو شامة تعد بحكم المفقود لا سيما ما كتبه ابن أبي طي الحلبي مع العديد من الوثائق الهامة.

من اللـه ارجو التوفيـق والعون وله خـالص الحمد والشكـر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم.

دمشق ٢٥ / ٢ / ١٤١٦هـ - ٢٣ / ٧ / ١٩٩٥ م

سهيل زكار

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف الشيخ الرحلة المحدث المفنن فريد عصره ووحيد دهره

شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي

الشافعي

تغمده الله برحمته وغفرانه

وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال،وبكرمه وجوده تدرك الآمال،وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال،وبارادته تتغير الأحوال،وإليه المصير والمرجع والمآل،سبحانه هو الباقي بلازوال،المنزه عن الحلول والانتقال،(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[1]،ذو العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال،نحمده على ماأسبغ من الانعام والافضال، ومن به من الاحسان والنوال، حمداً لاتوازيه الجبال،مل ء السموات والأرض وعلى كل حال،ونصلي على رسوله ونبيه،وخيرته من خلقه

وصفيه،وخليلـه ووليه،وحبيبه المفضـال،سيدناأبي القـاسم محمد بـن عبد اللـه ذي الشرف البـاذخ،والفضـل الشـامـخ،والعلـم الـراسـخ،والجمال والكمال،صلى الله عليه وعلى الملائكـة المقربين،والأنبياء المرسلين،وعترتهم الطيبين،ما أفل كـوكب وطلع هلال،وعلى آل محمـد وصحبه خير صحب وأكـرم آل،وعلى تـابعيهم بـاحسـان وجميـع الأوليـاء والأبدال،وعفـا عـن المقصريـن مـن أمتـه أولي الكسـل والملال،وحشرنـا في زمـرتـه،متمسكين بشريعتـه،مقتديـن بسنتـه،متعظين بما ضرب مـن الأمثال، مـزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه(يوم لابيع فيه ولا خلال).(٢)

أما بعـد:فإنـه بعد أن صرفـت جل عمـري،ومعظم فكـري،في اقتباس الفـوائد الشرعيـة،واقتنـاص الفـرائد الادبيـة،عـنّ لي أن أصرف إلى علـم التـاريـخ بعضه،فـأحـوز بـذلك سنـة العلـم وفـرضه،اقتـداء بسيرة مـن مضـى،من كـل عالم مـرتضى،فقـل إمام مـن الأئمة إلاّويحكـي عنه مـن أخبار من سلف فـوائد جمة،منهم إمامنا أبو عبد اللـه الشافعي رضي الله عنـه ،قـال مصعـب الـزبيري:مـارأيت أحـداً أعلـم بـأيـام النـاس مـن الشـافعي،ويـروي عنه أنـه اقـام على تعلم أيـام الناس والأدب عشريـن سنة،وقال:ماأردت بذلك الاستعانة على الفقه.

قلت:وذلك عظيـم الفائدة،جليل العائدة،وفي كتاب الله وسنـة رسوله صلى الله عليـه وسلم من أخبـار الأمم السالفـة،وأنباء القرون الخالفـة،ما فيـه عبر لذوي البصـائر،واستعداد لـ(يوم تبلى السرائر)(٣)،قـال الله عـز وجل وهو أصـدق القائلين:(وكلا نقص عليـك من أنباء الرسـل مانثبت بـه فـؤادك وجـاءك في هـذه الحق ومـوعظـة وذكـرى للمـؤمنين) (٤) وقال:سبحـانه وتعـالى:(ولقد جـاءهم من الأنبـاء ما فيـه مزدجـر• حكمة بالغة فما تغن النذر)(٥)،وحدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أم ذرع (٦)وغيره مما جـرى في الجاهلية، والأيام الاسرائيلية، وحكـى عجائب مـا رآه ليلـة أسري بـه وعـرج، وقـال: «حـدثـوا عـن بنـي اسرائيـل ولا

حرج»(٧)،وفي صحيح مسلم عن سماك بن حرب «قال:قلت لجابر بن سمرة أكنت تجالس رسول الله صلى اللّه عليه وسلم؟قال:نعم كثيرا،كان لايقوم من مصلاه الذي صلى فيه الصبح والغداة حتى تطلع الشمس،فإذا طلعت قام وكانوا يتحدثون،فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم»(٨)،وفي سنن أبي داود عن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنهما قال:«كان نبي اللّه صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن بني اسرائيل حتى نصبح ما يقوم الا الى عظم صلاة»(٩)

قلت :ولم يزل الصحابة والتابعون فمن بعدهم يتفاوضون في حديث من مضى،ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى،ويستنشدون الاشعار،ويتطلبون الآثار والاخبار،وذلك بيّن من أفعالهم،لمن اطلع على أحوالهم،وهم السادة القدوة،فلنا بهم أسوة،فاعتنيت بذلك وتصفحته،وبحثت عنه مدة وتطلبته،فوقفت والحمد للّه على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين،من الأنبياء والمرسلين،والصحابة والتابعين،والخلفاء والسلاطين،والفقهاء والمحدثين،والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين،وأصناف الخلق الباقين،ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين،كأنه قد عاصرهم أجمعين،وأنه عندما يفكر في أحوالهم ويذكرهم،كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم،فهو قائم له مقام طول الحياة،وان كان متعجل الوفاة٠

قال نعيم بن حماد:كان عبد الله بن المبارك يكثر الجلوس في بيته،فقيل له:ألا تستوحش؟فقال:كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه،وفي رواية قال:قيل لابن المبارك:ياأبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك؟فقال:أنا وحدي،أنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه،يعني النظر في الحديث٠وفي رواية أخرى:وأنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان٠

قلت:وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتـــاب اطـــالعـــه مـــؤنـــس
أحـــب إلي مـــن الآنســـة
وأدرســـه فيرينـــي القـــرو
ن حضـــوراً وأعظمهـــم دارســـه

وقد اختار الله سبحـانه لنا أن نكون آخر الأمم،وأطلعنـا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخاليـه،وتعيها أذن واعيه،(فهل ترى لهم من باقيه)(١٠)ولنقتدي بمن تقـدمنا من الأنبياء،والائمة الصلحـاء،ونرجو بتوفيـق اللّه عز وجـل أن نجتمع بمن يـدخل الجنـة منهم،ونذاكـرهم بما نقل إلينا عنهم،وذلك على رغم أنـف من عدم الادب،ولم يكن له في هذا العلم أرب،بل أقام على غيه وأكب،والمرء مع من أحب.

هـذا وإن الجاهـل بعلم التـاريـخ راكـب ظهـر عميـاء،خابـط خبـط عشواء،ينسب إلى من تقـدم أخبار من تأخر،ويعكس ذلـك ولايتدبر،وإن رد عليـه وهمه لايتـأثر،وإن ذكـر فلجهلـه لايتـذكر،لايفـرق بين صحـابي وتـابعـي،وحنفـي ومـالكـي وشـافعـي،ولابين خليفـة وأمير،وسلطـان ووزيـر،ولايعرف مـن سيرة نبيه صلى اللّـه عليه وسلـم أكثر مـن أنه نبـي مرسـل،فكيف له بمعرفـة أصحابه وذلك الصـدر الأول ،الذين بذكـرهم ترتاح النفوس،ويذهب البؤس.

ولقد رأيت مجلسا،جمع فيه ثلاثة عشر مدرساً،وفيهم قاضي قضاة ذلك الـزمان،وغيره مـن الأعيان،فجـرى بينهم وأنـا أسمع ذكـر من تحرم عليـه الصدقة،وهـم ذوو القربى المذكورون في القـرآن،فقال:جميعهم بنو هـاشم وبنـو عبـد المطلب،وعـدلـوا بـأجمعهـم في ذلك عما يجب،فتعجبـت مـن جهلهـم حيـث لم يفـرقـوا بين عبـد المطلـب والمطلـب،ولم يهتـدوا إلى أن المطلب هو عم عبـد المطلب،وأن عبد المطلب هو ابن هـاشم،فما أحقهم بلـوم كل لائم،إذ هـذا أصل مـن أصول الشريعـة قد أهملـوه،وباب مـن

أبـواب العلـم جهلـوه،ولـزم مـن قولهم إخـراج بنـي المطلـب مـن هـذه الفضيلـة،فـابتغيـت إلى اللّـه تعـالى الـوسيلـة،وأنفـت لنفسي مـن ذلـك المقام،فـأخذتهابعلم أخبار الأنـام،وتصحيح نسبتها،وايضاح محجتهـا،فإن كثيراً ممـن يحفظ شيئـاً من الـوقائع يفـوتـه معرفـة نسبتها إلى أربـابها،وإن نسبهـا خلـط فيهـا وصرفهـا عـن أصحـابها،وهـو بـاب واسـع غـزيـر الفوائد،صعب المصادر والموارد،زلت فيـه قدم كثير من نقلة الأخبار،ورواة الآثار٠

ثم أردت أن أجمع من هـذا العلم كتابا يكون حاوياً لما حصلته،وأتقن فيـه ما خبرتـه،فعمدت إلى أكبر كتـاب وضـع في هذا الفـن على طريقـة المحدثين،وهـو تاريـخ مدينة دمشـق،حماها اللّه عـز وجل، الـذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري رحمه اللّه،وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلـدا فاختصرتـه وهذبتـه(١١)وزدته فـوائد من كتـب أخر جليلة وأتقنته،ووقف عليه العلماء،وسمعه الشيوخ والفضلاء٠

ومـرّبي فيــه مـن الملــوك المتـأخـريـن،تـرجمة الملك العــادل نـور الـدين،فـأطـربني مـا رأيـت من آثـاره،وسمعـت من أخبـاره،مـع تأخـر زمانـه،وتغير خلانـه،ثم وقفـت بعدذلـك في غير هذا الكتـاب على سيرة سيــد الملـوك بعــده الملــك النـاصر صــلاح الــديــن فـوجــدتهما في المتـأخريـن،كالعمـرين رضي اللّـه عنهما في المتقـدمين،فإن كـل ثان مـن الفريقين حـذا حذو من تقدمـه في العدل والجهاد،واجتهد في اعـزاز دين الله أي اجتهـاد،وهما ملكا بلدتنا،وسلطـانا خطتنا،خصنا اللـه تعالى بهما، فـوجـب علينـا القيـام بـذكـر فضلهما،فعـزمـت على إفـراد ذكـر دولتيهما بتصنيف،يتضمن التقريظ لهما والتعريف،فلعلـه يقف عليه من الملوك،من يسلك في ولايتـه ذلك السلـوك،فلا يبعد أنهما حجـة من اللـه على الملوك المتأخـرين،وذكرى منه سبحـانه(فإن الذكـرى تنفع المؤمنين)(١٢)فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طـريقة الخلفاء الراشدين،ومن حـذا حذوهم من

الأئمة السابقين،ويقولون:نحن في الزمن الأخير،وما لأولئك من نظير،فكان لما قدر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم،من بعض ملوك دهرهم،فلن يعجز عن التشبيه بهما أحد،إن وفق اللّه الكريم وسدد،وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائني رحمه اللّه،وكان أحد السادة الاكابر في الحفظ والدين،قال:إني لأحسب يجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من اللّه على هذا الخلق،يقال لهم إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان ألا اقتديتم به،وهكذا أقول:هذان الملكان حجة على المتأخرين،من الملوك والسلاطين،فللّه درّهما من ملكين تعاقبا على حسن السيرة،وجميل السريرة،وهما حنفي وشافعي،شفى اللّه بهما كل عيّ،وظهرت بهما من خالقهما العناية،فتقاربا حتى في العمر ومدّة الولاية،وهذه نكتة قلّ من تفطن لهاونبه عليها،ولطيفة هداني اللّه بتوفيقه إليها،وذلك أن نور الدين رحمه اللّه ولد سنة احدى عشرة وخمسمائة،وتوفي سنة تسع وستين،وولد صلاح الدين رحمه اللّه سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، وتوفي سنة تسع وثمانين[١٣]،فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعض أخرى،وكلاهما لم يستكمل ستين سنة،فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين،وملكها صلاح الدين سنة سبعين،فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة،وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة،تمحى فيها السيئة وتكتب الحسنة،وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتيهما،والفضل للمتقدم،فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله،والارشاد إلى عظم محله،فإنه أصل ذلك الخير كله،مهد الأمور بعدله وجهاده،وهيبته في جميع بلاده مع شدة الفتق،واتساع الخرق،وفتح من البلاد،ما استعين به على مداومة الجهاد،فهان على من بعده على الحقيقة،سلوك تلك الطريقة،لكن صلاح الدين أكثر

جهاداً،وأعم بلاداً،صبر وصابر،ورابط وثابر،وذخر الله له من الفتوح أنفسه،وهو فتح الأرض المقدسة،فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر:

كم ترك الأوّل للآخر
وألبس الله هاتيك العظام وإن
بلين الثرى عفواً وغفرانا
سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت
مثوى قبورهم روحاً وريحانا

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء،والأكابر الفضلاء،فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زنكي رحمه الله،ولأجله تم ذلك الكتاب وذكر اسمه في خطبته،وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي في مذيل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة،وصنف الشيخ الفاضل عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري،عرف بابن الأثير مجلدة في الأيام الأتابكية،كلها وما جرى فيها وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى،لكونها متفرعة عنها،وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي،عرف بابن شدّاد،قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية،وساق ماتيسر فيها من الفتوح،واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى،وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب،أبو حامد محمد بن محمد ابن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة،أحدهما الفتح القدسي اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته،فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة،والثاني البرق الشامي ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفاة

صلاح الدين،وهي سنة تسع وثمانين،فاشتمل على قطعة كبيرة من أواخر أخبار الدولة النورية،إلا أن العماد في كتابه طويل النفس في السجع والوصف يمل الناظر فيه،ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه،فحذفت تلك الاسجاع إلا قليلا منها استحسنتها في مواضعها،ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ماستراه من أخبار فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى،وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال والاسجاع المفضية إلى الملال،وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام، واخترت من تلك الاشعار الكثيرة قليلا مما يتعلق بالقصص وشرح الحال،وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة،ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية، وعلى جملة من الأشعار العمادية،مماذكره في ديوانه دون دقة من كتب أخرى من دواوين وغيرها،فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحديهما،وما حدث في مدتيهما من وفاة خليفة أو وزير،أو أمير كبير،أو ذي قدر خطير،وغير ذلك،فجاء مجموعاً لطيفاً،وكتاباً ظريفاً،يصلح لمطالعة الملوك والأكابر،من ذوي المآثر والمفاخر،وسميته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ولله در حبيب بن أوس حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام(١٤)

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود ابن عماد الدين أتابك،وهو أبو سعيد زنكي بن قسيم الدولة آق سنقر التركي،ويلقب زنكي أيضا بلقب والده قسيم الدولة،ويقال لنور الدين ابن القسيم،وسنتكلم على أخبار اسلافه عند بسط أوصافه،وقدّمت من إجمال أحواله ما يستدل به على أفعاله،ذكر الحافظ أبو القاسم في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة،وأن جدّه آق سنقر ولي حلب وغيرها

من بـلاد الشام،ونشـأ أبوه زنكـي بالعـراق ثم ولي ديـار الموصل والبـلاد الشامية، وظهرت كفـايته في مقابلة العدو عند نزولـه على شيزر،حتى رجع خـائبا، وفتـح الـرهـا والمعـرّة وكفـر طـاب وغيرهمامـن الحصـون الشامية،واستنقذها من أيدي الكفار،فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامـه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة،ثـم قصد نور الديـن حلب فملكها،وخرج غـازيا في أعمال تل باشر،فـافتتح حصونا كثيرة مـن جملتها قلعة عـزاز ومرعش وتل خـالد،وكسر ابرنـس أنطاكية وقتله وثـلاثة آلاف أفـرنجي معـه، وأظهـر بحلـب السنة وغير البـدعـة التـي كانـت لهم في التـأذين،وقمـع بها الـرافضة وبنـى بها المدارس ،ووقـف الأوقاف،وأظهـر العدل،وحـاصر دمشق مرتين،وفتحهـا في الثالثـة،فضبط أمورهـا،وحصن سورها،وبنـى بها المدارس والمساجد وأصلح طـرقها،ووسع أسواقهـا،ومنع مـن أخذ مـا كان يـؤخـذ منهم مـن المغـارم بدار البطيـخ وسوق الغنـم والكيـالـة وغيرهـا،وعـاقـب على شرب الخمـر،واستنقـذ مـن العـدو ثغـر بانياس،والمنيطرة وغيرها .

وكـان في الحرب ثـابت القـدم وحسـن الـرمي،صليـب الضرب يقـدم أصحـابه ويتعـرض للشهـادة وكان يسـأل اللّـه تعالى أن يحشره في بطـون السبـاع وحواصـل الطير ،ووقـف رحمه الله وقـوفـا على المرضى ومعلمـي الخط والقـرآن،وسـاكنـي الحرمين،وأقطـع أمـراء العـرب لئـلا يتعـرضـوا للحجاج،وأمـر باكمال سـور المدينة واستخـراج العين التي بـأحد ،وبنـى الربـط والجسور والخانـات ،وجدّد كثيرا من قنـى السبيل ،وكـذا صنع في غير دمشـق من البـلاد التـي ملكهـا،ووقف كتبـا كثيرة،وحصـل في أسره جماعـة من أمـراء الفرنـج،وكسر الروم والفـرنج على حـارم ،وكان عـدّتهم ثـلاثين ألفا،ثـم فتـح حارم،وأخـذ أكثر قـرى أنطـاكية،ثـم فتـح الديـار المصرية،وكان العـدو قد أشرف على أخذها،ثم أظهـر بها السنة وانقمعت البدعـة،وكان حسـن الخط،كثير المطالعـة للكتب الـدينية،متبعـا للآثـار النبـوية،مـواظبـا على الصلوات في الجماعـات عـاكفـاً على تلاوة القـرآن،

حريصا على فعل الخير،عفيف البطن والفرج،مقتصداً في الانفاق،متحريا في المطاعم والملابس،لم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره،وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها،أو ارشاد إلى سنة يتبعها.

وقال أبو الحسن بن الأثير :قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه إلى يومنا هذا،فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين،ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه،قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره،وجهاد يتجهز له،ومظلمة يزيلها،وعبادة يقوم بها،وإحسان يوليه،وإنعام يسديه،ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه،فلو كان في أمة لافتخرت به،فكيف ببيت واحد.

أما زهده وعبادته وعلمه،فإنه كان مع سعة ملكه،وكثرة ذخائر بلاده وأموالها لايأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة،ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين،أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحله،ولم يتعده إلى غيره ألبتة،ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة،ومنع من شرب الخمر،وبيعها في جميع بلاده،ومن إدخالها إلى بلد ما،وكان يحد شاربها الحد الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديق لنا في دمشق،كان رضيع الخاتون ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرها قال:كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لاتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال،أو في مطالعة كتاب أتاه،ويجيب عنهما، وكان يصلي فيطيل الصلاة،وله أوراد في النهار فإذا جاء الليل وصلى العشاء

ونام يستيقظ نصف الليل،ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب،ويشتغل بمهام الدولة٠

قال:وإنها قلت عليها النفقة،ولم يكفها ما كان قرّره لها فأرسلتني إليه اطلب منه زيادة في وظيفتها،فلما قلت له ذلك تنكر واحمر وجهه،ثم قال:من أين أعطيها أما يكفيها مالها،والّله لاأخوض نار جهنم في هواها إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي،فبئس الظن،إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم ومعدة لفتق إن كان من عدو الاسلام وأنا خازنهم عليها،فلا أخونهم فيها٠

ثم قال:لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكا وقد وهبتها إياها فلتأخذها،قال:وكان يحصل منها قدر قليل٠

قال ابن الأثير:وكان رحمه الله لايفعل فعلا إلا بنية حسنة،كان بالجزيرة رجل من الرجال الصالحين كثير العبادة والورع شديد الانقطاع عن الناس،وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله،ويعتقد فيه اعتقادا حسناً فبلغه أن نور الدين يدمن اللعب بالكرة،فكتب إليه يقول:ماكنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية،فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول:والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبطر،وإنما نحن في ثغر،العدو قريب منا،وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب،ولايمكننا أيضا ملازمة الجهاد ليلا ونهاراً شتاء وصيفا إذ لابد من الراحة للجند،ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جماما لاقدرة لها على ادمان السير في الطلب،ولامعرفة لها أيضا بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب،فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة٠

قال ابن الاثير:فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير،الذي يقل في

أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله،فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة،حتى يصير من أعظم العبادات،وأكبر القربات يقل في العالم مثله،وفيه دليل على أنه لايفعل شيئا إلا بنية صالحة،وهذه أفعال العلماء الصالحين العالمين.

و حكي لي عنه أنه حمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة،فلم يحضرها عنده،فوصفت له،فلم يلتفت إليها،وبيناهم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي،فأمر بها له فقيل له:إنها لاتصلح لهذا الرجل،ولو أعطي غيرها كان أنفع له،فقال:أعطوها له فإني أرجو أن أعوض عنها في الآخرة،فسلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أميري أو سبعمائة دينار.

قلت :قرأت في حاشية هذا المكان من كتاب ابن الاثير بخط ابن المعطى إياها قال:أعطاها لشيخ الصوفية عماد الدين أبي الفتح بن حموية بغير طلب ولا رغبة،فبعثها إلى همذان فبيعت بألف دينار.

قال ابن الاثير:وحكى لنا الامير بهاء الدين علي بن السكري،وكان خصيصا بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصبا وأنس به،وله معه انبساط، قال:كنت معه يوما في الميدان بالرها والشمس في ظهورنا،فكلما سرنا تقدمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا،فأجرى فرسه،وهو يلتفت وراءه وقال لي:أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟قلت:لا،قال:قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا،تهرب ممن يطلبها،وتطلب من يهرب منها.

قلت:رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا،وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه
مثل الظل الذي يمشي معك

أنــــــت لاتـــــدركـــــه متبعـــــا
فـــــإذا وليـــــت عنـــــه تبعـــــك

قـال ابن الاثير:وكـان ـ يعنـي نور الـدين رحمه اللـه ـ يصلي كثيراً مـن الليل، ويدعو ويستغفر،ويقرأ ولايزال كذلك إلى أن يركب

جمع الشجـــاعـــة والخشـــوع
مـــا أحســـن المحـــراب في المحـــراب

قـال: وكـان عـارفـا بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه[١٥]،ليس عنـده تعصب بـل الانصاف سجيتـه في كل شيء ،وسمـع الحديث وأسمعه طلبا للأجر،وعلى الحقيقـة فهو الذي جدد للملوك اتباع سنـة العدل والانصـاف،وترك المحـرمات مـن المأكل والمشرب والملبـس، وغير ذلك فـإنهم كانـوا قبل ذلـك كالجاهليـة،همة أحدهـم بطنه وفـرجه لايعرف معـروفاً،ولاينكـر منكراً حتـى جاء الله بـدولته،فـوقف مـع أوامر الشرع ونواهيه،وألزم بـذلك اتباعه وذويه،فاقتـدى به غيره منهم واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه،ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة٠

قال :فـإن قال قائل: كيـف يوصف بـالزهـد من له الممالـك الفسيحة وتجبـى إليـه الأمـوال الكثيرة،فليـذكـر نبـي اللـه سليمان بـن داود عليهما السـلام،مع ملكـه،وهو سيـد الزاهـدين في زمـانه،ونبينـا صلى الله عليـه وسلم قـد حكم على حضر مـوت واليمن والحجاز وجميـع جزيـرة العرب من حدود الشام إلى العراق،وهو على الحقيقة سيد الزاهدين٠

قال:وإنما الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد عنها[١٦]

قال:وأما عدله فانه كان أحسن الملوك سيرة،وأعدلهم حكما،فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولامكسا ولاعشراً بل اطلقها رحمه الله

جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها،والموصل وأعمالها،وديار مصر وغيرها مما حكم عليه،وكان المكس في مصر يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعون ديناراً،وهذا لم تتسع له نفس غيره،وكان يتحرى العدل،وينصف المظلوم من الظالم،كائنا من كان،والقوي والضعيف عنده في الحق سواء،وكان يسمع شكوى المظلوم،ويتولى كشف حاله بنفسه،ولايكل ذلك إلى حاجب ولا أمير،فلا جرم سار ذكره في شرق الأرض وغربها٠

قال:ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن سخر لها نمضي أوامرها،فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة،فرأى انساناً يحدث آخر ويومي بيده إليه،فأرسل إليه يسأله عن حاله،فقال: لي مع الملك العادل حكومة،وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على الملك الفلاني ،فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرفه ما قال ذلك الرجل،وعاد يكتمه،فلم يقبل منه غير الحق،فذكر له قوله فألقى الجوكان من يده،وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين بن الشهرزوري، وأرسل إلى القاضي يقول له:إنني قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري،فلما حضر ساوى خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر:هل ثبت له عندي حق؟قالوا :لا،فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه،وهو له دوني وقد كنت أعلم أنه لاحق له عندي،وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته،فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له٠

قال ابن الاثير:وهذا غاية العدل والانصاف،بل غاية الاحسان،وهي درجة وراء العدل،فرحم اللّه هذه النفس الزكية الطاهرة المنقادة للحق الواقفة معه٠

قلت:وهذا مستكثر من ملك متأخر،بعد فساد الأزمنة،وتفرّق الكلمة،وإلاّ فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحكم جماعة من المتقدمين مثل عمر،وعلي رضي اللّه عنهما،ثم حكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور،وقد نقلنا ذلك كله في التاريخ الكبير،وفيه عن عبد الله بن طاهر قريب من هذا،لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمض إليه،وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استدعي مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه،فدخل حاجبه عليه متعجباً وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب،فأنكر عليه تعجبه، وقام رحمه الله مسرعا ووجد في أثناء طريقه ما منعه من العبور من حفر جب بعض الحشوس واستخراج ما فيه،فوكل من ثم وكيلاً وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل،ورجع .

قال ابن الاثير:ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الاعصار على الظنة والتهمة،بل يطلب الشهود على المتهم،فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ،فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته،مع شدة السياسة والمبالغة في العقوبة،والأخذ بالظنة، وأمنت بلاده مع سعتها،وقل المفسدون ببركة العدل،واتباع الشرع المطهر.

قال:وحكى لي من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال،فرأى فيها مالاً أنكره،فسأل عنه،فقيل:إن القاضي كمال الدين أرسله،وهو من جهة كذا،فقال:إن هذا المال ليس لنا،ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء،وأمر برده وإعادته إلى كمال الدين ليرده إلى صاحبه،فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين،فرده إلى الخزانة،وقال:إذا سأل الملك العادل عنه،فقولوا له عني:إنه له،فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب،وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال إلى أصحابه؟فذكروا له قول كمال الدين :فرده إليه وقال للرسول :قل لكمال الدين :أنت تقدر على

حمل هذا المال،وأما أنـا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله،والمخـاصمة عليه بين يدي الله تعالى،يعاد قولاً واحداً.

قال:ومن عـدله أيضا بعد موتـه،وهو من أعجب ما يحكـى،أن انسانا كان بـدمشق غريبـاً استوطنها وأقام بها لما رأى مـن عدل نور الـدين رحمه الله،فلما تـوفي تعدى بعض الأجنـاد على هذا الـرجل فشكاه فلـم ينصف فنزل مـن القلعة وهو يستغيث ويبكـي،وقد شق ثـوبه،وهو يقول: يـانور الدين لـو رأيتنا وما نحن فيـه من الظلم لرحمتنـا أين عدلك،وقصـد تربة نور الـدين ومعـه من الخلـق مالا يحصـى،وكلهم يبكـي ويصيح،فـوصل الخبر إلى صـلاح الديـن فقيـل له:احفـظ البلد والـرعيـة وإلا خرج عـن يدك،فـأرسل إلى ذلـك الرجل وهـو عند تـربة نور الـدين يبكـي والناس معـه،وطيب قلبـه ووهبـه شيئا وأنصفـه،فبكى أشـد مـن الأول،فقال لـه صلاح الدين:لم تبكـي؟قال:أبكي على سلطان عدل فينا بعـد موته،فقال صلاح الدين :هذا هو الحق،وكلما ترى فينا من العدل فمنه تعلمناه.

قلت:ومـن عدلـه أنه بنى دار العـدل،قال ابن الأثير:كـان نور الـدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العـدل،وكان سبب بنائها أنـه لما طـال مقـامـه بـدمشـق وأقـام بها أمـراؤه،وفيهـم أسـد الـديـن شيركوه،وهو أكبر أمير معه،وقـد عظم شأنه وعلا مكانه حتـى صار كأنه شريك في الملك،واقتنوا الاملاك فأكثروا،وتعـدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قـريـة أو غيرها،فكثـرت الشكـاوى إلى كمال الـدين فـأنصـف بعضهم من بعض،ولم يقدم على الانصاف مـن أسد الدين شيركوه،فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببنـاء دار العدل ، فلما سمع أسد الدين بذلك أحضر نـوابه جميعهم وقال لهم: اعلمـوا إن نور الدين مـا أمر ببناء هـذه الـدار إلا بسببـي وحـدي،وإلا فمـن هـو الـذي يمتنـع على كمال الـديـن،ووالله لئـن أحضرت إلى دار العـدل بسبـب أحـدكـم لأصلبنه،فامضوا إلى كـل من بينكم وبينه منازعة في ملـك فافصلوا الحال معه،وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له:

إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب،فقال:خروج أملاكي من يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم،أو يساوي بيني وبين أحاد العامة في الحكومة،فخرج أصحابه من عنده،وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم،وأشهدوا عليهم،فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات،وكان يجلس في الاسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدّة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين،فقال نور الدين لكمال الدين:ماأرى أحدا يشكو من شيركوه،فعرّفه الحال،فسجد شكراً لله تعالى، وقال الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الاثير:فانظر إلى المعدلة ما أحسنها،وإلى هذه الهيبة ما أعظمها،وإلى هذه السياسة ما أسدها.هذا مع أنه كان لايريق دما ولايبالغ في عقوبة،وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحسن نيته.

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه،فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأيا،وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم،وبه كان يضرب المثل في ذلك.

سمعت جمعاً كثيراً من الناس،لاأحصيهم يقولون:إنهم لم يروا على ظهر فرس أحسن منه كأنما خلق عليه لايتحرك ولايتزلزل،وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها،لم ير جوكانه يعلو على رأسه،وكان ربما ضرب الكرة ويجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان،وكانت يده لاترى والجوكان فيها بل تكون في كم قبائه استهانة باللعب،وكان إذا حضر الحرب أخذ قوسين وتركشين وباشر القتال بنفسه،وكان يقول طالما تعرّضت للشهادة فلم أدركها،سمعه يوما الامام قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك:فقال له:بالله لاتخاطر بنفسك وبالاسلام والمسلمين فإنك

عمادهم،ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة لايبقى من المسلمين أحد إلاّأخذه السيف،وأخذت البلاد،فقال:ياقطب الدين ومن محمود حتى يقال له هذا، قبلي من حفظ البلاد والاسلام ذلك الله الذي لا اله الا هو.

قال:وكان رحمه الله يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج،خذلهم الله تعالى،وأكثر ما ملكه من بلادهم به،ومن جيد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن،صاحب الدروب،فإنه مازال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراًوحضراً ،وكان يقاتل به الافرنج،وكان يقول:إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك،وقلاعه منيعة،وليس لنا إليها طريق،وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام،فإذا طلب انحجر فيها فلا يقدر عليه،فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئا من الاقطاع على سبيل التأليف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا،وساعدنا على الفرنج.

قال:وحيث توفي نور الدين رحمه الله،وسلك غيره غير هذا الطريق،ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الاسلام وحصونهم،وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لايمكن رقعه.

قال:ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده،فإنه كان إذا توفي أحدهم وخلف ولداًأقر الاقطاع عليه،فإن كان الولد كبيراًاستبدّبنفسه،وإن كان صغيراًرتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر،فكان الأجناد يقولون:هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد،فنحن نقاتل عليها،وكان سببا عظيما من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب،وكان أيضا يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه،وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد،ويقول نحن كل وقت في

النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العدد والعدد،دخل الوهن على الإسلام.

قال:ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال:وأصاب فيما فعل فلقد رأينا ما خافه عيانا.

قال:وأما فعله في بلاد الاسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم،من ذلك انه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها:حلب وحماه، وحمص،ودمشق،وبارين، وشيزر ومنبج،وغيرها من القلاع والحصون وحصنها وأحكم بناءها،وأخرج عليها من الأموال مالا تسمح به النفوس،وبنى أيضا المدارس بحلب وحماه ودمشق وغيرها للشافعية والحنفية،وبنى الجوامع في جميع البلاد،فجامعه في الموصل اليه النهاية في الحسن والاتقان،ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر الملاء رحمه الله،وهو رجل من الصالحين فقيل له:إن هذا لايصلح لمثل هذا العمل،فقال:إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتاب أعلم أنه يظلم في بعض الاوقات ولايفي الجامع بظلم رجل مسلم،وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لايظلم،فإذا ظلم كان الاثم عليه لا علي.قال:وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم،وبنى أيضا بمدينة حماه جامعا على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها،وجدّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم إما بزلزلة أو غيرها،وبنى البيمارستانات في البلاد،ومن اعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق،فإنه عظيم كثير الخرج جدا،بلغني أنه لم يجعله وقفا على الفقراء حسب بل على كافة المسلمين من غني وفقير.

قلت:وقد وقفت على كتاب وقفه فلم أره مشعراًبذلك،وإنما هذا كلام مشاع على ألسنة العامة لنفع ما قدره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء

للفقراء فيـه،والله المستعـان،وانما صرح بأن مـا يعز وجـوده من الأدويـة الكبار وغيرها،لايمنـع منه من احتاج إليه، من الأغنيـاء والفقراء ،فخص ذلك بـذلك،فـلا ينبغي أن يتعـدّى إلى غيره،لاسيما وقد صرح قبـل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين،وقال بعد ذلـك:من جاء إليه مستوصفا لمرضه أعطي،والله أعلم.

وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نـور الدين رحمه الله وقع في أسره بعض أكـابر ملـوك الفرنج،خـذلهم الله تعـالى فقطع على نفسـه في فدائه مالاً عظيماً،فشاور نـور الدين أمراءه فكـل أشار بعدم اطلاقـه لما كان فيه من الضرر على المسلمين،ومال نـور الدين إلى الفداء بعد مـا استخار الله تعالى،فـأطلقه ليلاً لئـلا يعلم أصحابـه، وتسلم المال ،فلما بلغ الفـرنجي مأمنه مات،وبلغ نور الدين خبره،فـأعلم أصحابه،فتعجبوا من لطف الله تعـالى بـالمسلمين حيـث جمع لهم الحسنتين وهما الفـداء ومـوت ذلـك اللعين،فبنى نور الـدين رحمه الله بذلك المال هـذا البيمارستان،ومنع المال الأمراء ،لأنه لم يكن عن ارادتهم كان.

قال ابـن الاثير:وبنى أيضا الخانات في الطـرق،فأمن النـاس، وحفظت أموالهم وبـاتوا في الشتاء في كن مـن البرد والمطر،وبنى أيضـا الأبراج على الطـرق بين المسلمين والفرنـج،وجعـل فيها مـن يحفظهـا ومعهم الطيـور الهوادي،فـإذا رأوا مــن العـدو أحـدا أرسلـو ا الطيـور فـأخـذ النـاس حذرهم،واحتـاطوا لأنفسهم،فلم يبلغ العـدو منهم غرضا،وكـان هذا من ألطف الفكر،وأكثرها نفعا.

قال:وبنى الـربط والخانقاهات في جميـع البلاد للصوفية،ووقـف عليها الـوقوف الكثيرة،وأدرّ عليهـم الإدرارات الصـالحة،وكـان يحضر مشايخهـم عنده ويقربهم ويـدنيهم ويبسطهم ويتواضـع لهم،فإذا أقبل أحدهـم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه،ويعتنقه ويجلسه معه على سجادته،ويقبل عليه

بحديثه،وكذلك كان أيضا يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام،ويجمعهم عند البحث والنظر،فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه،وكان أمراءه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم،وإذا نقلوا عن إنسان عيبا يقول: ومن المعصوم،وإنما الكامل من تعد ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي،وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في اكرامه والاحسان إليه،فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين،فقال له:ياهذا إن صح ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها،وهي العلم والدين،وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ماذكرت،وليست لكم حسنة تغفرها،ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك،وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم،أفلا أحمل سيئة هذا إن صحت مع وجود حسنته،على أنني والله لاأصدقك فيما تقول ،وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدّبنك فكف عنه.

قال ابن الاثير:هذا والله هو الاحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

وبنى بدمشق أيضا دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة فهو أول من بنى داراً للحديث فيما علمناه.وبنى أيضا في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة،وبنى أيضا مساجد كثيرة،ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن .قال،وهذا فعل لم يسبق إليه،بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا،وهو سنة ثمان وستمائة،كل شهر تسعة آلاف دينار صورية ليس فيها غير ملك صحيح

شرعي ظاهراً وباطناً،فإنه وقف ما انتقل إليه ووزن ثمنه،أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه

قال:وأما هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما،ولقد كان كما قيل شديداً في غير عنف،رقيقاً في غير ضعف،واجتمع له ما لم يجتمع لغيره،فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده إلى غاية لامزيد عليها،وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير،ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف،وأما من عداه كأسد الدين شيركوه،ومجد الدين بن الدايةوغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياما إلى أن يأمرهم بالقعود،وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه،ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه،وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا قنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا،وكان مجلسه كما روي في صفة مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجلس حلم وحياء لاتؤبن فيه الحرم(١٧)، وهكذا كان مجلسه لايذكر فيه إلاّ العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو لايتعدى هذا، بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقي رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغط وسوء الادب من الجلوس فيه مالاحد عليه، فشرع يحدث صلاح الدين كما كان يحدث نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الإختلاف من المتحدثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مدّة لايحضر المجلس الصلاحي، وتكرر من صلاح الدين الطلب له، فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال:نزهت نفسي عن مجلسك فإنني رأيته كبعض مجالس السوقة، لايستمع فيه إلى قائل ولايرد جواب متكلم، وقد كنا بالامس نحضر مجلس نور الدين ، فكنا كما قيل كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة

والوقار،فإذا تكلم أنصتنـا، وإذا تكلمنا استمع لنا،فتقدم صلاح الدين إلى أصحابه أنـه لايكون منهم ماجرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قـال ابـن الاثير:فهكـذا كـانـت أحوالـه جميعهـا رحمه اللـه مضبـوطـة محفـوظـة،وأمـا حفـظ أصـول الـديـانـات فـإنـه كـان مـراعيـا لها لايهملهـا،ولايمكن أحـداً من النـاس مـن اظهار مـا يخالف الحق،ومتـى أقـدم مقـدم على ذلك أدبـه بما ينـاسـب بـدعتـه،وكان يبـالـغ في ذلـك ويقول:نحن نحفـظ الطرق من لص وقاطع طـريق والأذى الحاصل منهما قريب،أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قال:وحكي أن إنسانا بدمشق يعرف بيـوسف بن آدم،كان يظهر الزهد والنسك،وقـد كثر اتبـاعه أظهر شيئـا من التشبيه،فبلـغ خبره نور الـدين فـأحضره وأركبـه حماراً وأمر بصفعـه،فطيـف بـه في البلد جميعهـا،ونـودي عليه:هذا جزاء من أظهر في الدين البدع،ثم نفاه من دمشق،فقصد حرّان وأقام بها إلى أن مات.قال:ويسوق الله القصار الاعمار إلى البلاد الوخمة.

قلت:وذكر العماد الكـاتب في أوّل كتابه البرق الشامي أنـه قدم دمشق في شعبان سنـة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العـادل نور الـدين محمود بـن زنكي،وأخذ في وصفـه بكلامه المسجـوع فقال:كان ملـك بلاد الشام ومالكها،والذي بيده ممالكها،الملـك العادل نور الدين،أعف الملوك وأتقاهم،وأثقبهم رأيا وانقاهم،وأعـدلهم.وأعبدهم . وأزهدهم. وأجهدهم. وأظهـرهم. وأطهـرهم. وأقـواهم .وأقـدرهم.وأصلحهـم عملا. وأنجعهـم أملا. وأرجحهـم رأيا. وأوضحهـم رأيا(١٨). وأصدقهـم قولا. وأقصـدهم طولا. وكـان عصره فاضلاً ونصره واصلاً. وحكمـه عادلاً. وفضله شـاملاً. وزمانـه طيباً. وإحسانـه صيبا. والقلوب بمهـابته ومحبته ممتلئـة. والنفوس بعاطفته وعارفته ممتلية وأوامره ممتثلـه. وجدّه منزه عن الهزل. ونوّابه في أمن العزل. ودولته مأمـولة مأمونة. وروضته مصـوبة مصونة. والرياسـة كاملة. والسياسـة شاملـة. والزيـادة زائدة. والسعادة مسـاعدة. والعيشـة ناضرة.

والشيعة نـاصرة. والانصاف صاف. والاسعـاف عاف. وأزر الديـن قوي. وظمأ الاسلام روي، وزند النجـح وري. والشرع مشروع. والحكم مسموع. والعدل مولى. والظلـم معزول. والتوحيد منصـور. والشرك مخذول. وللتقى شروق. وما للفسوق سوق. وهو الذي أعـاد رونق الاسلام إلى بلاد الشام. وقد غلـب الكفر، وبلـغ الضر. فاستفتـح معاقلهـا. واستخلص عقـائلها وأشاع بها شعـار الشرع في جميع الحل والعقد. والابرام والنقـض. والبسط والقبض. والوضع والـرفع. وكانت للفرنج في أيـام غيره على بلاد الاسلام بالشـام قطائع. فقطعها وعفـى رسومهـا ومنعها. ونصره الله عليهـم مرارا حتى أسر ملـوكهم. وبدّد سلوكهـم. وصان الثغور منهم. وحماهـا عنهم. وأحيا معـالم الدين الـدوارس. وبنى لـلأئمة المدارس. وأنشأ الخانقـاهات للصوفية. وكثرها في كـل بلد وكثر وقوفها. وقرّر معروفها. وأدنـى للوافدين من جنـي جنانه قطوفهـا .وأجدّ الأسوار والخنادق. وأنمـى المرافق. وحمى الحقـائق. وأمر في الطـرقـات ببنـاء الربـط والخانـات. فضـافت ضيـوف الفضـائل. وفاضـت فيـوض الأفاضـل. وهـو الذي فتـح مصر وأعمالها. وأنشأ دولتها ورجالها(١٩).

• ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسـع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

وفي هـذه السنـة أكثر نـور الـديـن مـن الأوقاف والصـدقـات،وعمارة المساجـد المهجورة،وتعفيـة آثار الآثام، واسقـاط كل مـا يدخـل في شبهة الحرام،فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصـل من قسمه الغلات على قويم المنهاج•

قال: وأمـرني بكتب مناشير لجميـع أهل البـلاد،فكتب أكثر مـن ألف منشـور وحسبنـا ما تصـدق بـه على الفقـراء في تلك الأشهـر، فـزاد على ثلاثين ألـف دينار،وكانت عـادته في الصدقـةأنه يحضر جماعة من أمـاثل

البلـد من كـل محلـة ويسألهم عمـن يعـرفون في جـوارهـم من أهـل الحاجـــــــــة، ثــــــــم يصرف إليهـــــــــم صدقاتهم، وكان له برسم نفقة الخاص في كـل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطيس يصرفها في كسوتـه ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أجرة خياطـة وجامكية طبـاخه، ويستفضل منه مـا يتصدق به في آخـر الشهر، وأما مـا كان يهدى إليه مـن هدايا الملـوك وغيرهم فإنـه كان لايتصرف في شيء منـه لاقليـل ولا كثير، بـل إذا اجتمـع يخرجـه إلى مجلـس القـاضي ويحصل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة ، وتقدم باحصاء مافي محال دمشق فـأناف على مـائة مسجد، فـأمر بعمارة ذلـك كله، وعين لـه وقـوفاً. قـال: ولـو اشتغلت بـذكـر وقوفـه وصـدقاتـه في كـل بلد لطـال الكتاب، ولم أبلغ إلى أمـد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلـوص نيته يغني عـن خبرهـا بـالعيـان، ويكفـي أســوار البلـدان عـن الـربـط والمدارس على اختـلاف المذاهب، واختلاف المواهـب وفي شرح طوله طـول، وعمله لله مبرور مقبول.

وواظـب على عقد مجالـس الـوعـاظ،ونصب الكـراسي لهم في القلعـة لـلانـذار والاتعـاظ، وأكبرهـم الفقيـه قطب الـديـن النيسـابـوري، وهـو مشغوف ببركـة أنفاسـه، واغتنام كـلامه واقتبـاسه، ووفـد من بغـداد ابن الشيـخ أبي النجيب الأكبر، فبسـط له في كـل أسبوع منبر وشـاقه وعظـه، وراقه معناه ولفظه، وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن شوروه (٢٠) وما أيمن تلك الايام وأبرك تلك الشتوه.

وقال: ولما اسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشحن، وصرف عـن الرعية بصرفهم المحـن، وقال للقاضي كمال الـدين ابن الشهر زوري: انظر أنت ذلـك واحمل أمور الناس فيها على الشريعة، قال: ولم يكن لمال المواريـث الحشرية حاصل، ولا لديوانـه طائل، فجعل نور الديـن ثلث ما يحصل فيه لكمال الـدين الحاكم، فوفره نـوّابه وكثروه، وما كان نور الدين يحاسب القـاضي على شيء من الوقوف، ويقول أنا قد

قلدتـه على ان يتصرف بالمعروف، وما فضـل من مصارفهـا وشروط واقفها يأمـره بصرفه في بناء الأسـوار، وحفظ الثغور. وكانـت دولته نافـذة الأوامر، منتظمة الأمور.

قلت : وحكى الشيـخ أبو البركات الحسن بـن محمد بن هبة اللـه أنه حضر مع عمـه الحافظ أبي القـاسم، رحمه الله، مجلـس نور الـدين لسماع شيء من الحديث. فمـرّ في أثناء الحديث أن النبي صلى اللـه عليه وسلم خرج متقلـداً سيفاً فـاستفاد نـور الدين أمـراً لم يكن يعـرفه، وقـال: كان رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم يتقلـد السيف، يشير إلى التعجـب من عادة الجنـد، إذ هم على خلاف ذلـك لأنهم ير بطونـه بأوساطهـم، قال: فلما كان مـن الغد مـررنا تحت القلعـة والناس مجتمعـون ينتظرون ركـوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم ، فخـرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلـد للسيف، وجميـع عسكره كـذلك، فـرحمة الله على هـذا الملك الذي لم يفرط في الاقتـداء بالنبي صلى الله عليه وسلم بمثـل هذه الحالة، لما بلغته رجـع بنفسه، ورد جنـده عن عوائدهـم اتباعـا لما بلغه عـن نبيه صلى الله عليـه وسلم، فما الظن بغير ذلـك من السنن، ولقد بلغنـي أنه أمر باسقـاط ألقابه في الدعاء له على المنـابر، ورأى له وزيره موفـق الدين خالـد بن القيسراني الشاعر في منـامه أنه يغسـل ثيابه، وقص ذلـك عليه ففكر ساعـة ثم أمره بكتابـة اسقاط المكوس، وقال: هـذا تفسير منامك، وكـان في تهجـده يقـول: ارحـم العشار المكـاس، وبعـد أن أبطـل ذلـك استجعل من الناس في حـل، وقال: والله ماأخرجناهـا إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام، يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

وعلى الجملـة كان نـور الديـن رحمه الله فـرداً في زمانـه من بين سـائر الملوك، ولـو لم يكن إلا استماعه للمـوعظة وانقيـاده لها وان اشتملت على ألفاظ، قد أغلظ له فيها.

قرأت في تاريخ إربل لشرف الدين بن المستوفي رحمه الله، قال: المنتجب الواعظ، هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى الشام لسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها، ثم ردها عليه، أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

مثـــــــل وقوفك أيها المغرور
يــــوم القيـــامــــة والسماء تمور
إن قيــل نــور الــديــن رحــت مسلما
فــاحــذر بــأن تبقــى ومــالــك نــور
أنهيــت عــن شرب الخمــور وأنــت مــن
كــأس المظــالم طــافــح مخمــور
عطلــت كــاســات المدام تعففــا
وعليــك كــاســات الحرام تــدور
مــاذا تقــول إذا نقلــت إلى البلى
فــردا وجــاءك منكــر ونكير
وتعلقــت فيــك الخصــوم وأنــت في
يــوم الحســاب مسحــب مجرور
وتفــرقــت عنــك الجنــود وأنــت في
ضيــق اللحــود مــوســد مقبــور
ووددت أنــك مــا وليــت ولايــة
يــومــاً ولا قــال الانــام أمير
وبقيــت بعــد العــز رهــن حفيرة
في عــالم الموتــى وأنــت حقير
وحشرت عــريــانــا حــزينــا بــاكيــا
قلقــا ومــالــك في الانــام مجير

أرضيـــــت أن تحيـــــى وقلبـــــك دارس
عـــــافي الخراب وجسمـــــك المعمـــــور
أرضيـــت أن يحظـــى ســـواك بقـــربـــه
أبـــدا وأنـــت مبعـــد مهجـــور
مهـــد لنفســـك حجـــة تنجـــو بها
يـــوم المعـــاد لعلـــك المعـــذور (٢١)

قلت: ولعل هذه الابيات من أقوى الأسباب المحركة للسلطان في إبطال المظالم، والخلاص من تلك المآثم رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه،ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب تاريخ حلب الذي صنفه، وسمعت من لفظه أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جعبر وقتل عليها قصد حلب وصعد قلعتها وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأحسن إلى الرعية وثبت العدل ورفع الجور، وأبطل البدع واشتغل بالغزو وفتح قلاعا كثيرة من عمل حلب، كانت بيد الفرنج، وحدّث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له منهم : أبو عبد الله بن رفاعة بن عزيز السعدي المصري.

روى عنه جماعة من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد، وأبي البركات الحسن، وأبي المنصور عبد الرحمن بني أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشافعي.

قال: ووقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسراني كتبها إلى نور الدين وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور،فنقلت جميع ما فيها من خطيها، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسراني أن يكتب له صورة ما يدعى له به

على المنابر حتى لايقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب، وعن ما هو مخالف لحاله ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين،وبلغه أماله في نفسه وذريته،وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنه وجوده وفضله وحمده،وقف المملوك على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه، وعن والديه وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقرب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير ،وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الاشرف، زاده الله شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى:«اللهم اصلح عبدك الفقير إلى رحمتك،الخاضع لهيبتك،المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين» فان هذا جميعه لايدخله كذب ولازيادة،والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه ما هذا صورته:مقصودي أن لايكذب على المنبر أنا بخلاف كل ما يقال، أفرح بما لاأعمل قلة عقل عظيم. الذي كتب جيد أكتب به نسخ حتى نسيره إلى جميع البلاد،وكتب في آخر الرقعة ثم يبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم أنصره، اللهم وفقه، من هذا الجنس

قال: وحدثني والدي قال: استدعانا نور الدين أنا وعمك أبو غانم، وشرف الدين بن أبي عصرون إلى الميدان الأول،وأشهدنا عليه بوقف حوانيت على سور حمص،فلما شهدنا عليه التفت إلينا وقال:بالّله انظروا أي شيء عملتموه من أبواب البر والخير دلونا عليه، وأشركونا في الثواب، فقال شرف الدين بن أبي عصرون: والله ما ترك المولى شيئا من أبواب البر إلاّ وقد فعله،ولم يترك لأحد من بعده فعل خير إلاّ وقد سبقه إليه.

وقال:قال لي والدي:دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر

فمات بها وخلف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض من بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة، فكتب على رقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله، وأما الساعي فلعنه الله(٢٢).

قال: وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضا، وحدثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذبخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذبخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين، وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً، وجعل ينكت بأصبعه في الأرض،فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر في عائلته أو في وفاء دينه، فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان؟ فقلنا:ما قلنا شيئا، فقال: بحياتي قولا لي، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: واللّه إنني أفكر في وال وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك فبالله عليكم، وإلا فخبزي عليكم حرام لاتريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وأرفعاها إليّ.

وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم قال: كان نور الدين ينفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر الملاء شيئا يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لايأكل إلاّ من طعام الشيخ عمر الملاء.

قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شحنة

الموصل أن لايعمل شيئا إلاّ بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لايعمل القاضي والنواب كلهم شيئا إلاّ بأمر الشيخ عمر الملاء.

قال: فكان لايعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية في أكابر الدولة، وقالوا لكمشتكين: قد كثر الذعار وأرباب الفساد، ولايجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لاأكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الذعار والمفسدين وقطاع الطرق قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال انسان في البرية من يجيء يشهد له؟ قال : فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره:إن اللّه تعالى خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها ، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. قال: فجمع الشيخ عمر الملاء أهل الموصل وأقرأهم الكتاب، وقال انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وسمعت صقر بن يحيى بن صقر المعدّل يقول: سمعت مقلداً-يعني الدولعي يقول: لما مات الحافظ المرادي وكنا جماعة الفقهاء قسمين : العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وكان بالموصل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف وأراد أن يستدعي قطب النيسابوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدّس ثم عاد إلى بلاد العجم، فوقع بيننا كلام بسبب ذلك، ووقعت فتنة بين الفقهاء، فسمع نور الدين بذلك فاستدعى جماعة الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجد الدين، يعني ابن الداية عن لسانه، وقال لهم: نحن ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من

هذه البلـدة، واظهار الدين، وهـذا الذي جرى بينكم لا يحسـن ولايليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نـرضي الطائفتين، ونستدعي شرف الدين ابـن أبي عصرون، وقطب الـدين النيسـابـوري فاستـدعاهما جميعـا، وولى مدرسة ابن أبي عصرون لشرف الدين، ومدرسة النفري(٢٣) لقطب الدين.

قال: وعلقـت أيضا من خط فقيـه كان معيدا بـالنظامية يقال لـه أبو الفتـح بنجة بـن أبي الحسـن بن بنجـة الاشتري، وكـان ممن ورد دمشـق، وجمع لنـور الديـن سيرة مختصرة قال: كـان نـور الديـن يقعد في الأسبـوع أربعة أيـام أو خمسة أيـام في دار العدل للنظـر في أمور الـرعية، وكشـف الظلامة لايطلب بذلك درهما ولا دينـارا أو زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلـك ابتغاء مرضـاة الله، وطلبا للثواب والـزلفى في الآخرة، ويـأمر بحضور العلماء والفقهاء ويـأمر بازالة الحاجب والبواب حتـى يصل إليه الضعيف والقـوي والفقير والغني، ويكلمهم بـأحسن الكـلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لايطمـع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسة العجوز الضعيفة التي لاتقدر على الوصـول إلى خصمها، ولا المكـالمة معه فيأمـر بمساواتـه لها، فتغلب خصمها طمعـاً في عدلـه، ويعجز الخصـم عن دفعهـا خوفـا من عـدله، فيظهر الحق عنـده فيجري الله تعـالى على لسانه مـا هو موافـق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكـل عليه من الأمور الغـامضة، فلا يجري في مجلسه الا محض الشريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالـح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهـم، وأما فكره ففـي اظهار شعار الإسـلام، وتأسيس قـاعدة الديـن من بنـاء المدارس والربـط والمساجـد حتى أن بـلاد الشام كـانت خـاليـة مـن العلـم وأهلـه، وفي زمـانـه صـارت مقـرّا للعلماء والفقهـاء والصوفية، لصرف همته إلى بناء المدارس والربـط، وترتيب أمورهم والناس آمنون على أمـوالهم وأنفسهم، ولـو لم يكن من هـذه الخصال إلاّ مـا علم

منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولايخالف قوله ولايرجع عن لفظه ومنطقه لكفى، ولايجري في مجلسه الفسق والفجور والشتم والغيبة والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولايطمع في أخذ أموال الناس ولايرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئا بغير حق.

قال:وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدّي الصلوات الخمس في أوقاتها،بتمائم شرائطها، وأركانها وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة، حكاية عن الكفار أنهم يقولون : ابن القسيم له مع الله سر ، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله ويدعو، فالله سبحانه وتعالى يستجيب له دعاءه، ويعطيه سؤله، وما يردّ يده خائبة، فيظفر علينا ،قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدّسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأوّل سنة ثمان وخمسين، فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ماورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد، فسألت عنه، فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان، وكان قد أودع عند أخيه أبي

البيان وديعة، وقد توفي فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالردّ عليه، فانكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع أن يحلف أنه لاعلم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك فجعل المودع يشنع عليه ويقول انه حلف كاذبا، ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمس وغيره، فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومن الذي يقدر أن يقول في حقي هذا، ويتعرّض بالتماسه من الملك العادل التقدّم باحضاره والانكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جعبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الانكار عليه، فقال الملك العادل: أليس إن الله تعالى يقول في كتابه:(وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (٢٤))فاذا كان يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل مالا يجوز، فيجب عليك أن لاتعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، فكأنك قابلت الاساءة بالاساءة، ومن حقك أن تقابل الاساءة بالاحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل إما قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه أو أجراه الّله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار وشكوا أن القراطيس كان ستون منها بدينار فصار سبعة وستون بدينار، وتزيد وتنقص فيخسرون، فسأل الملك العادل عن كيفية الحال فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولايرى الدينار في الوسط، وإنما يعدون القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار، وتارة سبعة وستين بدينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكلية، فسكت ساعة وقال: إذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقراطيس فكأني خربت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السوقة عنده عشرة آلاف، وعشرون ألف قرطاس أي شيء يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته.

قال: فأي شفقة تكون أعظم وأكثر من هذا على الرعية.

قال: وحضر صبي وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف، وليس له قدرة على الأجرة وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مائة وخمسون قرطاسا، وذكروا سيرته وطريقته وفقره، فرقّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح، حتى كأن الانعام كان في حقه.

أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشمي قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردري قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يدعى سويداً يحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وادّعى أن له على نور الدين دعوى، فقال الكردري لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج اسماعيل الخزندار فوجده، فتقدّم سويد إليه وقال: سيرني تاج الدين، يعني القاضي، وذكر أنه حضر تاجروذكر أن له دعوى على المولى نور الدين، وقد أنفذني تاج الدين وقال لي: كذا وكذا، فضحك اسماعيل الخزندار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئا: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردري، وقال إن تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على اسماعيل استهزاءه، وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم، وقال نور الدين: يحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة، قال الله تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله

ليحكم بينهم أن يقولـوا سمعنا وأطعنا)[٢٥] ثم نهض وركب حتـى دخل باب المدينـة، فاستدعى سـويداً وقال لـه: امض إلى القاضي تاج الـدين وسلم عليه وقـل له: إني جئت إلى ها هنا امتثـالا لأمر الشرع، واحتاج في الحضور إلى مجلسة إلى سلوك هذه الأزقـة وفيها الاطيان وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجهت عليّ يمين أحضر إن شـاء اللّه تعالى، قال: فحضر الوكيـل وسمع الدعـوى، وتوجهت اليمين فقـال الكردري: قد تـوجهت اليمين فليحضر، فلما بلـغ نـور الديـن ذلـك وعلـم أنـه لامندوحـة عـن حضـور مجلسه لليمين، استدعى ذلك التـاجر وأصلـح الأمر فيما بينـه ، وأرضاه.

وسمعت قـاضي القضاة بهاء الـدين يقـول: حكى لي السلطـان الملك الناصر صـلاح الديـن قال: أرسلني الملـك العادل نـور الديـن إلى عمي أسد الدين شيركـوه ، وكان لايفعل شيئا إلاّ بمشورته، فقـال: امض وقل لأسد الـدين: قـد خطر في بـالي أن أبطل هـذه الضمانات بـأسرها والمؤن والمكوس، وخذ رأيه في ذلك، قال:فجئـت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: ياMولانا إذا فعلت ذلـك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات مـن أين تعطيهم، وتحتـاج إليهم للغـزاة، وخروج العساكـر؟ قال السلطـان صلاح الـدين: فقلـت لعمي : هـذا أمـر قد ألهمـه اللّه إيـاه، فساعده عليه فصاح فيّ وقال: امض إليه، وقل له ما أقول لك.

قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليـه ما قال عمي، فقال امض إليه وقـل له إذا كنـا نغـزو من هـذه الجهات نتركهـا ونقعـد ولانخرج، قـال: فعدت إلى عمي وقلت مـا قال، فقال : قل له إن تركـوك نقعد فجيد هو، فراجعته في أن لايثبطه عـن ذلك، فصاح فيّ وقال: امض إليه وقـل له ما أقول لـك، فجئت إليـه وقلت له ذلـك، فترك ذلك مـدة، ثم أمضـى ما كان عزم عليه.

قال لي صقر بن يحيى: بلغني أن موفق الدين خالداً رأى في النوم كأن نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين فتمعر وجه نور الدين، فخجل موفق الدين وبقي أياما على غاية من الخجل، فاستدعاه يوما نور الدين، وقال: قد آن لك أن تغسل ثيابي أقعد وأكتب باطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين إني قد رفعت عنكم ما رفعه الله تعالى عنكم، واثبت عليكم ما أثبته الله عليكم، قال: فكتب موفق الدين توقيعا.

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول لما كسر نور الدين، يعني كسرة البقيعة، تكلم البرهان البلخي فقال: اتريدون أن تنصروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور، كلا، وكلاماً مع هذا ، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس إلى أن خرج في نوبة حارم وكسر الأفرنج.

سمعت صديقنا شمس الدين اسماعيل بن سود كين بن عبد الله النوري، وكان أبوه أحد مماليك نور الدين، فاعتقه، يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحا ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل، قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع، ويقول: ارحم العشار المكاس.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سير نور الدين إلى بغداد كتابا يعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدم إلى الوعاظ أن يستجعلوا من التجار ومن جميع المسلمين له في حل مما كان قد وصل إليه، يعني من أموالهم، فتقدم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

حدّثني رضي الديـن أبو سالم عبد المنعم بن منـذر أن نور الدين حين خرج لأخـذ شيزر ، خرج أبـو غانم بـن منذر صحبته، فـأمره نور الـدين بكتـابـة منشـور بـاطـلاق المظـالم بحلـب . ودمشـق. وحمص. وحـران. وسنجار. والـرحبة. وعزاز. وتـلّ باشر ، وعداد العـرب، فكتب عنه تـوقيعا نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما تقـرّب به إلى الّله سبحانـه وتعالى صافحا، وأطلقـه مسامحا لمن علم ضعفه من الـرعايا رعاهم الّله ،لضعفهم عن عمارة مـاأخربته أيدي الكفار أبادهم الّله عند إستيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفة بالمسلمين المثاغـرين، ولطفاً بالضعفاء المرابطين الذيـن خصهم الّله سبحـانـه بفضيلـة الجهـاد، واستمحنهم بمجـاورة أهـل العنـاد اختبـاراً لصبرهـم وإعظـامـا لأجـرهم،فصبروا احتسـابـا، وأجـزل الّلـه لهم أجـرا وثـوابا،(إنما يـوفى الصابـرون أجـرهم بغير حسـاب)[٢٦]وأعاد عليهـم ما اغتصبوا عليه من أملاكهم التي أفـاء الّله عليهم بها من الفتوح العمرية، وأقرّهـا في الدولـة الاسلاميـة، بعد مـا طرأ عليهـا من الظلمـة المتقدّمين، واسترجعه بسيفـه من الكفرة الملاعين، فطمـس عنهم بذلـك معالم الجور، وهدم أركان التعدّي، وأقـرّ الحق مقرة لقوله تعالى:(من جـاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[٢٧](والّله يضاعـف لمن يشاء[٢٨]) ثم لما أعـانه الّله بعـونه وأيده بنصره وقمـع به عاديـة الكفر وأظهـر بهمته شعائر الاسـلام وأظفره بالفئة الطاغيـة، وأمكنه من ملوكها الباغيـة، فجعلهم بين قتيل غير مقاد، وهارب ممنـوع الرقـاد ، وآخرين مقـرنين في الاصفاد، هذا عطـاؤنا فـامنن أوأمسك بغير حساب، (وان لـه عندنا لزلفـى وحسن مآب[٢٩]) علم أن الدنيا فانية، فـاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى ملكـه الزائل بأن قدّمه أمامه وجعله ذخراً للمعاد، فـالتقوى مادّة دارة إذا انقطعت المواد، وجادّة واضحة حين يلتبـس الجواد (يوم لاتملك نفس لنفـس شيئا والامر يـومئذ

لله(٣٠))فصفح لكافة المسافرين وجميع المسلمين بالضرائب والمكوس وأسقطها من دواوينه، وحرّمها على متطاول إليها ومتهافت عليها، تجنبا لإثمها،واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه إتباعا لكتاب اللّه، وسنة نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم في كل سنة من العين مائة ألف وستة وخمسون ألف دينار، جهة ذلك : حلب خمسون ألف دينار، عزاز عن مكس جدّدته الفرنج خذلهم اللّه على المسافرين عشرة آلاف دينار. تلّ باشر أحد وعشرين ألف دينار. المعرّة ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة لما استنجد به أهلها واستصرخ من فيها خوفا على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدّو، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل سنة، وهو رسم يسمونه الفيئة عشرون ألف دينار، حمص ستة وعشرين ألف دينار. حرّان خمسة آلاف دينار. سنجار ألف . الرحبة عشرة آلاف دينار. عداد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدّق به وأجراه في سبل الخيرات، ووجوه البرّ والصدقات تقدير ثمنه مائتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأئمتها ومدرّسيها وفقهائها، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور، والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبل في طريق الحجاز، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الأيتام ومقرّ الغرباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين، وما ملكه لجماعة من الأولياء والغزاة والمجاهدين، هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثغور حرسها اللّه تعالى من أملاكهم التي تقدم ذكرها، فإنه يضاهي هذا المبلغ وزيادة عليه، جعل ذلك ذريعة عند اللّه وتقرّباً إليه، مضافا إلى ما أنفقه في الغزاة والجهاد ، واستئصال شأفة أهل الكفر والعناد، من خزائنه المعمورة، وأمواله الموروثة المذخورةطلبا لما عند اللّه (واللّه عنده حسن الثواب)(٣١) فالواجب على كل إمام عدل وسلطان قادر أن يمدّه ويودّه، ويشدّ عضده، ويقوّي عزمه، وينفذ حكمه، وعلى كل مسلم أن يواصله بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار.

كتبه خادم دولته، وغـذيّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعـم بن رضوان ابن عبـد الواحد بـن محمد بن المنـذر الحلبي، غفر اللّـه له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه مـن أئمة الدين، وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا المتعبـدين وكافة التجار والمسـافرين، أحسن اللّه تـوفيقهم، وسدّد إلى أغـراض الخير تـوفيقهم ، ليشعـروا بذلـك مـن حضرهـم من التجـار والمتردّدين إليهـم من السفار، ليعـرفوا قدر ما أنعـم اللّه به عليـهوعليهم ، ولينـذروا قومهـم إذا رجعوا إليهـم، ويمـدّوه بأدعيتهـم، ويبرئوا ذمّته ممـا سبق من أخذ مـؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلاّ في خدمـة وجه برّ، وتجهيز جيش، ومعونة مجاهد، وردع كافر ومعاند، فهم شركاؤه في الثواب.

قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنـذر: فلما وقف نور الدين على قوله: ويبرىء ذمّتـه مما سبـق، استحسـن ذلك كثيراً، ووعـده بـاقطاع حسـن، واتفق موته بعد ذلك(٣٢).

قلـت: ونقلت مـن خـط الشيخ الأمين أبي القـاسـم عبـد الرحمن بـن الحسين بن الخضر بـن الحسين بن عبدان الأزدي الدمشقـي: وقف المولى نـور الديـن بستـان الميـدان سوى الغيضـة التـي مـن قبليه بعـد عمارتـه واصـلاح ما يحتـاج إليه على تطييـب المساجـد التي يـأتي ذكـرها وهـي: جامع دمشق المحروسة، جامع قلعـة دمشق، مدرسة الحنفية التي جدّدها نـور الديـن، مسجـد ابن عطيـة داخـل باب الجابيـة، مسجـد ابن لبيـد بالفسقار، مسجد سوق الرماحين، المسجـد المعلق بسوق الصاغة، مسجد دار البطيـخ المعلق، مسجـد العباسي بسـوق الأحـد، مسجد نـور الديـن بجوار بيعـة اليهود، جـامع الصالحيين بجبـل قاسيون، يبتـاع بذلـك عود وطيب، ويفـرّق على هذه الأماكـن: النصف للجـامع بدمشـق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً: جزآن للمـدرسة، وتسعة أجزاء للتسعة المساجد الباقية لكل مسجد جزءاً واحداً،تطيب هذه الأماكن في الأوقات

الشريفة، ومواسم الاجتماعات وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضا أن نور الدين رحمه اللّه حضر عنده بقلعة دمشق يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي والفقهاء : الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الماسح الشافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى المالكي، وشرف الإسلام نجم الدين عبد الوهاب الحنبلي، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد ابن أسد التميمي، رئيس دمشق، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم : عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصائن أبو الحسن، وغيرهم فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يظهر كّل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به،ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحد منكم أن يعلم من ذلك شيئا إلا ويذكره، ولاينكر شيئا مما يقوله غيره إلا وينكره، والساكت منكم مصدّق للناطق، ومصوّب لقوله،وليس العمل إلاّ على ما تتفقون عليه، وتشهدون به، وعلى هذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يجتمعون ويتشاورون في مصالح المسلمين، فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجامع والمساجد والبيمارستان وقني السبيل، وما يجري مع ذلك أن يقرأ عليه بمحضر من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعا موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالح دون الوقف، فافتتح بالسوق المستجدّ تحت المأذنة الغربية بجوار البيمارستان، فقال الصائن وابن تميم وابن هلال: هذا السوق بكماله لمصالح المسلمين، وليس من

وقف الجامع لأنه أحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامع من أجوره أو في مما غرم على عمارته من وقفه، فصدّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلغ ذلك خمس وعشرون عضادة، ثم عين للمصالح أيضا ما في زيادة الجامع القبلية، وزيادة باب البريد في الصف القبلي والشامي من العضائد والحوانيت والحجر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميع بيوت الخضراء من قبلة الجامع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيل والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت الخواصين في الصف الغربي، واثنا عشر حانوتا متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدّة بحضرة دار الوكالة إلى سوق علي،وعدتها ثلاثة عشر حانوتا ومصطبة، وثلاثة حوانيت في الصف الشامي من سوق علي ملصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفقاعي، وحوانيت اللبادين والتي بحضرة الفوارة وتحت اللبادين، وقيسارية العقيقي بسوق الأحد وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب درب التمارين، وحانوت بقنطرة الشماعين في الصف الشامي بحضرة البياطرة، وقطعة بجوار المأمونية من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمس عشرة عضادة وستة أسهم من طاحونة السقيفة، وذلك كله بعضه ميراث عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشتري بمال الوقف والمصالح، وبعضه أخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم، ولم يكن له مال، وبعضه أحدث في الطريق.

قال: فلما شهدوا بصحة جميع ما ذكر، وأن منافع ذلك وأجوره جارية في المصالح، قال نور الدين: إن أهم المصالح سدّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق، والخندق لصيانة المسلمين وحريمهم وأموالهم، فصوّبوا ما أشار اليه وشكروه، ثم سألهم عن فواضل الاوقاف هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين،

فأفتى شرف الدين عبد الوهاب المالكي بجواز ذلك، ومنهم من روّى في مهلة النظر، وقال الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون الشافعي: لايجوز أن يصرف وقف مسجد إلى غيره، ولا وقف معين لجهة إلى جهة غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدّ من ذلك فليس طريقة إلا أن يقترضه من إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال، فوافقه الائمة الحاضرون معه على ذلك، ثم سأل ابن أبي عصرون نور الدين: هل أنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق، وعلى بناء الكلاسة من شام الجامع ، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر بالجامع ، وعلى الرصاص المعمول على سطح الرواق الشامي من الجامع وسائر العمارات المتعلقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا، وهل كان إلاّ مبلغا للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نور الدين: لم ينفق ذلك ولاشيء منه إلا باذني وأنا أمرت به وبفتح المشهدين من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكتب مبلغا عني ومؤديا أمري.

قلت:وقد رأيت المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس وهو مشتمل على فوائد حسنة، وتأكيد لما نقل من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشرع، وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين، وصورة ما كتبه المالكي المفتي:«حضرت المجلس المذكور، عمره الله وزينه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه، وشهدت على ماتضمنه من المشورة المباركة، ومانسب إلى الجماعة من الشهادة بالمواضع المشهورة كما نسب إليهم وقد أخل بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح المشهورة، ومانسب إليّ من الفتوى، فقد كنت قيدته بالحاجة وفراغ بيت المال أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهماتهم الدينية. كتبه عبد الوهاب بن عيسى بن محمد المالكي».

فصل

وقد مدح نور الدين رحمه الله تعالى بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أوّل دولته شاعرا زمانها أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملة منها في مواضعها وقد رأيت أن أقدم منها شيئا هنا.

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني: كتبت إلى نور الدين سلام اللّه وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانه، على من عصم بعزه العواصم، وخصم بحجته الدهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل اللّه سيوف الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد، واهتدى إلى طاعة اللّه وليس غير اللّه من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال ملكته، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر، ومن رأى الحكم دارسة ، فبنى مدارسها، والهمم يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها، ومن عمر ربع السنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيام العدل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان:

ذو الجهاد من عدوّ ونفس
فهو طول الحياة في هيجاء

فهو المالك الذي ألزم الناس
سلوك المحجة البيضاء

قد فضحت الملوك بالعدل لما
سرت في الناس سيرة الخلفاء

قاسما ما ملكت في الناس حتى
لقسمت التقى على الاتقياء

شيـــــــم الصـــــــالحين في جتر الترك
وكـــــم مـــــن سكينــــــة في قبـــــاء
أنـــت حينـــا تقـــاس بـــالاســـد الـــورد
وحينــــا تعـــــد مــــن الأوليـــــاء
صـــاغـــك اللـــه مـــن صميـــم المعـــالي
حيـــــث لانسبــــة ســـــوى الالاء
وكــــان القبـــــاء منــــك لماضـــــمّ
مـــن الطهـــــر مسجــــد بقبـــــاء
أنـــــت إلا تكــــن نبيـــافها فـــا تــــك
إلاّ خــــــــلائق الأنبيـــــــــاء
رأفـــــة في شهــــــامـــــة وعفـــــاف
في اقتـــــدار وسطــــــوة في حيـــــاء
وجمال ممنطــــــــــق بجــــــلال
وكمال متـــــــــوّج ببهــــــــاء
وإذا مـــا الملـــوك خـــافـــت سهـــام الـــذ
ذم زرّت عليــــــــك درع الثنـــــــاء
اعجـــب النـــاس منـــك إنـــك في الحر
ب شهـــــاب الكتيبــــــة الشهبـــــاء
وكـــان السيـــوف مــــن عـــزمـــك الما
ضي أفـــادت مـــا عنـــدهـــا مـــن مضـــاء
ولعمـــري لـــو استطـــاع فـــداك ال
قـــوم بـــالامهـــات والآبـــاء(٣٣)

وله فيه شعر

للّـــه عـــزمـــك أي سيـــف وغـــى
طبعـــت مضـــاربـــه على القهـــر
مـــازفـــت الحرب العـــوان بـــه
الا انجلـــت عـــن معقـــل بكـــر

هــل وجــه نــور الــديــن غير سنــى
صــدع الــدجــى عــن خجلــة البــدر

ملـــك مهـــابتـــه طليعتـــه
أبـــدا أمـــام جيـــوشـــه تسري

كـــم فـــل كيـــدهـــم بصـــاعقـــة
شغلـــت قلـــوبهم عـــن الكفـــر

تـــركـــت حصـــونهم سجـــونهم
فـــالقـــوم قبـــل الأسر في أسر

عصـــم العـــواصـــم فهـــي ضـــاحكـــة
تجلـــوا الظبـــى ثغـــرا على ثغـــر

فـــإذا سرايـــا خيلـــه قفلـــت
نهضـــت سرايـــا الخوف والـــذعـــر

ورمـــى القـــلاع بمثـــل جنـــدلها
حتـــى استكـــان الصخـــر بـــالصخـــر

يـــا ســـائلي عـــن نهج سيرتـــه
هـــل غير مفـــرق هـــامـــه الفجـــر

عـــال حقيـــق مـــن تـــأملـــه
أن يحيـــي العمـــريـــن بـــالـــذكـــر

وشهـــامـــة في اللّـــه خـــالصـــة
عقـــدت عليـــه تمائم الأجـــر

ونـــدى يـــد مـــاضرّ واردهـــا
أن لا يبيـــت مجاور البحـــر

هـــذا المخيـــم في ذرى حلـــب
وثنـــاؤه أبـــداً على ظهـــر

وله فيه وقد وصف داره:

دار تغـــار الشمـــس في أفـــق
مـــن حسنهـــا والشمـــس مغيـــار

يـــزأر فيهـــا ضيغـــم مـــالـــه
غير سيـــوف الهنـــد أظفـــار
تمسي وتضحـــي وهـــو جـــار لها
واللّـــه ذو العـــرش لـــه جـــار
لسيفـــه البـــاتـــر مـــن دهـــره الـــ
ـــجائر مـــا يهوى ومـــا يختـــار
قـــد مـــلأ الأسفـــار مـــن ذكـــره
نشر لـــــه في الأرض إسفـــــار
حمد يضـــوع الجوّ مـــن طيبـــه
كـــأنما راويـــه عطـــار
إن خطـــرة في قلبـــه خطـــرت
أجـــابها مـــاض وخطـــار
وإن دعـــا داعيـــه يـــوم الـــوغـــى
سيـــوفـــه لبتـــه أقـــدار
وإنما صـــارمـــه مـــرســـل
لـــه مـــن التـــأييـــد أنصـــار
يـــا ملـــك الـــدنيـــا ولكنهـــا
دنيـــا لها في الـــديـــن آثـــار
ويـــا جـــوّادا مـــا الالآئه
غير قضـــاء الحمـــد مضمار

وله فيه أيضا:

تـــدارك ملـــة العـــربي ذبـــا
إلى أن عـــده منـــه معـــدّ
وحـــل ذرى العـــواصـــم وهـــي نهبـــى
فـــأجلى الشرك حتـــى ليـــس ضـــد
ثنـــى يـــده عـــن الـــدنيـــا عفـــافـــا
ومـــال بها عـــن الأمـــوال زهـــد

رأى حط المكوس عن الرعايا
فأهدر قبل ما أنشاه بعد
ومد لها رواق العدل شرعا
وقد طوى الرواق ومن يمد
وبات وعند باب العرش منها
لدولته دعاء لا يردّ

وله فيه:
ملك أشبه الملايك فضلا
وشبيه بها الملك الأمر جنده .

عم إحسانه فأصبح يتلى
شكره في الورى ويدرس حمده
فسقى اللّه ذكره أينما حل
ولا فاته من النصر رفده

وله فيه:
ضحكت تباشير الصباح كأنها
قسمات نور الدين خير الناس
المشتري العقبى بأنفس قيمة
والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه
إن الدعاء يعد في الحرّاس
راض الخطوب الصم بعد جماحها
وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته
وأقام وزن الحق بالقسطاس

واختار مجد الدين سائس ملكه
فحمى السياسة منه طود راسي
فهو الخبير بكل داء معضل
يأسو جراح زماننا ويواسي
وأذل سلطان النفاق بعزة
خضعت لها الأساد في الأخياس
وعرته أقران الخطوب فصدها
ألوى يمارسها أشد مراس
ولو أن فيض النيل فائض نيله
لم تفتقر مصر إلى مقياس
سكنت شعب الدهر بعد تخمط[٣٤]
وألنت من عطفيه بعد شماس
وفتحت باب الحظ بعد رتاجه
وأذنت للأطماع بعد اليأس
حتى منحت الخلق كل مسرّة
فالناس في عرس من الأعراس

وله فيه:
سام الشآم ويا لها من صفقة
لولاه ما عنت على يد سائم
ولشمرت عنها الثغور وأصبحت
فيها العواصم وهي غير عواصم
تلك التي جمحت على من راضها
ودعوت فانقادت بغير شكائم

وإذا سعادتك اجتبت في دولة
قام الزمان لها مقام الخادم
حصن بلادك هيبة لا رهبة
فالدرع من عدد الشجاع الحازم

هيهات يطمع في محلك طامع
طال البناء على يمين الهادم

كلفت همتك السموّ فحلقت
فكأنها هي دعوة في ظالم

وأظن أنّ الناس لما لم يروا
عدلا كعدلك ارجفوا بالقائم

وله فيه:

قلت بقول اللّه لا خائفا
مع حكم القرآن حكم القران

لا راقب النجم ولا سائلا
ما فعل السعدان والنيران

بل غرت للاسلام حتى لقد
دان له من بالطواغيت دان

رعت نواميس نواقيسها
بحلبة الآذان وقت الأذان

تمحو تصاوير الدمى عن يد
تبني المحاريب خلال المجان

هذا وكم أنشأت من منبر
فارسه فارس سحر البيان

من نال بالاخلاص ما نلته
كان من اللّه مكين المكان

يا شائها بالشام صوب الحيا
ودانيا من كل قاص ودان

هذي سجوف الملك مرفوعة
عن ملك أخباره كالعيان

أوضح سبل العدل مفتنة
فللبرايا بالدعاء افتتان

ألغـى حقـوقـا كلهـا بـاطـل
إلى مـآل حـط مـال الضـان

عطفـا ورفقـا بـالـرعـايـا وان
أصبـح تـأديـب ملـوك الـزمـان

كـم بين مـن نـام على نشـوة
وسـاهـر في صهـوة مـن حصـان

في كـل يـوم يبتنـي سيفـه
ببلـدة بكـر وأخـرى عـوان

وقرأت في ديوان أحمد بن منير الطرابلسي من قصائد يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى:

يـامحيـي العـدل ويـامنشره
مـن بين أطبـاق البلى وقـد همد

وركـن الاسـلام الـذي وطـده
طـال وأرسـى العـز فيـه ووطـد

وشـارع المعـروف إذلا سفـه
يجنـح للقـول ولا تسمـح يـد

محوت مـا أثبتـه الجور مضـى
عليـه إخـلاد الليـال مخلـد

مـن كـل مكـاس يظـل قـاعـدا
لما يسـوء المسلمين بـالـرصـد

كـانـت لأرجـاس اليهـود دولـة
أزالها منـك الهصـور ذو اللبـد

الملـك العـادل لفـظ طـابـق الـ
ـمعنى وفي الـوصـف معـار مسترد

خير النعـوت مـا جـرى الـوصـف على
صفحتـه جـري النسيـم في الـومـد

عـــدل جنيــت اليـــوم حلـــو ريعـــه
وســـوف يجنـــى لـــك أحلى منـــه غـــد

لازال لـــــلاســـــلام منـــــك عـــــدة
تقيـــم منـــه كـــل زيـــغ وأود

النـــاس أنـــت والملـــوك، شرط
تعـــدّليثـــا ويعـــدّون نقـــد

مثلـــك لا يسخـــو بـــه زمـــانـــه
ومثـــل مـــا أوتيـــت لم يـــؤت أحـــد

وله فيه

أيـــا نـــور ديـــن خبـــا نـــوره
ومـــذ شـــاع عـــدلـــك فيـــه اتقـــد

رآك الصليـــب صليـــب القنـــاة
أمين العثـــار متين العمـــد

تهمّ فتسلبـــه مـــا اقتنـــى
وتـــدئي(٣٥) فتثكلـــه مـــا احتشـــد

زبنتهـــم أمـــس عـــن صرخـــد
ففضـــوا كـــأن نعـــامـــا شرد

ويـــوم العـــريمـــة أقبلتهـــم
عـــرامـــا يثعلـــب منـــه الأســـد

جنبـــت مليكهـــم في الصفـــاد
وعفـــوك عنـــه أعـــم الصفـــد

وقبـــل أزرتهم في الـــرهـــا
مـــوازق مـــزقـــن جـــرد الجرد

بقيـــت تـــرقـــع خـــرق الـــزمـــا
ن قيـــامـــا لابنـــائه إن قعـــد

تثقـــف مـــن زيغـــه مـــا التـــوى
وتصلـــح مـــن طبعـــه مـــا فســـد

وله فيه:

أيـــا ملـــك الـــدنيـــا الحلاحـــل والـــذي
لـــــه الأرض دار والبريـــــة أعبـــــد
وليســـت بـــدعـــوى لا يقـــوم دليلهـــا
ولكنـــه الحق الـــذي ليـــس يجحـــد
أخـــو الغـــزوات كـــالعقـــود تنـــاسقـــت
تحل بـــأجيـــاد الجيـــاد وتعقـــد
لســـان بـــذكـــر اللّـــه يكســـو نهاره
بهاء وجفـــن في الـــدجـــى ليـــس يـــرقـــد
وبـــذل وعـــدل أغـــرقـــا وتـــألقـــا
فـــلا الـــورد مثمـــود ولا البـــاب مـــوصـــد
مـــرام سمائي وحـــزم مســـدّد
ورأي شهـــابيّ وعـــزم مـــؤيـــد

وله فيه:

أبـــدا تنكـــب عـــن ضـــلال ســـادرا
بثقـــوب زنـــدك أو تـــدل على هـــدى
ســـدت الكهـــول مـــن الملـــوك مـــراهقـــا
وشـــأوت شيبهـــم البـــوازل أمـــرد
إن شيـــدوا صرحـــا أنـــاف منـــاره
أو يسجـــدوا للكـــاس جـــدّد مسجـــدا
وإذا استهـــزتهم فـــلا يـــد معبـــد
هـــزتـــه مـــوعظـــة فعـــرّف معبـــدا
قسما بشـــام الشـــام منـــك مهنـــدا
أرضـــاه مشهـــورا وراع مقلـــدا
وتمســـك الاســـلام منـــك بعـــروة
اللّـــه أبـــرم حبلهـــا فـــاستحصـــدا

أشفـــى فكنـــت شفـــاءه مـــن حـــادث
غـــاداه عـــارضـــه مـــردى بـــالـــردا
كنـــت الصبـــاح لليلـــه لما دجـــى
والغـــوث كـــف لظـــاه حين تـــوقـــدا
للـــه يـــوم أطلعتـــك بـــه النـــوى
يجتـــاب مـــن مهـــج الأصـــافـــر مجســـدا
نشـــوان غنتـــك الظبـــى مفلـــولـــة
وأمـــال عطفـــك الـــوشيـــج مقصـــدا
في معـــرك مـــا قـــام بـــأســـك دونـــه
إلا أقـــــــام المشركين وأقعـــــــد
ولكـــم مكـــرّ قمـــت فيـــه معلما
أرضـــى إلهك والمسيـــــح وأحمدا
يـــوم العـــريمـــة والخطيـــم وحـــارم وشـــ
ـــعاب بـــاســـوطـــا وهـــاب وصرخـــدا
لا يعـــدم الاشراك جـــدّك أنـــه
مـــا ســـلّ فيهـــم حـــاكما إلا اعتـــدى
أهمدتهم مـــن بعـــد مـــا مـــلأوا الملا
زجـــلا فهـــل كـــانـــت سيـــوفـــك مـــرقـــدا

طلعـــت نجـــوم الحق مـــن آفـــاقهـــا
وأعـــادهـــا كـــرّ العصـــور كما بـــدا
وهـــوى الصليـــب وحـــربـــه وتبختر الا
ســـلام مـــن بعـــد التـــأفـــف أغيـــدا
سبـــق المجلي للخطـــي فـــرفعـــه
نســـق فتـــم وقـــد رفعـــت بـــالابتـــدا

وله فيه:
محمـــود المربـــى على اســـلافـــه
إن زاد في حســـب الحسيـــب نجـــار

تقفو طريق الصالحين مسابقا
لهم وتطلع خلفك الأبرار
. نفس السيادة زهد مثلك في الذي
فيه تفانت يعرب ونزار
ومتى ادّعى ما تدعيه محكم
أوهى معاقد دينه دينار
للّه ما ظفرت به منك المنى
وتكنفت من ركنك الاستار
وسقى الغمام ثرى أبيك فانه
أزكى ثرى قطرت عليه قطار
شهدت نضارة عودك الغض الجنى
أن الذي استخلصت منه نضار
أما نهارك فهو ليل مجاهد
والليل من طول القيام نهار
فلذلك النصر العزيز أدلة
أنى اتجهت وللفتوح أمار

وله أيضا فيه رحمه الله تعالى:

رأينا الملوك وقد ساجلو
ك تمنوا امنونا وغرّوا غرورا
أبى لك أن يدركوه أب
يزير فينسي الأسود الزئيرا
وجد إذا جدّ يوم الرها
ن أبقى لتاليه جدّاً عثورا
تصب عصاك على من عصاك
يوما عبوسا بها قمطريرا
لقد ألبس الشام هذا الإباء
لبوسا من الامن لينا وثيرا

تـــــدارکــــت أرمــــــاقـــــه والقلــــو
ب نـــــوافـــــر أن يستجـــــنّ الصـــــدورا
أقمـــت جثـــاثــــا (٣٧) وکــــانــت جثـــا
وشـــــدّت قصـــــورا وكـــــانــــت قبـــورا
وكــــم لــــك مــــن غضبــــة للهـــدى
تميـــــت الهوى وتجب الـــــــذكــــورا
إذا قطـــــب اليـــــأس كــــانــــت ردى
وإن ضحـــك العفـــو عـــادت نشـــورا
كملــــــت فـــــوقيـــــت عين الكمال
تبيـــــد السنين وتفنـــــي العصـــــورا
وجـــــاد لنـــــا بـــــك رب بـــــرا
ك للكفـــر نــــارا وللـــديـــن نـــورا
إذا مـــا خـــدمـــت فمـــولى كـــريما
وأمـــا عبـــدت فعبـــداً شكـــورا
امـــام المحـــاريــــب بـــرّا حصـــورا
وتحت الحروب هـــزبـــرا هصـــورا
تبـــارك مـــن شـــاد هـــذي الخلال
في ظلـــه الملـــك طـــودا وقـــورا
وألـــف في معقـــد التـــاج منـــ
ـــك سطـــواً سعيراً وعفـــوا نميرا

وله فيه:

عقــــل الحق ألســـــن المدعينـــــا
أنـــت خير الملـــوك دنيـــا ودينـــا
وأســـد الانـــام قـــولا وأفعـــا
لاً ونفســـاً ونيـــة ويقينـــا
أنـــت أسنـــاهـــم أبـــا وإبـــاء
وأمـــر أحيـــا وأمـــرع حينـــا

بســـط الــــرزق في البسيطــــة كفـــاك
فكلتـــا يـــديـــك تلفـــى يمينـــا
فيـــد تحســـم النـــوائب عنـــا
ويـــد تقســـم الـــرغـــائب فينـــا
أيها البحـــر لـــو تســـاجلـــك الأبحـــر
عـــامـــت في ســـاحليـــك سفينـــا
ولكـــان المحيـــط منهـــا محاطـــا
مثـــل نـــون الهجـــاء أو خيـــل نـــونـــا
مشرعـــا مترعـــا ومنـــا مهنـــا
وربـــاعـــا فيحـــا وكفـــا البـــونـــا
ومحيـــا طلقـــا ومـــالا طليقـــا
وابتهـــاجـــا قصـــداً وحبـــلا متينـــا
بين ذب يميـــت عـــاديـــة الشر
ك وهـــب يحيـــى بـــه المسلمـــونـــا
تتسنـــى مـــن الفتـــوح ألـــوفـــا
أنـــت أعلى مـــن أن تعـــدّ المئينـــا
كلما اجتبـــت ثـــوب نصر عـــزيـــز
مـــن مـــرام أقبلـــت فتحـــا مبينـــا

صرف اللّـــه عنـــك صرف الـــزمـــان
أنـــت علمـــت صرفـــه أن يهونـــا
يـــابـــن مـــن طبـــق البسيطـــة آثـــا
راً وعـــلّ لمنـــا بـــذيـــه الاجـــونـــا(٣٨)
وغـــدت حصنـــه على شرح هـــذا الـــد
يـــن مـــن شكـــة الأعـــادي حصـــونـــا
كـــم تعـــالى صهيلهـــا في ربـــى الشـــا
م فـــأعلى خلـــف الخليـــج الـــرنيينـــا
كـــان صنـــو الـــرشيـــد أبقـــاك للحكـــ
ـــمة والبـــأس بعـــده المأمـــونـــا

سمـــع اللـــه فيـــك دعـــوة سكـــن
أوطنـــوا مـــن حماك حصنـــا حصينـــا
غـــرّقتهـــم مـــدى الخطـــوب فـــأحييـــ
ـــت رفـــاتـــا مـــن التراب دفينـــا
البســـوا عـــدلـــك المديـــح فـــاختـــا
لـــوا بنـــات في وشيـــه وبنينـــا
سهـــرت عينـــك الكلـــؤ ونـــامـــوا
تحت أكنـــاف رعيهـــا آمنينـــا

قلت:فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه مع أنهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة قبل أن يفتح نـور الدين دمشق، وبقي نـور الدين حياً بعدهما إحـدى وعشرين سنـة يترقى كـل عام في إزديـاد من جهـاد واجتهاد، ولو كـانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجـائب المدائح ، مع أنه قد تولى ذلـك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما. ولأبى المجـد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي من قصيدة فيه:
تبـدو الشجـاعـة مـن طـلاقـة وجهـه
كـالـرمـح دل على القســاوة لينـه
ووراء يقظتـــه أنـــاة مجرّب
للّـه سطـوة بـأسـه وسكـونـه
هـذا الـذي في اللـه صـح جهـاده
هـذا الـذي بـاللّـه صـح يقينـه
هـذا الـذي بخـل الـزمـان بمثلـه
وا لمشمخـر إلى العلى عـرنينـه
ملـك الـورى ملـك أغـرّ متـوّج
لا غـدره يخشـى ولا تلـوينـه
إن حـلّ فـالشرف التليـد أنيسـه
أو سـار فـالظفـر الطـريـف قـرينـه
فـالـدهـر خـاذل مـن أراد عنـاده
أبـدا وجبـار السماء معينـه

ملـــك إذا تليـــت مـــآثـــر قـــومــه
كســـد اللطيـــم وهجـــن النـــوار

مـــلأ الفـــرنجـــة جـــور سيفـــك فيهـــم
فلهـــم على سيـــف المحيـــط جـــوار

يـــومـــا يـــزيـــرك جـــوف عـــرقـــة معلما
جـــوف لــــه خلـــف الـــدروب أوار

وتجر في الأردن فضلـــــة ذيلـــــه
نقـــع بـــأكنـــاف الأرنـــط مثـــار

إمـــا تبيـــح حـــريـــم أنطـــاكيـــة
أو يفجـــأ الـــداروم منـــك دمـــار

عفـــى جهـــادك رســـم كـــل مخوفـــة
وصفـــت بصفـــوة عـــدلـــك الاكـــدار

ومحا المظـــالم منـــك نظـــرة راحـــم
للّـــه في خطـــراتـــه أسرار

غضبـــان لـــلاســـلام مـــال عمـــوده
فلنـــوره ممـــا عـــراه نـــوار

وجـــذمـــت كـــل يـــد تســـور على يـــد
فـــاحلـــت ذاك الســـور وهـــو ســـوار

لم يبـــق مـــاكـــس مسلـــم شلقـــا[٣٦] ولا
ســـاع لمظلمـــة ولا عشـــار

همدوا كما همدت ثمـــود وقـــادهـــم
بخســـارهـــم ممـــا أتـــوه قـــذار

العـــار في الـــدنيـــا شقـــوا بلبـــاســـه
ولبـــاسهـــم يـــوم الحســـاب النـــار

كـــم سيرة أحييتهـــا عمـــريـــة
رفعـــت لها في الخافقين منـــار

ونـــوافـــل صيرتهنّ لـــوازمـــا
بـــأقلهـــا تستعبـــد الأحـــرار

والدين يشهد أنه لمعزه
والشرك يعلم أنه لمهينه
ما زال يقسم أن يبدّد شمله
والله يكره أن تمين يمينه
فتح الرها بالأمس فانفتحت له
أبواب ملك لا يزال مصونه

وممادح نور الدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليل الابتهاج بالشعر، ومات حادي عشر شوّال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قبته بمدرسته بجوار الخواصين.

قلت :وقد جرّب استجابة الدعاء عند قبره، وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة ، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصلة مرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار إن شاء اللّه تعالى

فصل

أصل البيت الأتابكي هو قسيم الدولة آق سنقر جدّ نور الدين، فنذكره وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده زنكي وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده محمود بن زنكي، ثم نذكر ما بعده، وهي الدولةالصلاحية الايوبية، وما تم في أيامها فنقول:

كان آق سنقر تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه بن ألب أرسلان ، وهو عم دقاق بن تتش بن ألب أرسلان الذي كان سلطان دمشق، وقبره بقبة الطواويس بها، بنته والمشهد والدته، وكان السلطان ملكشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بني بويه بالعراق، فكان قسيم الدولة من أصحابه وأترابه وممن ربي معه في

صغـره، واستمرّ في صحبتـه إلى حين كبره،فلما أفضت السلطنـة بعد أبيـه إليه جعلـه من أعيـان أمرائه، وأخـص أوليائه، واعتمـد عليه في مهماتـه، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يتقيه مثل نظـام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان، وتمكنـه من المملكة، فأشـار نظام الملك على السلطـان أن يولي آق سنقـر مـدينـة حلـب وأعمالها، وأراد بـذلـك أن يبعـده عـن خـدمـة السلطان، ويتخذ عنده يداً بذلك.

قـال ابن الاثير: ومـن الدليـل على علوّ مـرتبتـه، تلقبه قسيـم الدولـة، وكانـت الألقاب حينئـذ مصونـة لاتعطى إلا لمستحقيهـا. وفي سنة سبـع وسبعين وأربعمائة سير السلطان ملكشـاه الوزيـر فخر الـدولة بـن جهير، وكان زوج ابنـة نظام الملك إلى الموصـل، وسير معه جيشـاً عظيماً، وجعل المقدّم على الجيش قسيـم الدولة آق سنقر فسار نحـو الموصل، ولقيهم في الطريـق الأمير أرتق التركماني جـدّ ملوك الحصـن وماردين فإستصحبـوه معهم، فحصروا الموصل ، وحـاربوا من بها وتسلموها، وسـار صاحبها إلى السلطان فـردّها عليـه وكانت يـومئذ لأحد أمـراء بني عقيـل، وهو شرف الـدولة مسلـم بن قـريش بـن بدران العقيلي، وكـان ملكه مـن السنديـة بالعـراق على نهر عيسى إلى منبـج وما بينهما مـن البلاد الفـراتية: كهيـت والأنبار وغيرها، وملك الموصل وديار بكر والجزيـرة بأسرها، وملك مدينة حلـب، وكان عـادلاً حسن السيرة، عظيـم السيـاسة واتفـق ان وقع بينـه وبين صاحب أنطـاكية خلاف، وذلك أن أنطـاكية كان الروم قـد استولوا عليها سنـة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ولم يزالـوا بها إلى هذه السنـة، ففتحها سليمان بـن قتلمش، وهـو جدّ الملـك غيـاث الديـن كيخسرو، صاحـب قونية وغيرهـا، وكان لشرف الدولة صـاحب حلب على صاحـب أنطاكية الـرومي جـزية يـأخذهـا كـل سنة، فـانقطعت عنـه بسبب أخـذ سليمان البلاد، فأرسـل شرف الدولة يطلب منـه ما كان يأخـذه من الروم وتهدّده، فقـال: أنا في طـاعتك وهـذا الفتح بسعـادتك، والخطبـة والسكة لـك ، ولست بكافر حتـى أعطيك ما كنت تأخذه من الـروم ،فلج شرف الدولة

في طلب المال، فالتقيا فقتل شرف الدولة وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصرها، وسار إليها من دمشق تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه، فالتقى عسكر تتش وسليمان، فقتل سليمان وانهزم عسكره، وملك تتش مدينة حلب دون القلعة، فأرسل أهل القلعة إلى ملكشاه ليسلموها إليه، وهو يومئذ بالرها، وكان سبب مسيره إليها أن ابن عطير النميري قد باعها من الروم بعشرين ألف دينار، وسلمها اليهم فدخلوها وأخربوا المساجد وأجلوا المسلمين عنها، فسار ملكشاه إليها في هذه السنة، فحصرها وفتحها وأقطعها الأمير بزان، فلما أتاه رسل أهل القلعة بحلب بالتسليم، سار إليهم فلما بلغ مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلب إلى دمشق، ووصل السلطان إلى حلب وبالقلعة سالم بن مالك بن بدران العقيلي وهو ابن عم شرف الدولة ، فسلمها إلى السلطان بعد قتال وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جعبر، وكان قد ملكها في هذه السفرة، من صاحبها جعبر القشيري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالم وأولاده إلى أن أخذها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي، فلما ملك السلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن المقلد بن منقذ الكناني صاحب شيزر، ودخل في طاعته وسلم إليه اللاذقية وفامية وكفر طاب.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماه ومنبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر، فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة، كما سيأتي، وأقطع السلطان مدينة أنطاكية الأميرياغي سغان، ولما استقر قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده، ثم إن السلطان استدعاه إلى العراق، فقدم إليه في تجمل عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعظم محله عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب ، فعاد إليها، فلما مات السلطان ملكشاه سير قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت، فملكها وفي سنة احدى وثمانين قصد قسيم

الـدولة شيـزر فنهبهـا، وعاد إلى حلـب، وفي سنـة ثلاث وثمانين اجتمـع قسيم الدولة وبـزان وحصروا مدينة حمص فملكوها، ومضى ابـن ملاعب إلى مصر، وفي سنـة أربع وثمانين ملـك قسيـم الدولـة حصـن فـامية مـن الشام، وملك الرحبة.

فصل

وفي عاشر رمضان سنـة خمس وثمانين قتل الوزير نظام الـدين أبو علي الحسن بـن علي بن اسحـاق، قتله صبـي ديلمي بعـد الافطار وقـد تفرّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرهم من أصناف الناس، وحمل في محفة لنقرس كان به إلى خيمة الحرم، فلقيه صبـي ديلمي مستغيثاً به فقرّبه منه ليسمـع شكواه فقتلـه، وقتل الصبـي أيضا فعـدمت الـدنيا واحـدها الذي لم تر مثله، وكان تلك الليلة قـد حكى له بعض الصالحين أنه رأى النبـي صلى اللّه وسلـم في المنـام ، كـأنه أتـاه وأخـذه مـن محفته فتبعـه، فاستبشر نظـام الديـن بذلك وأظهـر السرور به، وقـال: هذا أبغـي وإياه أطلب ، وكـان قد بلـغ من الـدنيا مبلغـا عظيما لم ينله غيره، وكـان عـالما فقيهـا دينـا خيراً متواضعـا عـادلا، يحب أهـل الـدين ويكـرمهـم ويجزل صلاتهم، وكان أقـرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان ينـاظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدّة، وأما صدقـاته ووقوفه فلا حد عليها، ومـدارسه في العالم مشهورة، لم تخل بلد مـن شيء منها حتـى جزيـرة ابن عمـر التي هـي في زاوية مـن الأرض لايؤبـه لها بنى فيهـا مدرسة كبيرة حسنـة، وهي التـي تعرف الآن بمـدرسـة رضي الديـن، وأعمالـه الحسنـة وصنـائعـه الجميلة مـذكـورة في التواريخ لم يسبقه مـن كان قبله ولا أدركه من كان بعـده، وكان من جملة عبـاداته أنـه لم يحدث إلا تـوضأ ولاتـوضـأ إلا صلى ، وكـان يقرأ القـرآن حفظاً ، ويحافـظ على أوقات الصلـوات محافظة لايتقدمـه فيها المتفـرّغون للعبـادة حتى أنـه كـان إذا غفـل المؤذن أمره بـالأذان، واذا سمـع الأذان

أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل باجابته، ثم بالصلاة، وكان قد وزر للسلطان عضد الدولة ألب أرسلان، والدملكشاه قبل أن يلي السلطنة في حياة عمه السلطان طغر لبك أوّل الملوك السلجوقية ببغداد، فلما توفى طغر لبك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه ألب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرّت السلطنة له وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان ملكشاه إلى أن قتل، وكان قد تحكم عليه،إلى حد لايقدر السلطان على خلافه، لكثرة مماليكه ومحبة العساكر له والأمراء، وميل العامة والخاصة إليه، لحسن سيرته وعدله، وهذا كلام أبي الحسن بن الأثير.

وقرأت في كتاب المعارف المتاخرة، ويسمى عنوان السير لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم الهمذاني قال: وزر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان، ولولده السلطان ملكشاه أربعاً وثلاثين سنة، وقتل بالقرب من نهاوند وعمره ست وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوما، اغتاله أحد الباطنية، وقد فرغ من فطوره، قال: وقيل إن السلطان ملكشاه ولف عليه من قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام، وقد تقدّم نظام الملك في الدنيا التقدم العظيم، وأفضل على الخلق الافضال الكثير، وعم الناس بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشافعي ووقف عليهم الوقوف ،وزاد في الحلم والدين على من تقدّمه من الوزراء،ولم يبلغ أحد منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون فوقع على العامل بأنطاكية، بما يصرف على الملاحين، وملك من الغلمان الأتراك ألوفا، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتاكهم من مماليكه.

قلت: وأنشد أبو سعد السمعاني في ذيل تاريخ بغداد فقال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني غير مرة من لفظه للأميرشبل الدولة يعني مقاتل بن عطية بن مقاتل بن عطية البكري:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... ثمينة صاغها الرحمن من شرف
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها ... فردّها غيرة منه إلى الصدف

فصل

عاش السلطان ملكشاه بعد نظام الملك خمسة وثلاثون يوماً ،ومات في منتصف شوال سنة خمس وثمانين وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ونصف العام، وكانت مملكته قد اتسعت اتساعاً عظيماً، وخطب له من حدود الصين إلى الداروم من أرض الشام، وأطاعه اليمن والحجاز، وكان يأخذ الخراج من ملك القسطنطينية، وأطاعه صاحب طراز، واسبيجاب وكاشغر وبلا سغون وغيرها من الممالك البعيدة، وملك سمر قند، وجميع ماوراء النهر، ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغر هرب صاحبها منه فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر به، وأحسن إليه واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السلطان من الخيرات وأبواب البر الكثير، منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحفر من الآبار، وبنى مدرسة عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسمرقند أيضا، قيل إنه خرج سنة من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العذيب وبلغ السبعية بقرب الواقصة، وبنى هناك منارة ترك في أثنائها قرون الظبى وحوافر الحمر الوحشية التى اصطادها في طريقه، وبعد موته تنازع ابناه بركياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو إثنتي عشرة سنة إلى أن توفى بركياروق، واستقرّت السلطنة لمحمد، وفي مدّة تلك الحروب ظهرت الفرنج بالساحل، وملكوا انطاكية أوّلا، ثم غيرها من البلاد.

وكان السلطان قد اقطع أخاه تاج الدولة تتش مدينة دمشق وأعمالها وماجاورها، كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه وراسل بوزان صاحب حران، وياغي سغان صاحب أنطاكية فساروا معه نحو الرحبة ونصيبين فأخذهما، وراسل صاحب الموصل إبراهيم بن قريش بن بدران يأمره بالخطبة له وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد فامتنع، فالتقيا فهزم صاحب الموصل وقتل، وأخذت بلاده، وسار إلى ميافارقين، فملكها وسائر ديار بكر، ثم سار إلى أذربيجان، فالتقى هو وابن أخيه بركياروق بن ملكشاه، فانتقل قسيم الدولة وبوزان إلى بركياروق،فرجع تاج الدولة إلى الشام،ورجعا إلى بلادهما بأمر بركياروق ليمنعا تاج الدولة عن البلاد إن قصدها، فجمع تاج الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب فاجتمع قسيم الدولة وبوزان، وأمدّهما السلطان ركن الدين بركياروق بالأمير كربوقا، وهو الذي صار فيما بعد صاحب الموصل، فالتقوا بالقرب من تل السلطان بينه وبين حلب نحو من ستة فراسخ، فانهزم جيش قسيم الدولة وأخذ أسيراً فقتله تاج الدولة صبراً ودخل بُزان وكربوقا حلب فحصرهما تاج الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين، وأرسل إلى حران والرها وكانتا لبزان فامتنع من بهما من التسليم، فقتل بزان وأنفذ رأسه وتسلم البلدين، وأما كربوقا فإنه سجنه بحمص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رضوان بعد قتل أبيه تاج الدولة.

قال ابن الاثير: وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا ،فأمنت الطريق وتحدث الركبان بحسن سيرته.

وفي المحرم من سنة سبع وثمانين وأربعمائة توفي الخليفة المقتدى بأمر الله فجأة، وهو أبو القاسم عبد الله بن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسع وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة أشهر ، وأمه تركية، وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد، ويلقب محمد بن القائم والد المقتدى بالله الذخيرة، مات في حياة أبيه، فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زنكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على سبيل الاختصار، في فصول إلى حين وفاته، ثم نذكر أخبار نور الدين على ترتيب السنين.

لما قتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد، وهو عماد الدين زنكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي، وهو صبي أيضا، ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حران وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم سار إلى نصيبين فملكها ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي، وسار نحو ماردين فملكها وعظم شأنه، وهو في طاعة ركن الدولة بركياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم باحضار عماد الدين زنكي، وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته فأحضروه عنده، فأقطعهم الاقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زنكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها، فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمد وصاحبها من أمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين

سقمان بن أرتق جد صاحب الحصن، فكسرهم قوام الدولة كربوقا، وهو أوّل مصاف حضره زنكي بعد قتل والده، ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وملك بعده موسى التركماني، فلم تطل مدته وقتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش وهو أيضا من مماليك السلطان ملكشاه، فأخذ زنكي فقربه وأ-به، واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة، فلا جرم أن زنكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدمه وأقطعه اقطاعا كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهراً.

ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الدين زنكي، وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الدين رضوان، فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مودود، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زنكي وغيره من الأمراء، فلما استقر مودود بالموصل واتصل به زنكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مودود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان كانت للفرنج، وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرها فحصرها، ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طغتكين صاحب دمشق فسارا إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً ، وظهر من أتابك زنكي شجاعة لم يسمع بمثلها، منها أنه كان في نفر وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه فتخلفوا عنه، وتقدّم وحده وقد انهزم من بظاهر البلد من الفرنج ، فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثر فيه، وقاتلهم عليه وبقي ينتظر وصول من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أوّلا، ومن سلامته آخرا، ثم التقى

الجمعـان فهـزم الفـرنـج لعنهـم اللـه ووصلـوا الى مضيـق دون طبريـة، فاجتمعـوا به وجـاءتهم نجدة فأذن الأمير مـودود للعسكر في الـرجوع إلى بـلادهم، والاجتماع إليـه في الـربيع، فلما تفـرقـوا دخـل دمشق وأقـام بها فخرج يوما يصلي الجمعة فلما صلاها وخـرج من صحن الجامع ويده بيد طغتكين وثب عليـه انسان فضربـه بسكين معه فجرحـه أربع جـراحات، وكان صائما فحمل إلى دار طغتكين واجتهد بـه ليفطر فلم يفعل، وقال : لا لقيت اللـه إلا صائما فـإنني ميت لا محالـة سواء أفطـرت أو صمت ، وتوفي في بقيـة يومـه رحمه الله، فقيـل إن الباطنيـة بالشـام خافـوه فقتلوه، وقيل بل خافـه طغتكين، فوضع عليه من يقتله، وكـان خيراً عادلاً حسن السيرة.

قال ابـن الاثير: حدثني والدي رحمه اللـه قال: كتب ملك الفـرنج إلى طغتكين:«إن أمة قتلت عميـدها يوم عيدها في بيت معبـودها لحقيق على اللـه أن يبيـدها ».فلما قتـل الأمير مـودود أقطـع السلطان بـلاد الموصـل وغيرها للامير جيوش بك، وسير معه ولـده الملك مسعود إلى الموصل، ثم أنه جهـز آق سنقر البرسقي في العساكـر وسيره إلى قتال الفرنـج ، وكتب إلى عساكر الموصل وغيرهـا يأمرهـم بالمسيرمعه، فسـاروا وفيهـم عماد الدين زنكي، وكان يعرف في عساكر العجم بـزنكي الشامي، فسار البرسقي إلى الـرها في خمسـة عشر ألـف فـارس فحصرها، وقتـل مـن بها مـن الفرنـج والأرمن ، وضـاقت الميرة عـن العسكر، فـرحل إلى سميسـاط وهي أيضـا للفرنج فأخـرب بلدها وبلد سروج، وعاد إلى بلد شبختان فـأخرب ما فيه من الفـرنج، وأبلى زنكي في هـذه المواقف كلهـا بلاء حسنـا، ثم عـادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقـي إلى بغداد وأقام زنكي بالموصل مع الملـك مسعود والأمير جيوش بـك إلى سنة أربـع وعشرين وخمسمائة، وقد علا قدره وظهر اسمه.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، ولـد الملك العادل نور الـدين محمود ابن زنكـي رحمه الله، وفيها غـرقت سنجار مـن سيل المطر، وهلـك منها خلق كثير، ومن أعجـب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيـه طفل ، فتعلق المهد في شجرة، ونقص الماء فسلم ذلك الطفـل، وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

وفيها أيضا زلزلت إربل وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

وفيها في الرابـع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غيـاث الدين محمد بـن ملكشاه، وعمـره سبع وثلاثـون سنة وأربعـة أشهر وستـة أيام ، وأول ما خطـب له ببغـداد في ذي الحجة سنـة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، وقطعت خطبته عـدة مرار، ولقى من المشاق والأخطار مـا لم يلقه أحد إلى أن توفي أخـوه بركياروق، فحينئذ استقـرت له السلطنة وصفت لـه ودانت البلاد، وأصحاب الاطـراف لطاعته، وكان اجتماع الناس عليـه بعد موت أخيه اثنتـي عشرة سنة وستـة أشهر، وكـان عادلاً حسـن السيرة شجاعـا، وأطلق المكـوس والضرائب في جميع البـلاد، ومن عـدله أنـه اشترى عدة مماليك من التجـار وأمر أن يوفى الثمن من عامل خورستـان، فأوصل إليه البعض، ومطل البـاقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخـذ غلام الحاكم ووقف بطـريق السلطان، واستغـاث إليه، فأمر مـن يستعلم حالـه، فعاد الحاجب وأعلم السلطـان حاله، فعظم عليه وضـاق صدره وأمر في الحال أن يحضر عامل خوزستان، ويلزم بمال التاجـر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكـم، وكان يقـول كثيرا: لقد نـدمت على تـركي حضـور مجلس الحكم ، ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن اداء الحق.

قال ابن الاثير: وهذه الفضيلـة ذخرها الله تعالى للبيت الأتـابكي ،فإن

الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه، وقد تقدم ذلك.

ولما علم الأمراء وغيرهم من خلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأمن الناس وظهر العدل.

وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة، فقام بالسلطنة ، وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب إنهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهد، فأكرمه وأقطعه من البلاد إلى حدّ خراسان إلى الداروم بأقصى الشام، ومن الممالك همذان وأصفهان، وبلد الجبال جميعه، وبلاد كرمان، وفارس، وخوزستان، والعراق وأذربيجان، وأرمينية، وديار بكر، وبلاد الموصل والجزيرة، وديار مضر، وديار ربيعه، والشام، وبلد الروم، الذي بيد قليج أرسلان، وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الاثير : ورأيت منشوره بذلك

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين، خطب لهم ببغداد من السلجوقية وهم: أخو ملكشاه تاج الدولة تتش ، وركن الدولة بركياروق بن ملكشاه، وأخوه غياث الدين محمد بن ملكشاه، وكان المستظهر رحمه الله كريم الاخلاق لين الجانب، مشكور المساعي، يحب العلم والعلماء، وصنفت له من التصانيف الكثيرة في الفقه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسن الخط، جيد التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولده المسترشد بالله، ودفن في حجرة كان يألفها.

وفي أيامه توفي جماعة من العلماء، ففي شعبان سنة ثمان وثمانين وأربعمائة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المظفر الشامي، وفي ذي القعدة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القزويني المعتزلي مصنف «حدائق ذات بهجة في تفسير القرآن» يزيد على ثلاثمائة مجلد.

قال ابن الاثير: رأيت منه تفسير الفاتحة في مجلد كبير، وفي ذي الحجة توفي الإمام أبو نصر الحميدي مصنف الجمع بين الصحيحين، وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي، وله نحو تسعين سنة، وفي سنة اثنتين وخمسين ومائة توفي أبو زكريا التبريزي اللغوي. وفي ذي الحجة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي ابن الخازن صاحب الخط المشهور، وفي سنة خمس وخمسمائة، توفي الإمام أبو حامد الغزالي، وفي سنة سبع وخمسمائة توفي الإمام أبو بكر محمد بن الشاشي الفقيه، رحمهم الله أجمعين.

فصل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعودا على الموصل، مع أتابكة جيوش بك فبقي مطيعا لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسن له الخروج عن طاعته، وطلب السلطنة، فأظهر العصيان، وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زنكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه، ويحذرهم عاقبة العصيان، فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان منهم الاستاذ أبو اسماعيل الحسين بن اسماعيل الطغرائي وزير مسعود فقتله السلطان محمود، وقال قا. صح عندي فساد اعتقاده ودينه، وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسن الكتابة جيد الشعر.

قلت: وقيل إنه قتل سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة

وخمسمائة، وقيل إن الذي قتله هو السلطان طغرل بن محمد بن ملكشاه، ذكر ذلك كله أبو سعد السمعاني في تاريخه، وسماه الحسين بن علي بن عبد الصمد الديلمي، وأنشد له أشعاراً حسانا منها:

إذا ما لم تكن ملكا مطاعا
فكن عبدا لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا
كما تهواه فاتركها جميعا
هما سيان من ملك ونسك
ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
ومن يقنع من الدنيا بشيء
سوى هذين يحيى بها وضيعا

ثم استأمن من مسعود وأتابكه جيوش بك، فأمنهما السلطان، وأخذ الموصل منهم فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونصيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة وسيره اليها، وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند اشارته، ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتقدّم والده في الايام الركنية، وكانت سيرة ملكشاه عندهم كالشريعة المتبعة، فأعظم الناس عندهم أكثرهم اتباعا لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمسمائة أقطع أتابك زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عظما وهاب الأمير دبيس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة ناحيته،وجرت بينه وبين البرسقي حروب ومواقعات، وهمّ دبيس بقصد بغداد فسار البرسقي إليه، وتبعه الخليفة المسترشد باللّه بنفسه فانهزم عسكر دبيس وقتل منهم وأسر خلق كثير، وكان لعماد الدين زنكي أثر حسن في هذه الواقعة أيضا بين يدي الخليفة، وذلك في أوّل المحرّم سنة سبع عشرة.

وأما دبيس فـإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السلطـان محمد، وصار معه في خـواص أصحابه، وكان عـاصيا على أخيه السلطان محمـود، وأمر السلطان محمد للبرسقـي أن يرجع إلى الموصل فعاد واستدعـى زنكي من البصرة ليسسير معه إلى الموصل ، فقـال زنكي لأصحابه : قد ضجـرنا مما نحـن فيه، كـل يـوم قد ملـك البلاد أمير ونـؤمـر بالتصرف على اختيـاره وإرادته، ثـم تارة بالعراق وتـارة بالموصل، وتـارة بالجزيرة، وتارة بـالشام، فسار من البصرة إلى السلطان محمود، فأقـام عنده، وكان يقف إلى جانب تخت السلطـان عن يمينـه لايتقـدم عليه أحـد، وهـو مقـام والده قسيـم الدولة من قبله، وبقي لولده من بعده.

ثم اتى السلطان الخبر أن العرب اجتمعت ونهبت البصرة، فأمر زنكي بالمسير إليهـا وأقطعه إياها لما بلغـه عنه من الحمايـة لها في العام الماضي، وقت اختلاف العسـاكر والحروب، ففعل ذلك فعظـم عند السلطان وزاد محلـه، وكان قـد جـرى بين يرنقـش الزكـوي شحنـة بغداد وبين الخليفـة المسترشد باللّـه نفرة، فتهدّده المسترشد، فسار عـن بغداد إلى السلطان في رجـب سنة تسـع عشرة شـاكيـا من المسترشـد، وحـذر السلطـان جانبـه وأعلمه أنه قد جمع العسـاكر عازما على منعه من العـراق، فسار السلطان إلى بغداد، وجرى بينه وبين المسترشد حـروب ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغـداد إلى عاشر ربيع الآخر ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكيـة بغداد والعراق، يؤمـن معه من الخليفـة، ويضبط الأمور فولى ذلك زنكـي مضافا إلى ما بيده من الإقطـاع ، وسار السلطان عن بغداد.

وفي سنـة عشرين وخمسمائة قتـل آق سنقـر البرسقـي بالجامـع العتيـق بالموصـل بعد صلاة يوم الجمعـة، ثار به مـن الباطنية ما يـزيد على عشرة أنفس ، فقتل بيـده منهم ثلاثة وقتل رحمه اللّه، وكـان عادلا لين الاخلاق حسـن العشرة، وكـان يصلي كل ليلـة صـلاة كثيرة، لايستعين في وضـوئه

بـأحد، فقـرّر السلطان ولـده عـز الديـن مسعـود على ما كـان لأبيه مـن الأعمال، وهـي الموصـل وديار الجزيـرة وحلـب وحماه وجـزيرة ابـن عمـر وغيرها، وكان شـابا عاقلا فضبط البـلاد، فلم تطل أيامه وتـوفي ســـنة إحـدى وعشريـن، وولي الأمـر بعده أخـوه الصغير، وقـام بتـدبير دولتيهما الأمير جاولي، وهـو مملوك تـركي مـن ممالـيك أبيهما، فجرت الأمـور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زنكي الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين ، وسبب ذلك أن عز الدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المراسل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغيساني، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك ، وكانا يخافان جاولي ولايرضيان بطاعته، والتصرف بحكمه، وكان بين صلاح الدين وبين نصير الدين جقر مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زنكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفرنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم، فمذ قتل إزداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولابد للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الاسلام والمسلمين فنحصل نحن بالاثم من الله تعالى واللوم من السلطان، فأنهى الوزير إلى السلطان، فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد؟ فذكروا جماعة فيهم عماد الدين زنكي وعظما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعا وكتب منشوره بها.

وسار من بغداد إلى البوازيج ليملكها ويتقوّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد، فلما استولى عليها سار عنها إلى الموصل فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسيره إلى الرحبة وأعمالها، وأقام هو بالموصل يصلح أمورها،و يقرّر قواعدها، فولى نصير الدين

دزدارية قلعة الموصل، وفوّض إليه أمر الـولاية جميعها،وجعل الدزدارية في البلاد جميعها لـه، وجعل الصلاح محمد اليـاغيساني أمير حاجب الـدولة، وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بـلاده جميعها، وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بها وعدهم، وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطـا معه، وقربا منه، ورتب الأمـور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

وكـانت الفـرنج قـد اتسعت بـلادهـم، وكثرت أجنـادهم، وعظمـت هيبتهم، وزادت صـولتهم، وامتـدت إلى بلاد المسلمين أيـديهم، وضعف أهلهـا عـن كـف عـاديهم، وتتابعـت غـزواتهم، وسـامـوا المسلمين سـوء العـذاب، واستطار في البـلاد شرر شرّهـم، وامتدّت مملكتهـم مـن ناحيـة مـاردين وشبختـان إلى عـريـش مصر لم يتخلله مـن ولايـة المسلمين غير حلـب وحماه وحمص ودمشق، وكـانت سرايـاهـم من ديـار بكر إلى آمـد، ومـن ديار الجزيـرة إلى نصيبين ورأس عين، وأما أهـل الرقـة وحرّان فقـد كانـوا معهم في ذلّ وهـوان، وانقطعت الطـرق إلى دمشق إلاّ على الـرحبة والبر، ثم زاد الأمر، وعظـم الشر حتى جعلوا على أهل كل بلـد جاورهم خراجـاً وأتاوة يأخـذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهـم، ثم لم يقنعوا بـذلك حتـى أرسلوا إلى مـدينة دمشـق واستعرضـوا الرقيـق ممن أخـذ من الـروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطـانهم، فمن اختـار المقـام تـركوه، ومـن آثـر العـود إلى أهله أخـذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأمـا أهل حلـب فإن الفـرنج أخـذوا منها منـاصفة أعمالها، حتـى في الرحا التي على باب الجنان، وبينهـا وبين المدينة عشرون خطوة، وأما باقي بلاد الشام، فكان حال أهلها أشدّ من حال أهل هذين البلدين، فلما نظر الله سبحـانه وتعـالى إلى بلاد المسلمين، ولاهـا عماد الديـن زنكي، فغـزا الفرنـج في عقر ديارهم، وأخـذ للموحديـن منهم بثارهم، واستنقـذ منهم

حصونـا ومعاقل، وسيأتـى تفصيل ذلك، ومـا فتحه من البلاد الاسـلامية هو وابنه من بعده، إن شاء اللّه تعالى.

فصل

ثم شرع زنكـي رحمه الله في أخذ البـلاد، فافتتح جـزيرة ابن عمـر، ثم مدينة إربل في رمضان سنة اثنتين وعشريـن، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الاولى سنـة ثـلاث وعشريـن إلى سنجـار، فتسلمهـا وسير منهـا الشحن إلى الخابـور فملكه، ثـم قصد الـرحبة، فملكـت قسراً، ثم افتتـح نصيبين، وسار إلى حـران، وكانت الـرها وسروج وغيرهما من ديـار الجزيرة للفرنـج لعنهم الله، وأهـل حران معهم في ضيـق عظيم، فراسلـوا زنكي بالطاعة، واستحثـوا على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفـرنج مدة يسيرة يعلـم أنه يفـرغ فيها مـن الاستيلاء على مـا بقي لـه من البـلاد الشاميـة، والجزرية، وكـان أهم الاشيـاء عنده عبـور الفرات، وملـك مدينـة حلب، وغيرها مـن البلاد الشاميـة، فلما عبر الفرات ملـك مدينة منبـج وحصن بزاعة، وحاصر حلـب، ثم فتحت له، فرتب أمـورها، وسار عنها إلى حماه فملكهـا، وقبـض على صـاحـب حمص وحـاصرهـا، وذلـك سنـة ثـلاث وعشرين.

وفي سنة أربـع وعشرين اتفق صـاحب آمد مـع صاحب حصـن كيفا وغيرهم مـن الملوك، وجمعـوا عساكـر نحو عشريـن ألفا، وقصـدوا زنكي فلقيهم فهزمهم، وملك سرجة ودارا، ثـم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب، وكـان أضر شيء على أهل حلـب، فجمع الفـرنج جمعـا عظيماً، فهـزمهم وقتلهـم مقتلـة عظيمة، بقيـت عظـام القتلى بتلك الأرض مـدّة طويلـة ، ثم رجع إلى الحصـن فملكه عنوة فـأخربه، ومحا أثـره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم، فـأنفذ من لم يحضر المعركة من الفـرنج، ومن نجـا منها يسألـون الصلح، ويبـذلون له المنـاصفة على

ولايـة حـارم، فـأجـابهم إلى ذلـك، لأن عسكــره كـان قـد كثـرت فيهـم الجراحات والقتـل، فأراد أن يستريحوا، فهـادنهم، وعاد عنهـم، وقد أيقـن المسلمون بالشام بالأمن، وحلول النصر، وسيرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استـولى زنكي على مدينـة حماه وما فيهـا، وكان فيها بهاء الـدين سونج بن تـاج الملوك بوري، فأخذ رجاله، ثـم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دبيس بن صـدقة بن مزيد أمير العراق بدمشق منهزمـا، فطلبه زنكي وأطلـق من كان عنـده من سـونج وأصحابـه .ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى.

وفي سنة خمس وعشرين وخمسمائة توفي السلطـان محمود بهمذان، وكان عمره نحو ثمان وعشريـن سنة، وكانت ولايته ما يقـارب أربع عشرة سنة، وكان حليما كـريماً عاقلاً كثير الاحتمال، وطلـب السلطنة بعـده ولده داود ابن محمـود، وأخواه مسعـود وسلجوق شاه ابنـا محمد، وعمهما سنجـر بن ملكشـاه، ومعـه طغـرل بـن السلطـان محمـد، فجـرت بينهـم حـروب، واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر بن ملكشاه، ومعه طغرل بن السلطان، وخطب لابـن أخيه طغرل بـالسلطنة في همذان، وأصفهان والـري، وسائر بلاد الجبل.

وفي سنة سبـع وعشرين سـار الخليفة المسترشـد بنفسه إلى الموصـل في ثلاثين ألـف فارس، فحصرهـا ثلاثـة أشهر، ثـم عاد إلى بغـداد، ولم يبلغ غرضا.

وفي سنـة تسـع وعشريـن استـولى زنكـي على سـائر قـلاع الحميـديـة وولاياتهم منها قلعـة العقر، وقلعة شوش، وحـاصر مدينة آمد، ثـم مدينة دمشق، وفيها توفيت والدته بالموصل.

وفي المحـرم سنة تسـع وعشريـن توفي السلطـان طغـرل بـن محمد بـن

ملكشاه، فخرج السلطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكر الخليفة، وقبض عليه وعلى خواصه، وأنفذ السلطان شحنة إلى بغداد، فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعة من الباطنية على المسترشد، وهو في الخيمة فقتلوه، وكتب السلطان إلى شحنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور ابن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القعدة، ولقب بالراشد، وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشر سنة وسبعة أشهر، وكان شهما شجاعا مقداما فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكنا عظيما لم يره أحد ممن تقدمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلاّ أن يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديما يخلعون الخلفاء، ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى ملك الديلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرّة إلى انقراض دولة الديلم، فلما ملك السلجوقية جدّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لاسيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلاّ أن الحكم والشحن بالعراق كان إلى السلطان، وكذلك العهد أو ضمان البلاد، لم يكن للخلفاء إلاّ إقطاع يأخذون دخله، وأما المسترشد فانه استبدّ بالعراق بعد السلطان محمود،ولم يكن للسلطان محمود معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة ، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر بالحرب.

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة سار الراشد إلى الموصل بصحبة زنكي ملتجئاً إليه، وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال، وتلوّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه، وخافه الباقون، وتقدّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها، فخرج الراشد ملتجئاً إلى زنكي، فسار به إلى الموصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الراشد ومبايعة عمه أبى عبد الله محمد بن المستظهر بالّله، ففعل ذلك ولقب

المقتفي لأمر اللّه، وأما الراشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أذربيجان، ثم إلى همذان، فاجتمع إليه ملوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم فتصافوا فانهز م الراشد، وقصد أصبهان فقتله الباطنية بها في السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ودفن بأصبهان.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضا تزوج زنكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك اسماعيل وأخوته بني تاج الملوك بوري ابن طغتكين أتابك، وهي أخت الملك دُقاق، وإليها ينسب مسجد خاتون الذي هو مدرسة لأصحاب أبى حنيفة بأعلى الشرف القبلي بأرض دمشق، بأرض صنعاء، وتسلم قلعة حمص.

فصل

في جهاد زنكي للفرنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لايحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام فخافه الناس خوفا عظيماً، وكان زنكي مشغولاً بما تقدم ذكره، ولايمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها، وهي على مرحلة من حلب، وفتحها عنوة، وقتل المقاتلة وسبى الذرّية في شعبان، ثم سار عنها إلى شيزر، وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حلب، فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقا، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زنكي يستنجده، فنزل على حماه، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب، ثم يعود آخر النهار، وكان الروم والفرنج قد

نزلوا على شرقي شيزر، فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فأخرجوا عنها حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شيزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيبا لهم، فأشار الفرنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ماترون، وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم، وكان أتابك زنكي مع هذا يراسل فرنج الشام، ويحذرهم ملك الروم، ويعلمهم إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق، وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى الّله المؤمنين القتال، وكان المسلمون بالشام قد اشتدّ خوفهم، وعلموا أن الروم إن ملكوا حصن شيزر، لايبقى لمسلم معهم مقاما لاسيما مدينة حماه لقربها، ولما يسر الّله تعالى هذا الفتح مدح الشعراء الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي له قصيدة قد ذكرتها في ترجمته في التاريخ أوّلها:

بعزمك أيها الملك العظيم — تذلّ لك الصعاب وتستقيم

ألم تر أن كلب الروم لما — تبين أنك الملك الرحيم

فجاء يطبق الفلوات خيلا — كأن الجحفل الليل البهيم

وقد نزل الزمان على رضاه — فكان لخطبه الخطب الجسيم

فحين رميته بك في خميس
تيقن أن ذلك لا يدوم
وابصر في المفاضة منك جيشا
فاحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب نور
توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فولى
وليس سوى الحمام له حميم
يؤمّل أن تجود بها عليه
وأنت بها وبالدنيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا
وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا
بيوم فيه يكتهل الفطيم
ولما ان طلبتهم تمنى الـ
ـمنية جوسلينهم اللئيم
أقام يطوّف الافاق حينا
وأنت على معاقله مقيم
فسار وما يعادله مليك
وعاد وما يعادله سقيم
إذا خطرت سيوفك في نفوس
فأول ما يفارقها الجسوم

وله من قصيدة مدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحب حماة.

وما جاء كلب الروم الا ليحتوي
حماة وهل يسطو على الأسد الكلب
أراد بها أن يملك الشام عنوة
وقد غلبت عنه الضراغمة الغلب

وما ذمّ فيها العيش حتى صدمنه
فمال جناح الجيش وانكسر القلب

فولى وأطراف الرماح كأنها
نجوم عليه بالمنية تنصب

ولابن منير قصيدة في مدح أتابك زنكي رحمه الله سيأتي بعضها عند ذكر فتحه مدينة الرها إن شاء اللّه تعالى، ومنها:

وما يوم كلب الروم إلا أخو الذي
أزحت به ما في الجناجن (٣٩) من نبل

اتاك بمثل الروم حشدا وإنه
ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمل

فقاتلته باللّه ثم بعزمة
تصك قلوب العاشقين بما يسلي

توهم أن الشام مرعى ومادرى
بأنك أمضى منه في الشزر والسحل (٤٠)

فطار وخير المغنمين ذماؤه
إذا اراد عنه مغنم المال والأهل

قال ابن الاثير: ومن عجائب ما يحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الروم شيزر، قام الأمير مرشد بن علي أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفا، فرفعه بيده، وقال: اللهم بحق من أنزلته عليه إن قضيت بمجيء الروم فاقبضني إليك فتوفي بعد أيام ونزل الروم بعد وفاته.

ولما عاد الروم إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عرقه، وهو من أعمال طرابلس فحصره وفتحه عنوة ونهب ما فيه، وأسر من به من الفرنج وأخربه، وعاد سالما غانما، وفيها ملك قلعة دارا من حسام الدين تمرتاش، وفيها توفي بهاء الدين علي بن القاسم الشهرزوري قاضي

الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده، وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بتكريت.

فصل

في فتح شهر زور وبعلبك وحصار دمشق

قال ابن الأثير:كانت شهر زور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجق بن أرسلان تاش التركماني، وكان ملكها نافذ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً، فتحامى الملوك قصد ولايته، ولم يتعرّضوا لها لحصانتها، فعظم شأنه وازداد جمعه، فلما كانت سنة أربع وثلاثين بلغ الشهيد أتابك عنه ما اقتضى أن يقصد بلاده، فهزم عسكره وملك بلاد شهر زور وغيرها، فاضافها إلى بلاده وأصلح أحوال أهلها وخفف عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان، وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشام، فإنه كان لايرى المقام بل لايزال ظاعنا إما لردّ عدوّ يقصده، وإما لقصد بلاد عدوّ وإما لغزو الفرنج وسدّ الثغور، وكانت مياثر السروج آثر عنده من وثير المهاد، والسهر في حراسة المملكة أحب إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذ في سمعه من الغناء، لايجد لذلك كله عناء.

وفي هذه السنة وهي سنة أربع وثلاثين ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شهر زور إلى مدينة دمشق فحصرها، وصاحبها حينئذ جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، وكان محكوما عليه، والغالب على أمره معين الدين أنر مملوك جدّه

طغتكين، وكان أتـابك قد أمـر كمال الديـن أبا الفضل بـن الشهر زوري بمكاتبـة جماعة من مقـدّمي أحداثهـا وزناطرتها واستمالتهـم واطماعهم في الرغائب والصلات، ففعل ذلك فأجـابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد وخرجـوا متفرقين إلى كمال الديـن ، وجدّد عليهم العهـود وتواعدوا يـوماً يزحف فيه الشهيد إلى البلد ليفتحوا لـه الباب ويسلموا البلد إليه، فأعلم كمال الدين الشهيد أتـابك بذلك فقال: لاأرى هذا رأيـا فإن البلد ضيق الطـرق والشوارع، ومتـى دخل العسكـر إليـه لايتمكنون مـن القتال فيـه لضيقه، وربما كثـر المقاتلون لنا فنعجـز عن مقاومتهم لأنهم يقـاتلون على الأرض والسطـوحـات، وإذا دخلنـا البلـد اضطـررنـا إلى التفـرّق لضيـق المسالك فيطمع فينا أهله، وعاد عن ذلك العزم بحزمه وحذره.

ومن العجب أن محمـد بن بوري صاحب دمشق تـوفي وأتابك يحصره، فضبـط أنـر الأمور وسـاس البلـد فلـم يتغير بـالناس حـال، وأرسـل إلى بعلبك فأحضر ولـده مجير الدين آبق بـن محمد بن بوري ورتبـه في الملك مكان أبيـه فمشى الحال بتمكين معين الـدين أنـر وحسن تـدبيره، وهذا مجير الدين آبق هو الذي منه أخذ نـور الدين محمود بن زنكي دمشق كما سيأتي، ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بعلبك معين الدين أنر، فأرسل إليها نـائبه وتسلمهـا، فلما علم الشهيـد ذلك سـار إلى بعلبك وحصرهـا عدّة شهور فملكها عنـوة، وترك بها نجم الدين أيوب والـد صلاح الدين دزداراً، وعـزم على العود عنهـا إلى دمشق فجـاءتـه رسل صـاحبها ببـذل الطاعة والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعـاد عن قصد دمشق، وقد خطب له فيها،وصار أصحابها في طاعته وتحت حكمه.

قال يحيـى بن أبي طي الحلبي: واتفق أن الأمـراء لما نزلوا مـن بعلبك أفسدوا ذخائرها فقبض عليهم أتابـك زنكي وقتل بعضهم وصلبهم وكان ولىّ قتلهم صـلاح الدين محمد بـن أيوب الياغيساني، فحكـى أنه أحضر إليه في جملـة الأمراء شيخ مليح الشيبـة ومعه ولد لـه أمرد كأنه فلقـة قمر،

فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك ألا صلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت، وكان نجم الدين أيوب واقفاً فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاح الدين في إطلاقه، فقال ما أفعل خوفاً من المولى أتابك، فذهب نجم الدين إلى أتابك وسأله في الشيخ وولده وقص عليه ما قاله، فأذن باطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بعلبك، وقيل إن نجم الدين قد ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك فسأله في الأمراء فأطلقهم له وولاه بعلبك وكتب له ثلثها ملكاً، واستقر فيها هو وأهله، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زنكي فأخرجه منها على ما سنذكره، ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق فنزل البقاع، فوردت هدية صاحب دمشق، ويطلب العود ويعطيه خمسين ألف دينار، ويعطيه حمص، فأشار نجم الدين على زنكي بقبول ذلك وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب، وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلد عظيم وقد ألف أهله هذا البيت وتمرّنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببعلبك، فامتنع زنكي عن قبول ما أشار به ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين، وهو للفرنج ، فصبرالفريقان صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير(٤١)، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم، فدخلوا حصن بارين،وفيهم ملك القدس لأنه كان قرب حصونهم، وأسلموا عدّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلاّ أخذهم قهراً، فبلغه أن من بالساحل من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر عليهم، فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومن بالحصن لايعلمون بشيء من ذلك لقوّة الحصر عليهم، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان، فأجابهم وتسلم الحصن وساروا فلقيتهم أمداد النصرانية، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين فحلفوا لهم: إنا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقنا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الاثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطعت السبل، فأزال اللّه تعالى بالشهيد رحمه اللّه هذا الضرر العظيم.

وفي مدّة مقامه على حصن بارين سير جنده إلى المعرة وكفر طاب، وتلك الولاية جميعها فاستولى عليها وملكها وهي بلاد عظيمة.

قلت: وقد قال القيسراني يذكر هزيمة الفرنج، ويمدح زنكي قصيدة أولها:

حذار منا وأنى ينفع الحذر
وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك
من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بها
صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم
في مأزق من سناه يبرق البصر
ولوا تضيق لهم ذرعا مسالكهم
والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم
طول وإن كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا
يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة
فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر
إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حربوا
أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم
حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مفترع أبكار أنفسهم
ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لا فارقت ظل محيي العدل لامعة
كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا
ولا انثنى النصر عن أنصار دولته
بحيث كانوا وإن كانوا به نصروا

حتـــى تعـــود ثغـــور الشـــام ضـــاحكـــة
كـــأنها حـــلّ في أكنـــافهـــم عمـــر

وقال ابن منير

فـــدتـــك الملـــوك وأيـــامهـــا
ودام لنقضـــك ابـــرامهـــا
وزلـــت لعيشـــك أقـــدامهـــا
وزال لبطشـــك إقـــدامهـــا
ولـــو لم تسلـــم إليـــك القلـــو
ب هـــواهـــا لما صـــح إسـلامهـــا
أيـــا محيـــي العـــدل لما نعـــا
ه أيـــامـــى البرايـــا وأيتـــامهـــا
ومستنقـــذ الـــديـــن مـــن أمّـــة
أزال المحـــاريـــب أصنـــامهـــا
دلفـــت لها تقتفيـــك الاســـو
د والبيـــض والسمـــر آجـــامهـــا
جـــزرت جـــزيـــرتها بـــالسيـــو
ف حتـــى تشـــاء مهـــا شـــامهـــا
وصـــارت عـــواري أكتـــافـــه
متـــى شئـــت أرخـــص مستـــامهـــا

قال ابن الاثير: ولما وصل الروم والفرنج إلى الشام ورأوا الامر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين، فنازلوا حلب وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم لأنهم كانوا في جمع عظيم، فانحاز عنهم ونزل قريبا منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدوّ فيها والاغارة عليها، وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهر زوري إلى السلطان مسعود ينهي إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال

الـدين: أخـاف أن تخرج البلاد مـن أيدينـا ويجعل السلطـان هذا حجـة وينفـذ العساكـر، فإذا تـوسطوا البـلاد ملكـوها، فقـال الشهيد: إن هـذا العدوّ قد طمـع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام اسـلام، وعلى كل حال فـالمسلمـون أولى بها مـن الكفار، قـال: فلما وصلـت إلى بغـداد وأدّيـت الرسـالة وعدني السلطـان بانفاذ العساكـر، ثم أهمل ذلك ولم يتحـرك فيه بشيء وكتب الشهيـد إليّ متصله يحثني على المبادرة بـانفاذ العساكـر، وأنا أخاطب فلا أزاد على الوعد.

قـال: فلما رأيـت عدم اهتمام السلطـان بهذا الامـر العظيـم، أحضرت فلانـا(وهو فقيـه كان ينوب عنـه في القضاء) فقلت: خـذ هذه الـدنانير وفـرقها في جماعـة مـن أوباش بغـداد والأعاجـم، وإذا كـان يوم الجمعـة وصعـد الخطيـب المنبر بجامـع القصر قـامـوا وأنـت معهم، واستغـاثـوا بصـوت واحـد:«وا اسـلامـاه» « وا دين محمـداه» ويخرجـون مـن الجامـع ويقصـدون دار السلطنة مستغيثين، ثـم وضعت انسـاناً آخـر يفعل مثـل ذلك في جـامع السلطان ، فلما كانـت الجمعة وصعد الخطيـب المنبر، قام ذلك الفقيـه وشق ثـوبه، وألقـى عمامته عـن رأسه وصـاح، وتبعه أولئـك النفـر بالصيـاح والبكاء فلـم يبق بـالجامـع إلا من قـام يبكي، وبطلـت الجمعـة وسار النـاس كلهـم إلى دار السلطان وقـد فعـل أولئـك الذيـن بالجامع مثلهم، فاجتمع أهل بغـداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثـون، وخرج الأمر عن الضبـط وخاف السلطان في داره، وقـال: ما الخبر؟فقيـل لـه: إن الناس قـد ثـاروا حيـث لم ترسـل العسـاكـر إلى الغـزاة ، فقال: أحضروا ابـن الشهـرزوري، قـال: فحضرت عنـده وأنا خـائف منـه لأنني قـد عزمـت على صـدقه وقـول الحق، فلما دخلت عليه قال: ياقاضي ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر، ولاشك ان السلطـان ما يعلم كم بينه وبين العدو وإنما بينكم نحـو اسبوع، ولئن أخـذوا حلب، انحدروا إليـك في الفرات، وفي البرّ وليس بينكم بلـد يمنعهم عن بغداد، وعظمت الأمـر عليه حتى

جعلته كأنه ينظر اليهم، فقال: اردد هؤلاء العـامة عنا، وخذ من العساكر ماشئت وسر بهم والأمداد تلحقك، قال: فخـرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعـرّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفـرّقوا وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس، وكتبت إلى الشهيـد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدّد استئذانـه في ذلك، فأمرني بتسييرهـم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة واذا قد وصل نجاب من الشهيد يخبر بأنّ الروم والفرنـج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينـالوا منهـا غـرضا، ويـأمـرني بترك استصحاب العسـاكـر، فلما خوطـب السلطان في ذلك أصرّ على انفاذ العساكر إلى الجهـاد، وقصد بلاد الفرنج وأخذهـا، وكان قصده أن تطـأ عساكـره البلاد بهذه الحجة فيملكهـا،فلم أزل أتوصـل مع الوزيـر وأكابرالـدولة حتـى أعدت العساكـر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الاثير: فـانظروا إلى هذا الرجل الـذي هو خير من عشرة آلاف فارس- يعنـي كمال الدين - رحم اللـه الشهيد، فلقد كان ذا همة عـالية ورغبة في الرجـال ذوي الرأي والعقل يرغبهـم ويخطبهم من البلاد ويـوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قـال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الديـن يحصل له في كـل سنة منـك ما يـزيـد على عشرة آلاف دينار أميريـة وغيره يقنع منـك بخمسمائة دينار، فقـال لهم: بهذا العقل والـرأي تدبـرون دولتي، إن كمال الدين يقلّ لـه هذا القدر، وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فـان شغلا واحد يقوم فيـه كمال الدين خير مـن مائة ألـف دينار، وكان كما قـال رحمه الله تعالى.

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين سار الشهيد إلى بلد الهكارية، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جقر نائب السلطان الشهيد بالموصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم، فلما بلغها الشهيد حصر قلعة.الشعباني وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العمادية عوضا عنها، وكانت هذه العمادية حصنا كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره، فلما ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الّله لاأعجز عنه، فأمر ببنائه وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمر فبنى الحصن وسماه « القلعة العمادية» نسبة إلى لقبه عماد الدين.

وفي هذه السنة خطب لأتابك بآمد، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن والانتماء إلى خدمته ، والخطبة له فأجابه إلى ذلك، وفيها ملك الشهيد مدينة عانة

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد دمشق فشتى بها، وفي سنة ثمان وثلاثين عزم السلطان مسعود على قصد الموصل بعسكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة فترددت الرسل بينهما حتى استقرّت الحال على مائة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السلطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته فامتنع واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشرط عليه فتح الرها، وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له : إن ملك البلاد لايقدر على حفظها من الفرنج غير أتابك عماد الدين،فإنها قد وليها قبله مثل جاولي سقاوة، ومودود وجيوش بك والبرسقي وغيرهم من الأكابر، وكان السلاطين يمدّونهم بالعساكر الكثيرة، ولايقدرون على حفظها، ولايزال

الفرنج يأخذون منها البلد بعد البلـد إلى أن وليها أتابك ، فلم يمدّه أحد من السـلاطين بفارس واحد ولابمال، ومع هـذا فقد فتح من بـلاد العدّو عدّة حصـون وولايات وهـزمهم غير مرة واستضعفهـم، وعز الاسـلام به، ومن الأسباب المانعـة له أيضا أن الشهيد كان لايـزال ولده الأكبر سيف الدين غازي في خـدمة السلطان مسعود بأمر والـده، وكان السلطان يحبه ويقرّبه ويعتمد عليـه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يـأمره بالهرب والمجيء إلى الموصل، وأرسل إلى نائبـه بالموصل يأمره أن يمنعه مـن دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً ففعـل ذلك، وقال له: ترسل إلى والـدك تستأذنه في الـذي تفعله، فـأرسـل إليه فعـاد الجواب: إننـي لاأريدك مهما السلطـان ساخط عليـك، فألزمه بالعـود إليه، فعاد ومعه رسـول إلى السلطان يقول له: إننـي لما بلغني أن ولدي فـارق الخدمة بغير أذن لم اجتمع بـه ورددته إلى بـابـك، فحـلّ هـذا عنـد السلطـان محلاً كبيراً، وأجـاب إلى مـا أراد الشهيد، ولما استقرّ المال حمل منـه نحو عشرين ألف دينـار، ثم إن الأمور تقلبـت، وعاد أصحـاب الأطـراف خرجـوا على السلطـان ، فاحتـاج إلى مداراة الشهيد، وأطلق له الباقي، إستمالة له.

وفي هذه السنـة سار الشهيد إلى ديـاربكر ففتـح عدّة بلاد منهـا طنزة وأسعـرد، وملك مـدينـة المعدن الـذي يعمل منـه النحـاس من أرمينيـة، ومدينة حيزان، وأخـذ من أعمال ماردين عدّة مواضـع ورتب أمور الجميع وملك مدينة حاني، وحاصر آمد، وأرسـل عسكراً إلى مدينة عانة، فملكها له، وقد تقدّم ذكرها في السنة قبلها.

فصل

في فتح الشهيد الرها

في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة، وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم والمقدّم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم، فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات على طريق شبختان عدّة حصون : كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر، وماردين ورأس عين والرقة، وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لاينال منها غرضا مادام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الاسلام كحاني وجبل جور وآمد، فكان يقاتل من بها قتالا فيه ابقاء وهو « يسر حسوا في ارتغاء(٤٢)» فهو يخطبها، وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده، فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنّ أنه لافراغ له إليه، وأنه لايمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرها، ثم وصف ابن الأثير الجيش وأنشد:

بجيش جاش بالفرسان حتى
ظننت البر بحراً من سلاح

وألسنة من العذبات حمر
تخاطبنا بأفواه الرياح
وأروع جيشه ليل بهيم
وغرّته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن
قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا
وهيبته جناحا للجناح

وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ، ونكس صلبانها، وأباد قسوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردّوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلاّ الشاذ والنادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيما طار في الآفاق ذكره وطاب بها نشره وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الاثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرها الشيخ أبا عبد اللّه بن علي بن مهران الفقيه الشافعي، وكان من العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة، ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور عنده من الارتياح ما لم يروه أبدا، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواني أن أتابك زنكي قد فتح مدينة الرها، وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرّك يازنكي ما فعلت بعد اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم، فكان يوم الفتح،ثم إن

نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنا بالفتح، وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عيانا.

قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب، وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صقلية من الفرنج لما فتحت الرها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي فتحت فيه الرهاسير ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس، وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يافقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرتهم؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لاتضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدّ هذا على الملك فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدّة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوّ منزلة الرها عند النصرانية.

قال وحكى لي أيضا غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلا من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الّله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرها.

قلت: وهنأه القيسراني عند فتح الرها بقصيدة أوّلها

هو السيف لايغنيك إلاّ جلاده
وهل طوق الاملاك إلاّ نجاده

وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا
سناها وإن فات العيون اتقاده

سمت قبة الاسلام فخراً بطوله
ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وزاد قسيم الدين ابن قسيمها
عن اللّه ما لا يستطاع زياده
ليهن بني الايمان أمن ترفعت
رواسية عزاً واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه
شهي إلى يوم المعاد معاده
أراح قلوباً طرن عن وكناتها
عليها قوافي كل صدر فؤاده
لقد كان في فتح الرهاء دلالة
على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة
ولم يغن عند القوم عنه ولاده
مدينة أفك منذ خمسين حجة
يفلّ حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار حتى لو أنها
ترقت إليه خان طرفاً سواده
وجامحة عز الملوك قيادها
إلى أن ثناها من يعز قياده
فأوسعها حرّ القراع مؤيد
بصير بتمرين الألد لداده
كأنّ سنا لمع الأسنة حوله
سرار ولكن في يديه زناده
فأضرمها ناريين حرب وخدعة
فما راع إلا سورها وانهداده
فصدّت صدود البكر عند افتضاضها
وهيهات كان السيف حتما نفاده
فيا ظفراً عم البلاد صلاحه
بمن كان قد عم البلاد فساده

فـــــلا مطلـــــق الا وشـــــدّ وثـــــاقـــــه
ولا مـــــوثـــــق إلّا وحـــــل صفـــــاده
ولا منبر إلاّ تـــــرنـــــح عـــــوده
ولا مصحـــــف إلاّ أنـــــار مـــــداده
فـــان يثكـــل الابـــرنـــز(٤٢) فيهـــا حيـــاتـــه
وإلأفقـــــل للنجـــــم كيـــــف سهـــــاده
وبـــاتـــت سرايـــا القمـــص تقمـــص دونها
كما يتنـــــزاعـــــن حـــــريـــــق حـــــراده
إلى أيـــن يـــا أسر الضـــلالـــة بعـــدهـــا
لقـــــد ذلّ غـــــاويكـــــم وعـــــز رشـــــاده
رويـــــدكـــــم لامـــــانـــــع مـــــن مظفـــــر
يعـــــانـــــد أسبـــــاب القضـــــاء عنـــــاده
مصيـــب سهـــام الـــرأي لـــو أن عـــزمـــه
رمـــى ســـد ذي القـــرنين أصمـــى ســـداده
وقـــل للمـــلوك الكفـــر تسلـــم بعـــدهـــا
ممـــالكهـــا إن البـــلاد بـــلاده
كـــذا عـــن طـــريـــق الصبـــح فلينتـــه الـــدجـــى
فيـــاطـــالما غـــال الظـــلام امتـــداده
ومـــن كـــان امـــلاك السمـــوات جنـــده
فـــأيـــة أرض لم تـــرضهـــا جيـــاده
وللّـــــه عـــــزم مـــــاء سيحـــــان ورده
وروضـــــة قسطنطينيـــــة مستراده

وله من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهر زوري أوّلها:
هـــي الجنـــة المأوى فهـــل مـــن خـــاطـــب..

يقول فيها:
إن الصفـــائح يـــوم صـــافحـــت الـــرهـــا
عطفـــت عليهـــا كـــل أشـــوس نـــاكـــب

فتح الفتوح مبشراً بتمامه
كالفجر في صدر النهار الآيب
للّه أية وقفة بدرية
نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه
كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدّكم جيش الملائك نصرة
بكتائب محثوثة بكتائب
جنبوا الدبور وقد تمم ريح الصبا
جند النبوّة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت
ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها
إن الدروب على الطريق اللاحب
أفغرّكم والثار رهن دمائكم
ما كان من اطراق لحظ الطالب
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه
دون الفريسة فهو عين الواثب

وقال ابن منير:
صفات مجدك لفظ جلّ معناه
فلا استردّ الذي اعطاكه اللّه
يا صارما بيمين اللّه قائمه
وفي أعالي أعادي اللّه حدّاه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا
بلا شبيه إذا الأملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته
جهلا وقصر عن مسعاك مسعاه

قـل لـلاعـادي ألا مـوتـوا بـه كمـد
فـاللّـه خيبكـم واللّـه أعطـاه
ملـك تنـام عـن الفحشـاء همتـه
تقـى وتسهـر للمعـروف عينـاه
مـازال يمسـك والأيـام تخدمـه
فيما ابتـلاه وتـدني مـا تـوخـاه
حتـى تعـالـت عـن الشعـرى مشـاعـره
قـدرا وجـاوزت الجوزاء نعـلاه
وقـد روى النـاس أخبـار الكـرام مضـوا
وأيـن ممـا رووه مـا رأينـاه
أيـن الخلاف عـن فتـح أتيـح لـه
مظلـل أفـق الـدنيـا جنـاحـاه
على المنـابـر مـن أنبـائه أرج
مقطـوبـة بفتيـتـة المسـك ريـاه
فتـح أعـاد على الاسـلام بهجتـه
فـافتر مبسمـه واهتـز عطفـاه
يهدي بمعتصـم بـاللـه فتكتـه
حـديثهـا نسـخ الماضي وأنسـاه
إن الـرهـا غير عمـوريـة وكـذا
مـن رامهـا ليـس مغـزاه كمغـزاه
أخـت الكـواكـب عـزامـا بغـى أحـد
مـن الملـوك لها وقما (٤٤) فـواتـاه
حتـى دلفـت لها بـالعـزم يشحـذه
رأي يبيـت فـويـق النجـم مسراه
مشمـرا وبنـو الاسـلام في شغـل
عـن بـدء غـرس لهم أثمار عقبـاه
يـا محيـي العـدل إذ قـامـت نـوادبـه
وعـامـر الجود لما امّـح مغنـاه

يـــا نعمـــة اللّـــه يستصفـــى المزيـــد بها
للشـــاكـــريـــن ويستقنـــى صفـــايـــاه
أبقـــاك للـــديـــن والـــدنيـــا تحوطهما
مـــن لم يتـــوّجـــك هـــذا التـــاج إلاّ هـــو

ولابن منير من قصيدة تقدّم بعضها:
أيـــا ملكـــا ألقـــى على الشرك ككـــلا
أنـــاخ على آمـــاتـــه كلكـــل الثكـــل
جمعـــت إلى فتـــح الـــرهـــا سـدّبـــابـــه
بجمعـــك بين النهـــب والاسر والقتـــل
هـــو الفتـــح أنســـى كـــل فتـــح حـــديثـــه
وتـــوج مسطـــور الـــروايـــة والنقـــل
فضضـــت بـــه نقـــش الخواتـــم بعـــده
جـزيـت جـزاء الصـدق عـن خـاتـم الـرسـل
تجرّدت لـــلاســـلام دون ملـــوكـــه
تبثـــك أسبـــاب المذلـــة والخذل
أخـــو الحرب غـــذتـــه القـــراع مفطما
يشـــوب بـــاقـــدام الفتـــى حنكـــة الكهـــل

وله من قصيدة أخرى:

بعماد الـــديـــن أضحـــت عـــروة الـــديـــ
ـــن معصـــوبـــاً بها الفتـــح المبين
واستـــزادت بقسيـــم الـــدولـــة القســـ
ـــم مـــن ادحـــاض كيـــد المارقين
ملـــك اسهـــر عينـــا لم يـــزل
همهـــا تشريـــد همّ الـــراقـــديـــن
لا خلـــت مـــن كحـــل النصر فقـــد
فقـــأت غيضـــا عيـــون الحاســـديـــن

كـــل يــــوم مــــر مـــــن أيـــامــــه
فهـــــوعيـــــد عـــــائد للمسلمين
لـــو جـــرى الانصـــاف في أوصـــافـــه
كـــــان أولاهــــــا أمير المؤمنين
مـــاروى الـــراوون بـــل مـــا سطـــروا
مثـــل مـــا خطـــت لـــه أيـــدى السنين
إذا نـــــاخ الشرك في أكنـــــافـــــه
بمئـــــي ألــــف تـــــلاهـــــا بمئين
وقعـــة طـــاحـــت بكلــب الـــروم مـــن
قطعـــــة البين إلى قطعـــــة الـــــوتين
إن حمت مصر فقــــــدقــــــام لها
واضـــــح البرهـــــان إن الصين صين
والـــرهـــالـــو لم تكـــن إلاّ الـــرهـــا
لكفـــت حسماً لشـــك الممتريـــن
هـــم قسطنطين أن يفـــرعهـــا
ومضـــى لم يحو منهـــا قســـطين
ولكـــم مـــن ملـــك حـــاولها
فتحـــــــــــلا الحين وسما في الجبين
هـــي أخـــت النجـــم إلاّ أنها
منـــه كـــالنجـــم لـــرأي المبصريـــن
زارهـــا يـــزأر في أســـد وغـــى
تبـــدل الأســـد مـــن الـــزأر الأنين
صـــولجوابـــالبيـــض بضرب نثـــ
ـــر الهام في ســـاحـــاتها نثـــر الكـــريـــن (٤٥)
يـــالهاهمة ثغـــر أضحكـــت
مـــن بنـــي القلـــف ثغـــور الشـــامتين
بـــرنســـت رأس بـــرنـــس ذلـــة
بعـــدمـــا جـــاســـت حـــوايـــا جـــوسلين

سروج مــــــذ وعــــــت أسراجــــه
فـــرقــت جماعهـــا عنهـــا عضين
تلــك أقفـــال رمـــاهـــا اللّـــه مــن
عـــزمــــه الماضي بخير الفـــاتحين
شـــام منـــه الشــام بـــرقـــاودقــه
مـــؤمـــن الخوف مخيــف الآمنين
كـــم كنيـــس كنســـت قــدرامهـــا
منـــه بعـــد الــروح في ظـــل السفين
دنـــت الآجـــال مـــن آجـــالها
فـــأحلتهـــا القطـــا بعـــد القطين
ومنـــار يجتلى صلبـــانـــه
بين بيـــض تتبـــارى في البريـــن
قـــرعتـــه البيـــض حتـــى بـــدّلـت
قـــرعـــة النـــاقــوس تثـــويـب الأذيـــن
بـــالقسيميـــات مقســـوم لها الـــ
ـــدهر في علـــك لجين أو لحين
سبـــل بها حـــرّان كـــم حـــرّى سقـت
بـــردا مـــن يـــوم ردت مـــارديـــن
شمطـــت أمـــس شميشـــاط بها
نظـــم جيـــش منهـــج للنـــاظـــريـــن
وغـــدا يلقـــي على القـــدس لها
كلكـــل يـــدرسهـــا درس الـــدريـــن
همة تمسي وتضحـــي عـــزمـــة
ليـــس حصـــن إن نحتـــه بحصين
قـــل لقـــوم غـــرّهـــم امهـــالـــه
ستـــذوقـــون شـــذاه بعـــد حين
إنـــه الموت الـــذي يـــدرك مـــن
فـــرّ منـــه فشجـــا اللغـــافلين

وهـــو يحيـــى ممسكـــا عـــروتـــه
إنها حبـــــل لمن تـــــاب متين
مـــن يطـــع ينـــج ومـــن يعـــص يكـــن
مـــن غـــداة عبرة لـــلآخـــريـــن
بـــك يـــا شمـــس المعـــالي ردّت الـــ
ـــروح في الميتين مـــن دنيـــا ودين
أقســـم الجدّ بـــأن تبقـــى لكـــي
تملـــك الأرض يمينـــا لا يمين
وتفيـــض العـــدل في أقطـــارهـــا
منسيـــا مـــؤلم عســـف الجائريـــن
لا تـــزل دارك كيـــف انتقلـــت
كعبـــة محفـــوفـــة بـــالطـــائفين
كـــل يـــوم يتحلى جيـــدهـــا
مـــن نظيـــم المدح بـــالـــدرّ الثمين
كلما أخلـــص فيهـــا دعـــوة
لـــك قـــالـــت ألســـن الخلـــق آمين

فصل

لما فرغ الشهيد من أخذ الرها واصلاح حالها والاستيلاء على ماوراءها من البلاد والولايات، سار إلى قلعة البيرة، وهي حصن حصين مطل على الفرات، وهو لجوسلين أيضا فحصره وضايقه فأتاه الخبر بقتل نائبه بالموصل والبلاد الشرقية نصير الدين جقر بن يعقوب، فرحل عنها خوفا من أن يحدث بعده في البلاد فتق يحتاج إلى المسير إليها، فلما رحل عنها سير اليها حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي صاحب ماردين عسكراً فسلمها الفرنج إليهم خوفا من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

وكان قتل النصير في ذي القعدة سنة تسع وثلاثين ، وسببه أن الملك ألب أرسلان المعروف بالخفاجي ولد السلطان مسعود، وأصحاب

الأطراف يرون أن البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالة فإنما يقول: قال الملك: كذا وكذا، وكان ينتظر وفاة الملك مسعود، ليجمع العساكر باسمه ويخرج الأموال ويطلب السلطنة فعاجلته المنية قبل ذلك، وكان هذا الملك بالموصل هذه السنة، وبها نصير الدين، وهو ينزل إليه كل يوم يخدمه ويقف عنده ساعة، ثم يعود ،فحسن المفسدون للملك قتله وقالوا له: إنك إن قتله ملكت الموصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك ولايجتمع معه فارسان عليك، فوقع هذا في نفسه، وظنه صحيحاً، فلما دخل نصير الدين إليه على عادته وثب عليه جماعة في خدمة الملك فقتلوه وألقوا رأسه إلى أصحابه ظنا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرّقوا ويملك الملك البلاد، وكان الأمر بخلاف ما ظنوا، فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لما رأوا رأسه قاتلوا من بالدار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة فلم يتغير عليه بهذا الفتق شيء، وكان من جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يحسن له الصعود إليها،وحينئذ يستقرّ له ملك البلد، فلما صعد القلعة سجنوه بها وقتل الغلمان الذين قتلوا النصير، وأرسلوا إلى أتابك يعرّفونه الحال فسكن جأشه، واطمأن قلبه وأرسل زين الدين علي ابن بكتكين والياً على قلعة الموصل، وكان كثير الثقة به والاعتماد عليه فسلك بالناس غيرالطريق التي سلكها النصير وسهل الأمر فاطمأن الناس، وأمنوا وازدادت البلاد معه عمارة، ولما رأى الشهيد صلاح أمر الموصل سار إلى حلب فجهز منها جيشا إلى قلعة شيزر، وبينها وبين حماه نحو أربعة فراسخ فحصرها.

قلت : كذا وقع في كتاب ابن الاثير، وقد وهم من قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ماذكره العماد

الكاتب في كتاب السلجوقية، فإنه قال: كان مع زنكي ملكان من أولاد السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه أحدهما يسمى ألب أرسلان، وهو في معقل من معاقل سنجار، والآخر يسمى فرخشاه ويعرف بالملك الخفاجي وهو بالموصل، وكان هذا الملك مسلما إلى الأمير دبيس بن صدقة، فانتزعه منه زنكي في حرب جرت، فكانت زوجة زنكي خاتون السكمانية تربيه حتى بلغ، وكان النصير يقبض عنانه ويبسط فيه لسانه ويقول: إن عقل وإلاّ عقلته، وإن ثقل طبعه وإلاّ ثقلته، فدبر في قتله مع أصحابه فقطعوه في دهليز داره لما دخل للسلام على الملك، ثم أصعد القاضي تاج الدين الملك إلى القلعة فلم ير له أثر والتقط مماليكه.

ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجه من معقله، وعنى بتفاصيل أمره وجمله وضرب له نوبتيه ونوبا، ورتب له في حالتي ركوبه وجلوسه رتباً، وأغرى بتولي إكرامه وتوخيه وغرضه خفاء ماجرى من هلاك أخيه، ثم ذكر قصة موت زنكي على قلعة جعبر كما سيأتي(٤٦)

وفي سنة أربعين وخمسمائة أرسل أتابك إلى زين الدين علي يأمره بارسال عسكر إلى حصن فنك يحصره ،فسير خلقاً كثيراً من الفرسان والرجالة فأقاموا عليه يحصرونه إلى أن أتاهم الخبر بقتل الشهيد أتابك، وهذا الحصن هو مجاور جزيرة ابن عمر، وهو للأكراد البشنوية، وله معهم مدة طويلة يقولون نحو ثلاثمائة سنة ،وهو من أمنع الحصون مطل على دجلة وله سرب إلى عين ماء لايمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت : وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرقة عماد الدين زنكي يهنيه بالعافية من مرض عرض له في يده ورجله قصيدة أوّلها:

يابدر لاأفل ولامحاق
ولايرم مشرقك الاشراق

بـالـديـن والـدنيـا الـذي يشكـو وهـل
يهتـز فـرع لم يقمـه سـاق

لـن تـورق القضـب ويجري مـاؤهـا
إلاّ إذا مـا التـاثـت الأعـراق

إنّ الـرعـايـا مـا سلمـت في حمى
للخطـب عـن طـروقـه إطـراق

غـرسـت بـالعـدل لهم خمائلا
تـرتـع في حـديقهـا الأحـداق

يـا هضبـة الـديـن التـي عـاذ بها
فعـاد لا بغتـا ولا ارهـاق

لـو لم تحطـه راحـلا وقـافـلا
أصبـح لا شـام ولا عـراق

عماد ديـن مـذ أقـام زيغـه
حيـى ومـات الشرك والنفـاق

يـا محيـي العـدل الـذي في ظلـه
تسربلـت زينتهـا الآفـاق

يفـديـك مـن لان مهـاد جبينـه
لما نبـا بجنبـك الاقـلاق

مـن يشـأ سيفـك أنبطـت لـه الـ
ـعذب ومـاء عيشـه زعـاق

تجرّع السـم ولـو لم تحمـه
بحـده لعـزه الـدريـاق

ملـوك أطـراف حمى أطـرافهـا
عـزمـك هـذا الـلاحـق السبـاق

لـو لم تـرق مـاء كـرى العين لما
سـاغـت بـأفـواههـم الاريـاق

شققـت مـن دونهم مـرج الـردا
وشـق أكبـادهـم الشقـاق

أقسم لو كلفتهم أن يسمعوا
حديث أيامك ما أطاقوا

لما اشتكيت دبّ في أهوائهم
توجس للسمع واستراق

تطاولوا لا عدمت أمالهم
قصراً ولا جانبها الاخفاق

توهموها غسقاً ثم انجلت
والصفو من مشربهم غساق

لئن ألمّ ألم بقدم
خد السها لنعلها طراق

أو كان مدّ يده إلى يد
يجري بها الآجال والأرزاق

فالنصل يعلى صدأ وتحته
حد الحسام وسنا رقراق

رمى الصليب بصليب الرأي عن
زوراء أوهى نزعها الاغراق

ونوم من خلف الخليج سهر
والعيش في فرنجة سياق

ماتوا فلا همس ولا اشارة
خوف هموس زاره ارهاق

لا سلبت منك الليالي ما كست
ولا عرت جدّتك الاخلاق

فصل

في وفاة زنكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جعبر قد سلمها السلطان ملكشاه إلى الأمير سالم بن مالك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلم تزل

بيده ويد أولاده إلى سنة احدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها وحصر فنك لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره، وإن قل، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينما هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله:

لاقى الحمام ولم أكن مستيقنا
أنّ الحمام سيبتلى بحمام

فأضحى وقد خانه الأمل وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للاسلام أفل، وأيّ ناصر للايمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غاب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة(٤٧) حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا، رهين جدث لاينفعه إلا ما قدم، فطويت صفحة عمله، فهو موثوق في صورة مستسلم، ثم دفن بصفين عند أصحاب عليّ أمير المؤمنين رضي الله عنه.(٤٨)

قلت: وذكر العماد الكاتب في كتاب السلجوقية قال: قصد زنكي حصار قلعة جعبر ، فنازلها وكان إذا نام ينام حوله عدّة من خدّامه الصباح، وهو يحبهم ويحبوهم ولكنهم مع الوفاء منه يجفوهم، وهم أبناء الفحول القروم من الترك والروم، وكان من دأبه أنه إذا نقم على كبير أرداه، وأقصاه، واستبقى ولده عنده وأخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران فشرع الخدّام في اللعب فزجرهم وزبرهم وتوعدهم، فخافوا من سطوته،

فلما نام ركبه كبيرهم واسمه يرنقش فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرس النوبة موهما أنه يمضي في مهم، وهو لايرتاب به لانه خاص زنكي، فأتى الخادم أهل القلعة فأخبرهم.وذكر الحديث(٤٩)

قلت: ثم نقل إلى الرقة فدفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الاثير: وكان حسن الصورة، مليح العينين، قد وخطه الشيب، طويلا وليس الطويل البائن، وخلف من الاولاد سيف الدين غازيا وهو الذي ولي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً، وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران، وبنتا فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والأناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب رحمه الله، فان أولاده الملوك لم يكن مثلهم،.

قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصاره قلعة جعبر جاء في الليل ابن حسان المنبجي، ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنتظر؟ فقال له صاحب القلعة : أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدّ حصار، ونصب عليه عدّة مجانيق ، وقال يوما لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق أي شيء تنتظر أما تسلم الحصن ؟ فقال له حسان: انتظر سهما من سهام الله، فلما كان في الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غرب وقع في لبته فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع، ولم يزرّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك،

فكان هذا من الاتفاقات العجيبة والعبر الغـريبة ، ذكر ذلك يحيى بن أبي طيّ في كتاب السيرة الصلاحية.

فصل

في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانـت من أحسـن سير الملوك، وكانـت رعيته في أمـن شامـل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابـن الاثير: حدثنـي والدي قـال: قدم الشهيـد إلينا بجـزيرة ابـن عمر في بعض السنين، وكـان زمن الشتاء فنزل بالقلعـة، ونزل العسكر في الخيام وكان في جملـة أمرائه الأمير عز الديـن أبو بكر الدبيسي، وهـو من أكابـر أمرائه ومـن ذوي الرأي عنـده، فدخـل الدبيسي البلـد ونزل بـدار إنسان يهودي وأخرجـه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشهيـد، وهو راكب فسأل عن حالـه فأخبر به، وكان الشهيد واقفاً والـدبيسي إلى جانبه ليس فـوقه أحـد فلما سمـع أتابـك الخبر نظـر إلى الـدبيسي نظر مغضـب، ولم يكلمه كلمـة واحدة فتـأخر القهقـرى ودخل البلـد وأخرج خيـامه وأمـر بنصبهـا خارج البلـد، ولم تكن الأرض تحتمـل وضع الخيـام عليها لكثـرة الوحـل والطين، قال: فلقـد رأيت الفـرّاشين وهم ينقلـون الطين لينصبوا خيمتـه فلما رأوا كثرتـه جعلوا على الأرض تبنـا ليقيموهـا، ونصبوا الخيـام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتنـاء الأملاك ويقول مهما كانت البلاد لنـا فأي حـاجـة لكـم إلى الأملاك، فـان الاقطـاعـات تغني عنهـا، وإن خـرجت البـلاد عن أيـدينـا فإن الأمـلاك تـذهب معهـا، ومتى صـارت

الأمـلاك لأصحاب السلطـان ظلموا الـرعيـة وتعدّوا عليهـم وغصبوهـم أمـلاكهم، ثـم ذكر مـا تجدّد في أيامـه من عمارة البـلاد لاسيما بالموصـل، وذلك لحسـن سيرته، فكـان يقصده النـاس ويتخذون بـلاده دار إقامـة، وهو الـذي أمر ببنـاء دار المملكة بـالموصل، ولم يكـن بها للسلطان غير الدار المعروفة بـدار الملك مقابل الميدان، ثم رفع سورهـا، وعمق خندقها، وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب.

قال: وكـانت الموصل أقل بـلاد اللّه فاكهـة، وكان الذي يبيع الفـواكه يكون عنـده مقراض يقص به العنـب لقلته إذا أراد أن يزنـه، فلما عمرت البلاد عملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها.

قال: ومـن أحسن آرائه أنه كـان شديد العنايـة بأخبار الاطـراف، وما يجري لأصحـابها حتى في خلـواتهم، لاسيما دركاه السلطـان، وكان يغـرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره مـن حرب وسلم وهزل وجـد وغير ذلك، فكان يصـل إليه كل يوم مـن عيونه عدّة قـاصدين، وكان مـع اشتغاله بالأمـور الكبار من أمـور الـدولـة لايهمـل الاطـلاع على الصغير، وكـان يقـول :إذا لم يعـرف الصغير ليمنع صار كبيرا.

وكـان لايمكن رسـول ملـك يعبر في بـلاده بغير أمره، وإذا استـأذنـه رسول في العبـور في بلاده أذن له وأرسـل إليه من يسيره، ولايتركـه يجتمع بأحـد من الـرعية ولاغيرهـم، فكـان الرسول يـدخل بـلاده ويخرج منها ولم يعلم من أحوالها شيئا.

وكـان يتعهد أصحـابه ويمتحنهـم : سلـم يومـا خشكنانكـة(٥٠)إلى طشت دار لـه، وقال: احفظ هـذه فبقي نحـو سنة لايفارق الخشكنـانكة خـوفاً أن يطلبهـا منـه، فلما كان بعـد ذلـك قال لـه: أيـن الخشكنانكـة،

فأخرجها في منـديل وقدّمها بين يديه، فاستحسن ذلـك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكـون مستحفظا لحصن، وأمر لـه بدزداريه قلعة كـواشي، فبقي فيها إلى أن قتل أتابك، وكان لايمكن أحداً مـن خدمه من مفارقة بلاده، ويقـول: إن البـلاد كبستان عليـه سيـاج فمـن هو خـارج السيـاج يهاب الدخول، فإذا خـرج منها من يدلّ على عورتها ويطمع العـدوّ فيها زالت الهيبة، وتطرّق الخصوم إليها.

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سير طـائفة من التركمان الايوانية مع الأمير اليارق إلى الشـام ، وأسكنهم بولاية حلـب، وأمرهم بجهاد الفـرنج وملكهـم كلما استنقذوه مـن البلاد التـي للفـرنج وجعلـه ملكالهم، فكانـوا يغادون الفرنج القتال ويراوحـونهم، وأخذوا كثيرا من السواد، وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قـال: ومـن آرائه أنـه لما اجتمـع لـه الأمـوال الكثيرة أودع بعضهـا بالموصل، وبعضها بسنجار، وبعضهـا بحلب، وقال: إن جرى على بعض هذه الجهات خرق أو حيل بينـي وبينه استعنت على سدّ الخرق بالمال في غيره .

قال: وأمـا شجاعتـه وإقدامه فـإليه النهايـة فيهما، وبه كـانت تضرب الأمثـال، ويكفـي في معـرفـة ذلـك جملـة أن ولايتـه أحـدق بها الأعـداء والمنـازعـون مـن كـل جـانـب: الخليفـة المسترشـد والسلطـان مسعـود وأصحـاب أرمينيـة وأعمالها، بيـت سكمان وركن الـدولـة داود صـاحـب حصـن كيفا، وابـن عمـه صاحـب ماردين، ثـم الفرنـج، ثـم صاحـب دمشـق، وكـان ينتصف منهـم ، ويغـزو كـلا منهم في عقـر داره، ويفتـح بلادهم ماعـدا السلطان مسعود فإنه كان لايباشر قصـده، بل كان يحمل أصحـاب الأطراف على الخروج عليـه، فإذا فعلـوا عاد السلطـان محتاجـاً

إليـه، وطلب منـه أن يجمعهم على طـاعته، فيصير كـالحاكم على الجميـع وكل يداريه ويخضع له ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده.

قـال: وأمّـا غيرته فكـانـت شـديـدة، ولاسيما على نساء الأجنـاد فـإن التعرّض إليهن كـان من الذنوب التـي لايغفرها، وكان يقـول: إن جندي لايفـارقوني في أسفـاري، وقلمايقيمون عنـدأهلهـم، فإن نحـن لم نمنع مـن التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن.

قلت:وفي صحيح مسلـم من حديث أبي سعيد الخدري وذكـر حديث رجم النبـي صلى الله عليـه وسلم ماعـزا، قال: ثـم قام رسـول الله صلى الله عليـه وسلم خطيباً قال:« أو كلما انطلقنـا في سبيل الله خلـف رجل في عيالنـا له نبيـب كنبيب التيـس على أن لا اؤتى بـرجل فعـل ذلك إلا نكلت به»(٥١).

قال ابـن الاثير: وكان قد أقـام بقلعة الجزيـرة دزداراً اسمه نور الـدين حسن البربطـي، وكان من خوّاصـه وأقرب الناس إليه، وكـان غير مرضي السيرة، فبلغـه عنـه أنه يتعـرّض للحـرم، فـأمـر حـاجبه صـلاح الـديـن الياغيساني أن يسير مجدّا ويدخل الجزيرة فـإذا دخلها أخذ البربطي وقطع عينيه عقـوبة لنظـره بهما إلى الحريم ثـم يصلبه، فسـار الصلاح مجداً فلـم يشعر البربطـي إلاّ وقد وصل إلى البلـد فخرج إلى لقـائه، فأكرمـه ودخل معه البلد وقال: المولى أتـابك يسلم عليك ، ويريد أن يعلي قـدرك ويرفع منزلتـك ويسلم إليـك قلعة حلب ويـوليك جميع البـلاد الشاميـة لتكون هناك مثل نصير الـدين، فتجهز وتحدّر مالـك في الماء إلى الموصل، وتسير إلى خدمته، ففـرح ذلك المسكين، فلم يترك له قليـلاً ولاكثيراً إلا نقله إلى السفن ليحـدرها إلى الموصـل في دجلة، فحين فرغ مـن جميع ذلـك أخذه الصلاح وأمضى فيـه ما أمربه، وأخذ جميـع ما له فلم يتجـاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

قال: وإما صدقاته، فقد كان يتصدق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته، وودّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ماذنبك؟ وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله فضحك منه، وقال له: خذ هذه الصرة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد ، فقال: اللّه اللّه في دمي ونفسي، فقال: لابأس عليك فإنه ماأراد غير هذه الصرّة فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم فأمره أن يتصدّق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة ؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليّ من يأخذه من الليل وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أن دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليّ فعلمت أنه ذكر الصدقة.

قال : وحكى لي من شدّة هيبته ما هو أشد من هذا، قال والدي: خرج يوما الشهيد من القلعة بالجزيرة من باب السر خلوه، وملاح له نائم فأيقظه بعض الجاندارية، وقال له: اقعد فحين رأى الشهيد سقط إلى الارض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

قال: وكان الشهيد قليل التلوّن والتنقل بطيء الملل والتغير شديد العزم لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قتل إلاّ بذنب يوجب التغير، والأمراء والمقدمون الذين كانوا معه أولا هم الذين بقوا أخيرا من سلم منهم من الموت، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الانسان إذا قدم عسكره لم يكن غريبا إن كان جنديا اشتمل

عليه الاجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالما قصد القضاة بني الشهرزوري فيحسنون إليه ويؤنسون غربته، فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العالية والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

قلت: وما أحسن ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذرا ملك هو الدهـ
ـر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيـ
ـث سحا وانسكابا
فاتح في وجه كل
أمّة للنصر بابا
ترجف الدنيا إذا حر
ك للسير الركابا
وتخر المشمخرّا
ت اختلالا واضطرابا
وترى الاعداء من
هيبته تأوي الشعابا
وإذا ما لفحتهم نا
ره صاروا كبابا
يا عماد الدين لازلـ
ـت على الدين سحابا
جاعلا من دونه
سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء في الامـ
ـن الذي طبت وطابا
وأصف عيشا إنّ أعـ
ـداءك قد صاروا ترابا

وقال العماد الكاتب: استولى زنكي على الشام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين ،وهو الذي فتح الرها عنوة، واحتلّ بها من السعادة ذروة، فتسنى بفتح الرها للمسلمين جوس بلاد جوسلين وعاد جميعها إلى الاسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقود الفرنج، من ذلك الحين تنفسخ وأمورها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلها تفترع.

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت والمسالك، قد اختلت بعد الهيبة المشهورة والامنة المشكورة، وانطلقت أيدى التركمان والحرامية في فساد الأطراف، والعيث في سائر النواحي والأكناف، ونظمت في صفة هذه الحال أبيات من قصيدة:

كذاك عماد الدين زنكي تنافرت
سعادته عنه وخرت دعائمه

وكم بيت مال من نضار وجوهر
وأنواع ديباج حوتها مخاتمه

وأضحت بأعلى كل حصن مصونة
يحامي عليها جنده وخوادمه

ومن صافنات الخيل كل مطهم
يروع الأعادي حليه وبراجمه

فلو رامت الكتاب وصف شياتها
بأقلامها ما أدرك الوصف ناظمه

وكم معقل قد رامه بسيوفه
وشامخ حصن لم تفته غنائمه

وكانت ولاة الأرض فيها لأمره
وقد أمنتهم كتبه وخواتمه

وأمن من في كل قطر لهيبة
يراع بها أعرابه وأعاجمه

وظالم قوم حين يذكر عدله
فقد زال عنهم ظلمه وخصائمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه
وليس له فيها نظير يزاحمه
وزاد على الاملاك بأسا وسطوة
ولم يبق في الأملاك ملك يقاومه
فلما تناهى ملكه وجلاله
وراعت ولاة الارض منه لوائمه
أتاه قضاء لا تردّ سهامه
فلم تنجه أمواله ومغانمه
وأدركه للحين فيها حمامه
وحامت عليه بالمنون حوائمه
وأضحى على ظهر الفراش مجدّلا
صريعا تولى ذبحه فيه خادمه
وقد كان في الجيش اللهام مبيته
ومن حوله أبطاله وصوارمه
وسمر العوالي حوله بأكفهم
تذود الردى عنه وقد نام نائمه
ومن دون هذا عصبة قد ترتبت
بأسهمها يردى من الطير حائمه
وكم رام في الأيام راحة سرّه
وهمته تعلو وتقوى شكائمه
وكم مسلك للسفر آمن سبله
ومسرح حيّ لن تراع سوائمه
وكم ثغر اسلام حواه بسيفه
من الروم لما أدركته مراحمه
فمن ذا الذي يأتي بهيبة مثله
وينفذ في أقصى البلاد مراسمه

فلـــو رقيـــت في كـــل مصر بـــذكـــره
أراقمــــه ذلـــت هنـــاك أراقمــــه
فمـن ذا الـذي ينجـو مـن الـدهـر سـالما
إذا مـــا أتـــاه الأمـــر واللّـــه حـــاتمه
ومـــن رام صفـــواً في الحيـــاة فما يـــرى
لـــه صفـــو عيـــش والحمام يحاومــــه
فـــإيـــاك لا تغبـــط مليكـــاً بملكـــه
ودعـــه فـــإنّ الـــدهـــر لا شـــك قـــاصمــه
وقـــل للـــذي يبنـــي الحصـــون لحفظـــه
رويـــدك مـــا تبنـــي فـدهـــرك هـــادمــه
وفي مثـــل هـــذا عبرة ومـــواعـــظ
بها يتنـــاســـى المرء مـــا هـــو عـــازمــه

قـال: وفي ثامـن عشر جمادى الآخرة مـن السنة وصـل الخادم يرنقـش القاتـل لعماد الدين زنكـي وانفصل مـن قلعة جعبر لخوف صاحبهـا من طلبه، فـوصل دمشق ميقنـا أنه قد أمـن بها، ومدلاً بما فعله وظنـاً منه أن الحال على ما توهمه فقبـض عليه، وأنفذ إلى حلب في صحبـة من حفظه وأوصله، فأقام بها أياما، ثم حمل إلى الموصل وذكر أنه قتل بها .

قلـت : وللحكيم أبي الحكـم المغـربي قصيـدة في مرثيـه الشهيـد عماد الدين زنكي رحمه اللّه منها:

عين لا تـــذخـــري المدامـــع وابكـــي
واستهلي دمـــا على فقـــد زنكـــي
لم يهب شخصـــه الـــردى بعـــد أن كـــا
نـــت لـــه هيبـــة على كـــل تـــركـــي
خير ملـــك ذي هيبـــة وبهاء
وعظيـــم بين الانـــام بـــزرك(٥٢)
يهب المال والجيـــاد لمن يمـــ
ـــمه مـــادحـــا بغير تلكـــي

إن داراً تمدّنـــا بــــالــــرزايـــا
هـــي عنـــدي أحـــق دار بترك
فـــاسكبـــوا فـــوق قبره مـــاء ورد
وانضحـــوه بـــزعفـــران ومســـك
أيّ فتـــك جـــرى لـــه في الاعـــادي
بعـــد مـــا استفتـــح الـــرهـــا أيّ فتـــك
كـــل خطـــب أتـــت بـــه نـــوب الـــدهـــ
ـــر يسير في جنـــب مصرع زنكـــي
بعـــد مـــا كـــاد أن تـــديـــن لـــه الـــرو
م ويحوي البـــلاد مـــن غير شـــك

فصل
فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرّق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى : توجه الملك ولد السلطان المقيم كان معه فيمن صحبه، وانضم إليه إلى ناحية الموصل ، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل على كوجك أياما إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده واستقام له الأمر ، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين.- يعني- محمد بن أيوب الياغيساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي، وحصل بها وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر وسكنت الدهماء.

وفصل عنه الأمير صلاح الدين ، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمر يدبر عليه.

وقال الحافظ أبو القاسم : لما راهق نور الدين لزم خدمة والده إلى أن انتهت مدّته على قلعة جعبر.و سير في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان ابن السلطان مسعود إلى الموصل مع جماعة من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى الموصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرّر أمور الشام وأتوجه إليكم، ثم قصد حلب ودخل قلعتها يوم الاثنين سابع ربيع الآخر ورتب النواب في القلعة والمدينة.

قال ابن أبي طي الحلبي: لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين، وقال له: إعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل، وعوّل على تقديم أخيك سيف الدين

وقصـده إلى الموصل وقـد انضوى اليـه جلّ العسكـر، وقد أنفـذ إليّ جمال الديـن وأرادني على اللحاق به فلـم أعرج عليه وقـد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلهـا كرسي ملكـك، وتجتمع في خـدمتك عسـاكر الشـام، وأنا أعلم أنّ الأمـر يصير جميعه إليـك لأن ملك الشـام يحصل بحلـب، ومن ملك حلب استظهـر على بلاد الشرق، فركب وأمـر أن ينادي في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا، وسـاروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوهـا سابع ربيع الأوّل، ولما دخلـوا حلب جاء أسد الـدين إلى تحت القلعة ونـادى واليها، وأصعد نـور الدين إليها وقـرّر أمره ومشىّ أحـواله، فكان نـور الديـن يرى له ذلـك، وأسد الـدين يمن بـأنه كـان السبب في توليته.

وقال ابـن الأثير: لما قتل أتابك الشهيـد ركب الملك ألب أرسـلان ابن السلطان مسعـود، وكان مع الشهيد واجتمعـت العساكر عليه وخـدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصـلاح يقول له المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنـا ونسلك طريقا نبقـي به الملك في أولاد صاحبنـا،ونعمر بيته جزاء لإحسانـه إلينا، فإن الملك قد طمع في البـلاد، واجتمعت عليه العسـاكر، وحلـف كـل واحد منهما لصـاحبـه، فـركب الجمال إلى الملـك فخدمه وضمن لـه فتح البلاد وأطمعه فيها ومعه الصـلاح وقالا له: إن أتابـك كان نائباً عنـك في البلاد وباسمـك كنا نطيعه، فقبل قـولهما وظنه حقا، وقـرّ بهما طمعا أن يكـونا عونـاً له على تحصيـل غرضـه، وأرسلا إلى زين الديـن بالموصل يعرّفـانه قتل الشهيد، ويـأمرانه بالإرسـال إلى سيف الديـن غازي وهـو ولد عماد الديـن زنكي الأكبر وإحضـاره إلى الموصل، وكان بشهر زور وهي إقطاعه من أبيه، ففعـل زين الدين ذلك، وكان نور الدين محمـود بن الشهيد قد سـار لما قتل والده إلى حلب فملكهـا وذلك باشارة أسد الدين شيركوه عليه بذلك.

وقال الجمال للملك: إنّ مـن الرأي أن تسير الصلاح إلى مملوكـك نور

الدين بحلب يـدبر أمره، وكانت حماه إقطاع الصلاح فـأمره ، فسار وبقي الجمال وحـده مع الملـك فـأخـذه وقصد الـرقـة، فـاشتغل بشرب الخمـر والخلوة بـالنساء، وأراد أن يعطـي الأمراء شيئـا فمنعه خـوفا مـن أن تميل قلـوبهم إليـه، وقـاد لهم الاقطـاع الجزيـل والنعـم الـوافـرة، وشرع الجمال يستميل العسكر ويحلـف الأمراء لسيف الديـن بن أتابك الشهيـد واحداً بعد واحـد،وكل مـن حلف يأمـره بالمسير إلى الموصل هـاربا مـن الملك، وأقام بـالملك في الرقـة عدّة أيام، ثـم سار بـه نحو سنجار، وكـان سيف الـدين غـازي قد دخـل الموصـل واستقرّ بها، فقـوي حينئذ جنـان جمال الـديـن ، ووصل هـو والملـك إلى سنجـار،فـأرسـل إلى دزدارها وقـال لـه لاتسلم البلد ولا تمكـن أحداً من دخولـه، ولكن أرسل إلى الملك وقـل له إنا تبع الموصـل فمتى دخلت الموصل سلمت إليك ففعـل الدزدار ذلك، فقال الجمال للملك: المصلحـة أننا نسير إلى الموصل فإن مملـوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبض عليه ونتسلم البلاد، فساروا عـن سنجار وكثـر رحيل العسكر إلى الموصـل هاربين مـن الملك فبقي في قلـة من العسكر، فسـاروا إلى مدينـة بلد، وعبر الملك دجلـة من هناك، فلما عبرها دخـل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الديـن أبا بكر الدبيسي إلى الملك في عسكـر وهو في نفر يسير فأخـذه وأدخله الموصل ، فكان آخر العهد به.

واستقر أمر سيف الـدين وأقر زين الدين على ما كـان عليه من ولاية الموصل ، وجعل الجمال وزيـره، وأرسلوا إلى السلطان مسعود فـاستحلفوه لسيف الـدين فحلـف له وأقـره على البلاد وأرسـل له الخلـع، وكان هـذا سيف الديـن قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيـام أبيه سفرا وحضرا وكـان السلطان يحبـه كثيراً ويـأنس بـه ويبسطـه، فلما خوطـب في اليمين وتقرير البلاد له لم يتوقف.

قال ابـن الاثير:فانظـروا إلى جمال الديـن وحسن عهـده وكمال مروءتـه

ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقام الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس ، ولقد قلل من قال : الناس ألف منهم كواحد، وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين.

قال: ولما استقر سيف الدين في الملك أطاعه جميع البلاد ماعدا ما كان بديار بكر كالمعدن وحيزان وأسعرد، وغير ذلك فان المجاورين لها تغلبوا عليها.

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد، عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئا أجابه إليه استمالة لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج المعسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمسمائة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه ، فحين رآه عرفه فترجل له وقبل الأرض بين يديه وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا، وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لم امتنعت من المجيء إليّ أكنت تخافني على نفسك والله ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيش وبمن اعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده، وقال لاغرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه، فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيـــا خير الملــــوك أبـــا وجـــدّا
وأنفعهـــم حيـــا الغليـــل صـــاد

علـــوا وغلـــوا وقـــال النـــاس فيهـــم
شـــوارد مـــن ثنـــاء أو أحـــاد

ومـــا اقتسمـــوا ولا عمـــدوا بنـــاهـــم
بمنصبـــك القسيمـــي العمادي

وهـــل حلـــب سـوى نفـــس شعـــاع
تقسمهـــا التمادي والتعـــادي

نفـــى ابـــن عماد الـــديـــن عنهـــا الـــ
شكـــاة فـــأصبحـــت ذات العماد

تبختر في كســـاء عـــدل وبـــذل
مـــدبجـــة التهـــائم والنجـــاد

وفي محرابها داود منـــــــه
يهذب حكمـــة آيـــات صـــاد

تجاوزت النجـــوم فـــأيـــن تبغـــي
تـــرق فـــلا خلـــوت مـــن ازديـــاد

فصل
فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والأفرنج المخذولين

قال ابن طي:في سابع يوم من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند، فخرج في يومه بعساكر أنطاكيةوقسم عسكره قسمين قسماً أنفذه إلى جهة حماه، وقسما أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها، وكان الناس آمنين، فقتل وسبى عالما عظيما وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها، ووصل الخبر إلى حلب فخرج أسد الدين شيركوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدّ في السير ففاته الفرنج، وأدرك جماعة من الرجالة يسوقون الأسرى فقتلهم واستنقذ كثيراً مما كانت الفرنج أخذته، وسار مجنبا عن طريق الفرنج إلى أن شن الغارة على بلد ارتاح، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه ، وعاد إلى حلب مظفراً.

وقال ابن الاثير : لما قتل الشهيد سار مجير الدين صاحب دمشق في عسكر إلى بعلبك ،وحاصرهم وبها نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين، فسلمها إليه وأخذ منه مالاً وملكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها.

وقال ابن أبي طي: اشتدّ صاحب دمشق في القتال، وصبر نجم الدين أيوب أحسن صبر ،فاتفق أن الماء لما شاء الله من حصن بعلبك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدّ الأمر فطلبوا الامان والمصالحة، فاستحلف صاحب دمشق نجم الدين وأقر له الثلث الذي كان أتابك قد جعله له فيها وأقره فيها، ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يفسد عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق بحصول نجم الدين عنده،

ومال نور الـدين إلى مجد الدين أبى بكـر بن الدايه حتـى ولاه جميع أموره وجميع مملكته، فشق ذلك على أسد الدين.

قال الـرئيس أبـو يعلى: لما اتصل خبر موت زنكـي بمعين الديـن أنر شرع في التأهـب والاستعداد لقصـد بعلبك، وانتهاز الفـرصة فيهـا بآلات الحرب والمنجنيقات، فنزل عليها وضايقهـا ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيهـا قلة دعتهم إلى النـزول على حكمه، وكان الـوالي بها ذا حزم وعقل ومعـرفة بـالأمور ، فـاشترط ما قـام له بـه من اقطـاع وغيره، وسلم البلاد والقلعـة إليه، ووفى له بما قـرر الأمر عليه، وتسلـم ما فيه مـن غلة وآلـة في أيام مـن جمادى الأولى مـن السنة، وراسـل معين الـدين الـوالي بحمـص وتقررت بينـه وبينه مهـادنة ومـوادعة تعـودان بصلاح الأحـوال وعمارة الأعمال، ووقعت مراسلـة فيما بينه وبين صلاح الديـن بحماه وتقرر بينهما مثل ذلـك، ثم انكفأ بعـد ذلك إلى البلد عقيـب فراغه مـن بعلبك وترتيب من رتبه لحفظها والاقامة فيها.

قـال: ووردت الأخبـار في أيـام مـن جمادى الآخـرة مـن السنــة بـأن جوسلين جمع الأفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة من النصـارى المقيمين فيها فـدخلها واستـولى عليها وقتـل من فيهـا من المسلمين، فنهض نور الدين صاحـب حلب في عسكره ومن انضاف إليه مـن التركمان وغيرهـم،في زهـاء عشرة الآف فـارس ووقفـت الـدواب في الطرقات من شدّة السير، ووافوا البلد وقـد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه فهجموا عليهم، ووقـع السيف فيهم، وقتل من أرمن الـرها والنصارى من قتـل ، وانهزم إلى برج يقال له بـرج الماء فحصل فيه ابـن جولسين في تقدير عشرين فارسا من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون وشرعوا في النقـب عليهم حتى تعـرقب البرج فـانهزم ابـن جـولسين في الخفية مـن أصحابه وأخذ الباقون، ومحق بالسيف كـل من ظفر به من نصارى الرها، واستخلـص من كـان فيه أسيرا مـن المسلمين ونهب منها شيء كثير مـن

المال والاثـاث والسبـي، وانكفـأ المسلمـون بـالغنـائم إلى حلـب وسـائر الأطراف.

وقـال ابن الاثير: لما قتـل زنكـي كان جـوسلين الفـرنجـي الذي كـان صاحـب الرها في ولايته غـرب الفرات في تل بـاشر وما جاورها، فـراسل أهل الـرها، وكـان عامتهم مـن الأرمن ،وواعـدهم يومـاً يصل إليهـم فيه فأجـابوه إلى ذلك، فسار في عسكـره إليها وملكها، وامتنعت عليـه القلعة بمن فيهـا من المسلمين فقاتلهـم وجدّ في قتـالهم،فبلغ الخبر نور الـدين، وهـو يومئـذ بحلـب فسـار إليها بعسكـره، فهـرب جـوسلين ودخل نـور الديـن مدينة الـرها ونهبها وسبـى أهلها.وفي هذه الـدفعة نهبت وخـربت وخلت مـن أهلها، ولم يبـق منهم بها إلاّ القليـل، ووصل خبر الفـرنج إلى سيف الـدين غازي بـالموصل، فجهز العسـاكر إلى الـرها، فوصلـت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

قـال: ومن عجيـب ما جـرى أن نور الـديـن أرسل مـن غنائمهـا إلى الأمراء، وأرسـل إلى زين الـدين علي جملـة من الجواري فحملـن إلى داره، ودخل لينظر اليهـنّ ، فخرج وقد اغتسل، وهو يضحك فسئـل عن ذلك فقال: لما فتحنـا الرها مـع الشهيدكان في جملـة ما غنمـت جارية مـالت نفسي إليها، فعـزمت على أن أبيـت معها، فسمعـت منادي الشهيـد وهو يأمـر باعـادة السبي والغنـائم، وكان مهيبـاً مخوفا، فلـم أجسر على اتيانها وأطلقتها، فلما كـان الآن أرسل إليّ نـور الدين سهمـي من الغنيمـة، وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العود.

قلت: للقيسراني قصيدة يمدح بها جمال الديـن وزير الموصل ذكر فيها فتح الرها أوّلها:

أمـــا آن أن يـــزهـــق البـــاطـــل
وأن يـنجـــز العـــدّة المـاطـــل

إلى كـــم يغـــب ملـــوك الضـــلال
سيـــف بـــاعنـــاقهـــاكـــافـــل
فـــلا تحفلـــن بصـــوت الـــذئا
ب وقـــدزأر الاســـد البـــاســـل
وهـــل يمنـــع الـــديـــن الافتـــى
يصـــول انتقـــامـــا فيستـــاصـــل
أبـــا جعفـــر أشرقـــت دولـــة
أضـــاء لها بـــدرك الكـــامـــل
فـــامـــا نصبـــت لـــرفـــع اسمهـــا
فـــانكما الفعـــل والفـــاعـــل
ليهنـــك مـــا افـــرج النصر عنـــ
ـــه ومـــا نـــالـــه الملك العـــادل
فقـــل للحقـــاق الطـــريـــق الطـــريـــ
ـــق فقـــد دلـــف المقـــرم البـــازل
وجـــاهـــد في اللـــه حـــق الجهـــا
د محتســـب بـــالعلى قـــافـــل
وهـــل يمنـــع الســـور مـــن طـــالـــع
يشـــايعـــه القـــدر النـــازل
فـــان يـــك فتـــح الـــرهـــا لجة
فســـاحلهـــا القـــدس والســـاحـــل
فهـــل علمـــت علـــم تلـــك الـــديـــا
ر أن المقيـــم بها راحـــل
أرى القمـــص يـــأمـــل فـــوت الـــرمـــا
ح ولا بـــد أن يضرب الشـــائل
يقـــوي معـــاقلـــه جـــاهـــدا
وهـــل عـــاقـــل بعـــدهـــا عـــاقـــل
وكيـــف بضبـــط بـــواقـــي الجهـــا
ت لمن فـــات حسبتـــه الحاصـــل

ولابن منير من قصيدة في نور الدين:

ملك ما أذل بالفتح أرضا
قط إلا أعزها اغلاقه

والوها في الرها أزجى إليها
عارضا شيب الدجى ابراقه

جأرت جأرة إليه فحلّ
عطلا من اعناقها اعناقه

تلك بكر الفتوح فالشام منها
شامه والعراق بعد عراقه

أين كان الملوك عن وجهها الطلـ
ـق يرينا اضاءة اطلاقه

سنة سنها أبوه بكلب الرو
م لما أظله ارهاقه

خافقا قلبه إلى أمل عا
جله دون نيله إخفاقه

قسمت راية المواضي القسيميـ
ـات وابتز من لهاه عراقه

وكذا أنت يا ابنه ما عدا من
خلقه فيك خصله خلاقه

وكفى البحر أنه ابن سحاب
ما ونى سحه ولا اصعاقه

لم يمست من سددت ثلمته يا
من على الدين كظه اشفاقه

كلما طن ذكرها منه في السمـ
ـع تكافا النافقاء نفاقه

وجهاد عن حوزة الدين لم يأ
ل له ركضه ولا انفاقه

وله فيه من قصيدة أخرى:

بنـــور الـــديـــن روض كـــل محل
مـــن الـــدنيـــا وجـــدّد كـــل بـــال
أقـــام على ثنيـــة كـــل خـــوف
سهـــادا بـــات يكـــلأ كـــل كـــال
وصـــوّب عـــدلـــه في كـــل أوب
فعـــوّض عـــاطـــلا منـــه بحـــال
ينكـــس رأيـــه رأي المحـــامـــي
ويقتـــل خـــوفـــه قبـــل القتـــال
لقـــد أحصـــدت لـــلاســـلام عـــزا
يفـــوت سنـــامـــه يـــد كـــل قـــال
وأصبحـــت العـــواصـــم ملحفـــات
عصـــامـــا غير منتكـــث الحبـــال

فصل

وقفت على توقيع كتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصر يومئذ وهو الملقب بالحافظ وعليه علامته ونصه:

الحمد للّه رب العالمين

إلى القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن بن الحسين البيساني، وهو والد القاضي الفاضل، وكان يومئذ متولي القضاء والحكم بمدينة عسقلان.

قد انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوما من أهل ثغر عسقلان حماه اللّه قد صاروا يؤدون توقيعات بقبول أقوالهم من غير تزكية من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مع كونهم غيرمستوجبين لشهادة، ولامستحقين لسماع القول، فأنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لايسمع قول شاهد، ولايتقدّم لخطابة ولا لصلاة بالناس ولا لتلاوة في

موضع شريف إلاّ من زكاه أعيان شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان وعدّ ثمانية أنفس :عبد الساتر بن عبد الرحمن، عبد العزير بن مفضل، علي بن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت : وهذا أحسن ما يؤرخ عن إمام تلك الدولة المباينة للشريعة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقال الرئيس أبويعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين ترددت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أنر إلى أن استقرت الحال بينهما على أجمل صفة وأحسن قضية، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين، وتأكدت الأمور على ما اقترح كل منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شوال، وشرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجهت الرسل عائدة إلى حلب في صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواص الأصحاب في النصف من ذي القعدة.

قال: وتوجه معين الدين إلى ناحية صرخد وبصرى بالخيل والرجل وآلات الحرب، ونزل على صرخد وبها المعروف بألتونتاش غلام أمين الدولة كمشتكين الأتابكي الذي كان واليها أولا.

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الامينية قبلي الجامع بدمشق، قال: وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أنه يقاوم من يكون مستوليا على دمشق، وأن الأفرنج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صرخد إلى ناحية الفرنج للاستنصار بهم، وتقرير أحوال الفساد معهم فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين، وراسل نور الدين في انجاده على الكفرة، فأجابه وكان مبرزاً بظاهر حلب في عسكره فثنى إليه

الأعنة وأجدّ المسير، فوصل إلى دمشق في التاسع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياما يسيرة .

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة

فتوجه نور الدين نحو صرخد، ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته وعدته ووفور عدته، واجتمع العسكران، وأرسل من بصرخد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياما، وتسلم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الأفرنج لترحيلهم، وقضى الله تعالى وصول من أخبر بتجمع الفرنج واحتشادهم ونهوضهم في فارسهم وراجلهم مجدين السير إلى ناحية بصرى، وعليها فرقة وافرة من العسكر محاصرة لها، فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بصرى فسبقوا الفرنج إليها فحالوا بينهم وبينها، ووقعت العين على العين فانهزم الكفار وولوا الأدبار، وتسلم معين الدين بصرى، وعاد إلى صرخد فتسلمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السابع والعشرين من المحرم.

وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش الذي خرج من صرخد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان ولاتقرير واستئذان توهما منه أنه يكرم ويصطنع بعد الاساءة القبيحة والارتداد عن الاسلام، فاعتقل في الحال وطالبه أخوه خطلخ بما جناه عليه من سمل عينيه، وعقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القصاص فسمل كما سمل أخاه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها.

قلت :وقد ذكر ابن منير وقعة بصرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدم بعضها منها:

أي شأن أدركت يا نور دين الـ
ـله أعيى على الملوك لحاقه

نطـــق الحاســـدون بـــالعجـــز عـــن ملـــ
ـــــك محلى بـــــالنيرات نطـــــاقـــــه
غـــض أبصـــارهـــم لحاق جـــواد
ليـــس إلا إلى المعـــالي سبـــاقـــه
ســـل بصيرا كـــم أعتقـــت يـــوم بصرى
مـــن أســـارى الموت الـــزؤام عتـــاقـــه
كـــم عـــرام على العـــريمـــة شبـــت
ضـــاق منـــه على الصليـــب خنـــاقـــه
ولكـــم هبـــوة بهاب واختيـــ
ـــهالها صكـــت الأســـارى ربـــاقـــه
بســـط الـــذل فـــوق بسطـــة بـــاســـو
طـــا ولكـــن طـــواه عنـــه ارتفـــاقـــه

وفي هذه السنة ولد ببعلبك الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتح زنكي الرها.

قال أبويعلى : وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيع الأوّل توفى الفقيه شيخ الاسلام أبو الفتح نصر اللّه بن محمد بن عبد القوي المصيصي بدمشق، كان بقية الائمة الفقهاء المفتين على مذهب الامام الشافعي، ولم يخلف بعده مثله.

وقال : وفي جمادى الآخرة تقرّرت ولاية حصن صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن مامين على مبلغ من المال والغلة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهل تلك الناحية لما هو عليه من حب الخير والصلاح والتدين والعفاف.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوّال وهو مستهل نيسان أظلم الجوّ ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغدوة بين العشائين، وبقيت السماء في عين

الناظرين إليها كصفرة الورس، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة وكل ما ينظر إليه من حيوان وجماد ونبات، ثم جاء في أثر ذلك من الرعد القاصف والبرق الخاطف والهدّات المزعجة والرجفات المفزعة ماارتاع لها الشيب والشبان فكيف الولدان والنسوان، وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة اللّه تعالى، وأصبح على الأرض والاشجار وسائر النبات غبار في رقة الهواء بين البياض والغبرة.

قال ابن الاثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أرتاح بالسيف وحصن بارة وبصرفوث وكفر لاثا، وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردّون ما أخذ منهم، فلما رأوا من نور الدين هذا الجدّ علموا أنّ ما أمّلوه بعيد.

فصل

في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم اللّه عنها

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الاخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفرنج والروم وما والاها بظهور ملوك الافرنج من بلادهم منهم:الألمان والفنش وجماعة من كبارهم في العدد الذي لايحصر لقصد بلاد الاسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النفير النفير إليها والإسراع نحوها، وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حماتها والحفظة لها، ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعددهم الشيء الكثير الذي لايحصى بحيث يقال إن عدّتهم ألف ألف من الرجالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك، وغلبوا على أعمال قسطنطينية واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم، وحين شاع خبرهم وأشتهر أمرهم شرعت ولاة الأعمال

المصاقبة لهم والأطراف الاسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة لهم والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الاسلام، وواصلوا شنّ الغارات على أطرافهم واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير، وحلّ بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر إذا وجدوه ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة إثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا، واجتماعهم مع من بها من الفرنج، ويقال أنه بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع ، وصل تقدير ثلاثمائة ألف، وقصدوا البيت المقدس، وقضوا حجهم وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك وبقي الألمان أكبر ملوكهم ومن هو دونه، واختلفت الآراء بينهم فيما كانوا يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق، وبلغ ذلك معين الدين فاستعد لحربهم فجاؤوا في تقدير خمسين ألفا ،ودنوا من البلاد ثم قصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر فيها فصادفوا الماء مقطوعا ،فقصدوا ناحية المزة فخيموا عليها لقربهم من الماء ، وزحفوا إلى البلاد بخيلهم ورجلهم ووقف المسلمون بازائهم في يوم السبت سادس ربيع الأوّل، ونشبت الحرب بين الفريقين واجتمع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفتاك وأحداث البلد والمطوّعة والغزاة الجمّ الغفير، واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا

فيها، وقربوا من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما وحديثا منه ،واستشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله قريب الربوة على الماء لوقوفه في وجوههم وترك الرجوع عنهم اتبع أوامر اللّه تعالى في كتابه الكريم، وقال: بعنا واشترى، وكذلك عبد الرحمن الحلحولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

فصل

قلت: وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن ملك الالمان الفرنجي لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الأفرنج، وقصد دمشق فخرج عسكرها وأهلها لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفندلاوي المالكي والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما اللّه، وكانا من خيار المسلمين، فلما قاربوهم قال الفقيه عبد الرحمن: أما هؤلاء الروم؟ قال : بلى قال: فإلى متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم اللّه فتقدّما فقاتلا حتى قتلا في مكان واحد رحمهما اللّه تعالى.

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها وهدّوا الفطائر، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال قد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وحرجت معه الصدور وباكروا الظهور إليهم في غد ذلك اليوم وهو الأحد، وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره، بحيث لايني في جهادهم ولايثني عن ذيادهم، ولم تزل رحى الحرب دائرة بينهم وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم حتى تتهيأ الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم

إلى مكانه وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتابع، وباكرهم المسلمون وقد قويت شوكتهم ونفوسهم، وزال عنهم روعهم وثبتوا بازائهم وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ بحيث تقع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل، ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدّة وتضاعفت العدّة، وانفصل كل فريق إلى مستقره في هذا اليوم وباكروهم من غد يوم الثلاثاء،وأحاطوا بهم في مخيمهم، ، وقد تحصنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقا بالنشاب وحذفا بالاحجار، وقد احجموا عن البروز وخافوا وفشلوا ولم يظهر منهم أحد، وظنّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبرون حيلة ولم يظهر منهم إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المطاردة والمناوشة خوفاً من المهاجمة، إلى أن يجدوا لحملتهم مجالا وليس يدنو منهم أحد إلاّ صرع برشقة أو طعنة، وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يقصدونهم في المسالك ،وقد أمنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عليها ، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير، وتواترت إليهم أخبار العساكر الاسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال شأفتهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصا من الشبكة التي حصلوا فيها غير الرحيل، فرحلوا سحر يوم الأربعاء التالي مفلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك برزوا إليهم في بكرة هذا اليوم وسارعوا في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم مالا عدد له ولاحصر يلحقه بحيث لها أراييح من جيفهم تكاد

تصرع الطيور في الجوّ وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودية في تلك الليلة، واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها اللّه عليهم ، وأكثروا من الشكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدّة فللّه الحمد على ذلك والشكر.

واتفق عقيب هذه الرحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قربة من دمشق للانجاد لها.

وقال ابن الاثير: خرج ملك الالمان من بلاد الافرنج في جيوش عظيمة لاتحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام ، فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ، ولايشك ملك الالمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعسكره.

قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عددا وأوسعهم بلاداً وملكهم أكثر عددا وعددا، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلا، فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن بوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جدّه طغتكين، وهو معين الدين أنر، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر، وكان عاقلا دينا خيراً أحسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأوّل، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم، وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربي الفندلاوي شيخ المالكية بدمشق، وكان شيخا كبيرا زاهدا عابدا خرج راجلاً، فرأى معين الدين فقصده وسلم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال، قال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله، يعني قول اللّه تعالى:(إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)(٥٣)الآية وتقدّم فقاتل حتى قتل رحمه اللّه عند النيرب شهيداً.

وقوي أمر الفرنـج وتقدموا فنزلوا بالميـدان الأخضر، وضعف أهل البلد عن ردّهم عنه، وكـان معين الدين قد أرسل إلى سيف الـدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القـدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيـف الدين عساكره وسـار مجداً إلى مدينة حمص،وأرسل إلى معين الدين يقـول له: قد حضرت ومعـي كل مـن يطيق حمل السـلاح مـن بلادي، فـإنْ أنا جئـت إليك ولقينـا الفرنج وليسـت دمشق بيد نـوابي وأصحابي وكانـت الهزيمة والعياذ بالله علينا لايسلم منا أحد لبعـد بلادنا عنا، وحينئذ تملك الفرنج دمشق وغيرهـا، فإن أردتم أن ألقـاهم وأقاتلهـم فتسلم البلد إلى مـن أثق إليه، وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنـا على الفرنج أنني لاآخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقـدار ما يـرحل العدوّ عنهـا، وأعود إلى بـلادي ،فماطله معين الديـن لينظر ما يكـون من الفرنـج، فأرسل سيـف الدين إلى الفـرنج الغرباء يتهـدّدهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يـرحلوا ، وأرسل معين الديـن إليهم أيضا يقول لهم: قـد حضر ملك الشرق ومعه من العسـاكر مالا طـاقة لكـم به، فـإن أنتم رحلتـم عنا والاسلمـت البلد إليـه وحينئذ لاتطمعون في السـلامة منـه، وأرسل إلى فـرنج الشـام يخوفهم مـن أولئك الفرنـج الخارجين إلى بلادهـم ويقول لهم: أنتم بين أمـرين مـذمومين إن ملك هـؤلاء الفرنج الغـرباء في دمشق لايبقـون عليكم مـا بأيديكـم من البـلاد، وإن سلمت أنـا دمشق إلى سيـف الديـن فأنتـم تعلمون أنكـم لاتقدرون على منعه من البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلـوا ملك الالمان عـن دمشـق، فأجـابوه إلى ذلـك وعلمـوا صدقـه واجتمعوا بملـك الالمان وخوفوه مـن سيف الدين وكثـرة عساكره وتتـابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق، فلا يبقى لهم معـه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الـرحيل عـن دمشق فـرحل ورحـل فرنـج الساحـل وتسلموا حصـن بانياس مـن معين الدين وبقي معهـم حتى فتحه نور الـدين محمود رحمه الله، كما سنذكره.

فصل

قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله في تاريخه أن الفقيه الفندلاوي رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن (على سرر متقابلين)(٥٤) وقبره الآن يزار بمقابر باب الصغير من ناحية حائط المصلى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله، وأما عبد الرحمن الحلحولي فقبره في بستان الشعباني في جهة شرقه، وهو المسجد المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت، وكان مقامه في حياته في ذلك المكان رحمه الله، وقرأت قصيدة في شعر أبي الحكم الاندلسي شرح فيها هذه القصة منها:

بشطي نهر داريا
أمور ما يواتينا
وأقوام رأوا سفك الـ
دماء في جلق دينا
أتانا مائتا ألف
عديداً أو يزيدونا
فبعضهم من أندلس
وبعض من فلسطينا
ومن عكا ومن صور
ومن صيدا وتبنينا
إذا أبصرتهم أبصر
ت أقواماً مجانينا
و جازوا المرج والتعدي
ل أيضا والميادينا
تخالهم وقد ركبوا
فطائرها (٥٥) جرادينا
وبين خيامهم ضموا الـ
خنازير والقرابينا

ورايـــــات وصلبـــــانـــــا
على مسجـــد خـــاتـــونـــا

وقلنـــــا إذ رأينـــــاهـــــم
لعــــل اللّــــه يكفينــــا

سيا لهم معين قـــــــد
أعــــان الخلـــق والـــدينـــا

وفتيــــــــــان تخالهم
لـــدى الهيجـــاء شيـــاطينـــا

فـــولـــوا يطلبـــون المر
ج مـــن شرقـــي جسرينـــا

ولكـــن غـــادروا اليـــأ
س تحت التراب مـــدفـــونـــا

وشيخـــا فنـــدلا ويـــا
فقيهـــا يعضـــد الـــدينـــا

وفتيـــانـــا تفـــانـــوا مـــن
دمشـــق نحـــو سبعينـــا

ومنهـــم مـــائتـــا علـــج
وخيـــل نحـــو تسعينـــا

وبـــــاقيهـــم إلى الآ
ن مـــن القتـــل يفـــرّونـــا

وللعرقلة حسان في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج أولها:

عـــرّج على نجـــد لعلـــك منجـــدي
بنسيمهـــا وبـــذكـــر سعـــدى مسعـــدي

يقول فيها:

مـــن قـــاتـــل الافـــرنـــج دينـــا غيره
والخيـــل مثـــل السيـــل عنـــد المشهـــد

ردّ الامان بكل ندب باسل
ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض
زمن العجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه
وغدا بحمده من شريعة أحمد

قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري جدّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين أوّل القصيدة:

الحق مبتهج والسيف مبتسم
ومال اعداء مجير الدين مقتسم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمّـ
ـنت العباد فأنت الحل والحرام
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها
معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى إذا ما أحاط المشركون بنا
كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا إلا من الاقبال في عدد
يؤود حاسبه والاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا
أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه
سياسة ما يعفي أثرها ندم
وقفت في الجيش والاعلام خافقة
بالنصر كل قناة فوقها علم
يحوطك الله صونا عن عيونهم
والله يعصم من بالله معتصم

حتـــى إذا بـــدت الآراء ضـــاحكـــة
وأقبلـــت أوجـــه الاقبـــال تبتســـم
اتبعـــت جـــنّ سرايـــاهـــم مضمـــرة
فيهـــا نجـــوم إذا جـــدّ الـــوغـــى رجموا
والنصر دان وخيـــل اللـــه مقبلـــة
تـــرجـــو الشهـــادة في الهيجـــاء تغتنـــم
صـــاب الغمام عليهـــم والسهـــام معـــا
فما دروا أيها الهطـــالـــة الـــديـــم
سروا الينتهبـــوا الاعمار فـــانتهبـــوا
قتـــلا و يغتنمـــوا الامـــوال فـــاغتنمـــوا
وأقبلـــت خيلنـــاتـــردى بخيلهـــم
مجنـــوبـــة وعلى أرمـــاحنـــا القمـــم
وأدبـــر الملـــك الطـــاغـــي يـــزعـــزعـــه
حـــرّ الاسنـــة وهـــو البـــارد الشيـــم
وافـــوا دمشـــق فظنـــوا انها جـــدة
ففـــارقـــوهـــا وفي أيـــديهم العـــدم
وأيقنـــوا مـــع ضيـــاء الصبـــح أنهم
إن لم يـــزولـــوا سراعـــا زالـــت الخيـــم
فغـــادروا أكثـــر القـــربـــا ن وانجلفـــوا
وخلفـــوا أكبر الصبيـــان وانهزمـــوا
مستسلمين لأيـــدي المسلمين وقـــد
أغـــرى الفنـــا بتمادي خطفهـــم نهم
لا يملـــك الجســـم دمعـــا عـــن مقـــاتلـــه
كـــأنـــه حين يغشـــاه الـــردى صنـــم
وحـــاولـــوا المسجـــد الأدنـــى فما عبرت
عـــن مسجـــد القـــدم الأقصـــى لهم قـــدم

فصل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنج عن دمشق سار معين الـدين أنر إلى بعلبك، وأرسل إلى نور الدين وهو مع أخيه سيف الدين يسأله أن يحضر عنده، فاجتمعا فوصل إليهما كتاب القمص صاحب طرابلس يشير عليهما بقصد حصن العريمة وأخذه ممن فيه من الفرنج، وكان سبب ذلك أن الفنش صاحب صقلية خرج مع ملك الالمان إلى الشام وتغلب على العريمة وأخذها من القمص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضا، وجدّ هذا الذي ملك العريمة هو الذي غزا إفريقية وفتح مدينة طرابلس الغرب، فلما استولى هذا على العريمة كاتب القمص نور الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مجدّين فصبحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه، ويطلبان منه المدد فأمدّهما فحصروا الحصن وبه ابن الفنش، ونقبوا السور فأذعن الفرنج واستسلموا وألقوابأيديهم فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كل من به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفنش وأخربوا الحصن ، وعادوا إلى سيف الدين، وافتتح نور الدين أيضا باسوطا وهاب.

وقال الرئيس أبو يعلى: قتل أكثر من كان فيه، يعني في حصن العريمة، وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه ونهب ما فيه من العدد والخيول والأثاث وعاد عسكر سيف الدين إلى مخيمه بحمص ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولد الملك وأمه ومن أسر معهما، وانكفأ معين الدين إلى دمشق.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجه في عسكره إلى ناحية الاعمال الأفرنجية وقصد أفامية وظفر بعدّة من الحصون والمعاقل الأفرنجية وبعدّة وافرة من الأفرنج، وأن صاحب أنطاكية جمع الفرنج وقصده على حين غفلة منه

فنال من عسكـره وأثقاله وكراعـه ما أوجبته الاقدار النـازلة، وانهزم بنفسه وعسكره وعاد إلى حلب سالما في عسكـره لم يفقد منه إلاّ النفر اليسير بعد قتل جماعة وافرة من الافرنج، وأقام بحلـب أياما بحيث جدّد ما ذهب له من اليزك، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله وقيل لم يعد.

وذكر ابن أبى طـي أن أسد الدين لما كان في نفسه على نـور الدين من تقديم ابن الدايـة عليه لم ينصح يومئذ وهي وقعة يغرا، ومـرّ به نو الدين فقـال له: مـا هذا الـوقوف والغفلـة في مثل هـذا الوقـت والمسلمون قـد انكسروا ؟فقال: يـاخونـد ايش ننفع نحـن إنما ينفع مجد الـدين أبـو بكر فهو صـاحب الأمر، فاستـدرك نور الدين ذلـك وطيب قلب أسد الـدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقه، وأصلح بينهما.

قال: وقتـل في هذه الكسرة شـاهنشاه بـن أيوب أخـو الملك النـاصر، وقيل في كسرة البقيعة.

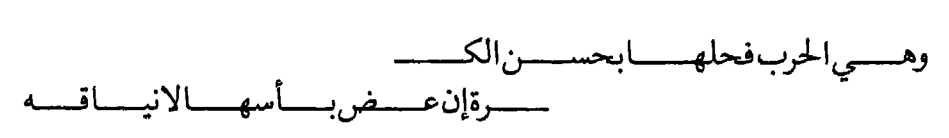
قلت: وهـو والد عز الـدين فرخشـاه وتقي الـدين عمر والسـت عذرا المنسوب إليهـا العذراويـة داخل باب النصر بـدمشق، وقبره الآن بـالتربة النجمية جوار المدرسة الحسامية بمقبرة العوينة ظاهر دمشق رحمهم اللّه.

قلت: ولابن منير من قصيدة تقدّمـت اعتذارا عما جرى في هذه الغزاة قال:

لم يشنـــــه مـــــن مــــاء يغـــــرا إن فـــــرّ إلا
شـــــابـــــات ذاد عنهـــــا انـــــذلاقـــــه

كـــــان فيهـــــا اليـــــث العـــــريـــــن حمى الأ
شبـــــال منـــــه غضبـــــان كـــــالنـــــار مـــــاقـــــه

وشبيـــــبـــــه النبـــــي يـــــوم حنين
إذ تـــــلافـــــا أدواء هـــــم دريـــــاقـــــه



- ٧٦٥١ -

وهـــــي الحرب فحلهـــــا بحســـــن الكـــــ

ـــــرة إن عـــــض بـــــأسهـــــا الانيـــــاقـــــه

فصل

وقال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضا سار نور الدين إلى بصرى وقد اجتمع بها الفرنج في قضهم وقضيضهم وقد عزموا على قصد بلاد الاسلام، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشدّ قتال، ثم أنزل الله نصرة على المسلمين، وانهزم الفرنج وكانوا بين قتيل وأسير.

وفي هذه الوقعة يقول القيسراني من قصيدة أولها:

ونيرات الملك وهاجة
وطالع الدولة مسعود
وصارم الاسلام لا ينثني
إلاّ وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تك موجودة
إلاّ ونور الدين موجود
مظفر في درعه ضيغم
عليه تاج الملك معقود
نال المعالي ما الكاحاكما
فهو سليمان وداود
ترتشف الأفواه أسيافه
إن رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها
عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة
أو موثق بالقدّ مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها
قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثار ضمنته الظبى
فكل ما يضمن مردود

والكـرّ والفـرّ سجال الوغى
فطارد طوراً ومطرود
وإنما الافرنج من بغيها
عادوا وقد عاد لها هود
قد حصحص الحق فما جاحد
في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح
وكل ثغر بك مسدود

وقال أيضا قصيدة في نور الدين: وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الفرنج على يغرا، وهزمهم إلى حصن حارم، وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أوّلا بهذا الموضع أوّلها:

تفي بضمانها البيض الحداد
وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثارها من كل باغ
فوارس من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام
يشدّ بضبعه السبع الشداد
أظنوا أن نار الحرب تخبو
ونور الدين في يده الزناد
وجند كالصقور على صقور
إذا انقضوا على الابطال صادوا
إذا اخفوا مكيدتهم أخافوا
وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها
وهل يخشى وأنت لها عماد
وإن تتلى القوافي ما تلته
بإنب مايوّنبها اسناد



- ٧٦٥٤ -

جرت بالنصر أقلام العوالي
وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أروس الأعلاج خصبا
فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا
ولا طعن هناك ولا طراد
ولا برنس فوق الرمح رأس
توسد والسنان له وساد
ترجل للسلام ففرسوه
وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس
وغايرها وليس به سهاد
فسر واستوعب الدنيا فتوحا
فلا هضب هناك ولا وهاد
وزربيني الوغى مثوى حبيب (٥٦)
فما عن باب مسلمه ذياد
ولا في باب فارس غير ثكلى
بفارسها يضيء بها الحداد
لأنطاكية يحمي ذراها
وقد دانت لسطوتك البلاد
واذعنت الممالك واستجابت
ملبية لدعوتك العباد

قلت: ووقعة إنبّ هذه كانت عظيمة، وقد أكثر كذلك الشعراء لها وسيأتي ذكرها قريبا إن شاء اللّه تعالى.

فصل

قال أبو يعلى التميمي: وفي رجب من هـذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بـأن صاحبهـا نور الـدين ابـن أتابـك أمر بـابطال حـي على خير العمل في أواخـر تأذين الغـداة، والتظاهر بسـب الصحابة، وانكـر ذلك إنكارا شديـداً، وساعده على ذلك جماعـة من أهل السنة بحلـب، وعظم هذا الأمـر على الاسماعيلية وأهل التشيـع وضاقت لـه صدورهم وهـاجوا وماجوا ثم سكنوا وأحجموا للخوف مـن السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

قلت:وأنشده ابن منير في رمضان:

فـــداك مـــن صـــام ومـــن أفطـــرا
ومـــن سعـــى سعيـــك أو قصرا
ومـــا الـــورى أهـــلا فتفـــدى بهم
وهـــل يـــوازي عـــرض جـــوهـــرا
عـــدل تســـاوى تحت أكنـــافـــه
مطـــافـــل العين واســـد الشرى
يـــا نـــور ديـــن اللّـــه كـــم حـــادث
دجـــى وأسفـــرت لـــه فـــانسرى
وكـــم حمى للشرك لا يهتـــدي الـــ
ـــوهم لـــه غـــادرتـــه مجزرا
يـــا ملـــك العصر الـــذي صـــدره
افســـح مـــن أقطـــارهـــا مصـــدرا
وابـــن الـــذي طـــاول أفـــلاكهـــا
فلـــم يجد مـــن فـــوقـــه مظهـــرا
منـــاقـــب تكسر كسرى كما
تقصر عـــن إدراكهـــا قيصرا

مـــا عـــام في أوصـــافهـــا شـــاعـــر
إلاّ رأى أوصـــــافهـــــا أشعـــــرا
للّـــــه أصـــل أنـــت فـــرع لـــــه
مـــا أطيـــب المجنـــى ومـــا أطهـــرا
مـــا حلـــب البيضـــاء مـــذ صنتهـــا
إلاّ حـــــرام مثـــــل أمّ القـــــرى
شيـــــدت في معمـــــور أرجـــــائهـــــا
لكـــل بـــــاغـــــى عمـــــره مشعـــــرا
فـــأصبـــح الشـــــادي إذا ثـــوّب الـــ
ــــداعي لـــــه هلـــــل أو كبرا
لا عـــدم الاســـــلام مـــــن كفـــــه
كهـــــف لمن أرهـــــق أو أحصرا
كـــــأنها ســـــاحتـــــه جنـــــة
أجـــرت بها راحتـــه كـــوثـــرا
تصرّم الشهـــر الـــــذي كنـــت في
أوقـــاتـــه مـــن قـــدره أشهـــرا
جهـــادليـــل في نهار غـــزا
إذ كنـــت فيـــه الأصبر الأشكـــرا
أصـــدق مـــا يـــرشفـــه ســـامـــع
مـــا هـــز مـــن أوصـــافـــك المنبرا
أبقـــاك للـــدنيـــا وللـــديـــن مـــن
خـــــــــــــلاك في ليلهما نيرا
حتـــى تـــرى عيســـى مـــن القـــدس قـــد
نجـــا إلى سيفـــــك مستنصرا

قال أبـو يعلى: وفي رجب أذن لمن يتعـاطى الوعـظ بالتكلـم في الجامع المعمور بدمشق على جري العادة والرسـم، فبدأ من إختلافهم في أحوالهم وأغـراضهم والخوض في قضـايـا لا حاجـة لها مـن المذاهـب ما أوجـب

صرفهم عن هذه الحال، وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد،وطمع سفهاء الأوغاد وذلك في آخر شعبان منها.

قال: وكثر فساد الفرنج المقيمين بصور وعكا والثغور الساحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم وخيم في ناحية من حوران بالعسكر، وكاتب العرب واستدعى جماعة وافرة من التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النكاية فيهم، والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة.

- ٧٦٥٨ -

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فجـدّدت المهادنـة في المحرّم مـدّة سنتين، وأنفذ نـور الديـن إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكيـة قد جمع أفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد برز في عسكـره إلى ظاهر حلب للقائه والحاجة مـاسة إلى معاضدتـه، فندب معين الديـن مجاهد الدين بُـزان بن مامين في فـريق وافـر من العسكـر الدمشقـي للمصير إلى جهته، وبـذل المجهود في طاعته ومناصحته، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حوران.

قال: وفي صفر مـن السنة وردت البشائر من جهة نـور الدين بما أولاه الّله تعالى، وله الحمد على حشد الفـرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلاّ من أخبر ببوارهـم، وتعجيل دمـارهم، وذلـك أن نور الـدين اجتمـع له مـن العساكر ستـة آلاف فارس مقاتلة سوى الاتبـاع والسواد، فنهض بهم إلى الفـرنج في الموضـع المعروف بـإنّـب وهم في نحـو أربعمائة فارس وألـف راجل، فقتلـوهم وغنمـوهم ووجـد اللعين البرنس مقـدّمهم صريعـاً بين حماتـه وأبطالـه، فعـرف وقطع رأسـه، وحمل إلى نور الـديـن ، وكان هـذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بـالفروسية، وشدّة البأس وقوة الحيل، وعظم الخلقـة، مع اشتهار الهيبة وكثـرة السطوة والتناهـي في الشر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر.

ثم نزل نور الدين في العسكر على بـاب انطاكية، وقد خلت من حماتها والذابين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مع كثـرة عددهم وحصانة بلدهم، وتردّدت المراسـلات بينه وبينهم في طلـب التسليم إليه وإيمانهم وصيـانة أموالهم، فوقع الاحتجـاج منهم بأن هذا الأمر لايمكنهم الـدخول فيه إلاّ بعد انقطـاع أمالهم من الناصر لهم والمعين على مـن يقصدهم، وحملـوا ما أمكنهم مـن التحف والمال، ثم استمهلـوا فأمهلوا، ثـم رتب نور الـدين

بعض العسكر للاقامة عليها، والمنع لمن يصل إليها، ونهض في بقية العسكر إلى ناحية أفامية، وقد كان رتب الأمير صلاح الدين في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان فأومنوا على أنفسهم وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأوّل، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية وقد إنتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية ومـوادعتهم، وتقرير أن يكون ماقرب من الأعمال الحلبية له، وما قرب من أنطاكية لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول انطاكية من الحصون والقلاع والمقالع، وغيرها من المغانم الجمة، وفصل عنه الامير مجاهد الدين بزان في العسكر الدمشقي وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذكر المشكور، لما هو موصوف به من الشهامة والبسالة وإصابة الرأي والمعرفة بمواقف الحروب.

وقال ابن أبي طي: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله وقتل البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يقتل من المسلمين من يقوم به، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليد البيضاء، ومدحه بها بعض الشعراء الحلبيين بقصيدة يقول فيها:

إذا كان آل فرنج أدركوا فلجا
في يوم يغراونال وامنية الظفر
ففي الخطيم خطمت الكفر منصلتا
أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا بيغرا نهابا وانتبهت لنا
على الخطيم نفوس المعشر الأشر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنا
قوامص الكفر في ذل وفي صغر

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاح كثير، وعدّة أسارى وخيول كثيرة، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئا.

وفي هذه السنة عظم أمر أسد الدين

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارم، وهو للفرنج فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ثم رحل عنه إلى حصن إنب فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن إنب فلم يرحل بل لقيهم وتصاف الفريقان واقتتلوا وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنه ما تعجب منه الناس، وإنجلت الحرب عن هزيمة الفرنج، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا، وفيمن قتل البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتيا من عتاة الفرنج وذوي التقدّم فيهم والملك، ولما قتل البرنس خلف ابناصغير وهو بيمند فبقي مع أمّه بأنطاكية ، فتزوجت أمه ببرنس آخر وأقام معها بأنطاكية يدبر الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند، ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنج غزوة أخرى وهزمهم وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أمّ بيمند، فلما أسره تملك بيمند أيضا أنطاكية بلد أبيه وتمكن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم سنة تسع وخمسين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس، فممن قال فيه القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية أوّلها:

هذي العزائم لا ما تدعي القضب
وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت
تعثرت خلفها الاشعار والخطب

صافحت يابن عماد الدين ذروتها
براحة للمساعي دونها تعب
مازال جدّك يبني كل شاهقة
حتى إبتنى قبة أوتادها الشهب
للّه عزمك ما أمضى وهمك ما
أفضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة
وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة
فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة
أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
قل للطغاة وإن صمت مسامعا
قولا لصم القنا في ذكره أرب
ما يوم إنب والأيام دائلة
من يوم يغرا ببعيد لا ولا كثب
أغرّكم خدعة الآمال ظنكم
كم أسلم الجهل ظنا غرّه الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى
وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم
طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحة
فالحرب تضرم والآجال تحتطب
والخيل من تحت قتلاها تقر لها
قوائم خانهنّ الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد
كما استقل دخان تحته لهب

السيف هام على هام بمعركة
لا البيض ذو ذمّة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له
سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته
كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللأسنة عما في صدورهم
مصادر أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم
فاستسلموا وهي لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق اللّه مهجته
لاقى العدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم
يارب حائنه منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم
ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهم
مسلوبة وكأنّ القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت
فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا
من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرّة ما سمت والليل معتكر
إلا تمزق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثة
ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفكري من وقائعه
شغل فكل مديحي فيه مقتضب

من باتت الاسد أسرى في سلاسله
هل يأسر الغلب إلاّ من له الغلب
فملكوا اسلب الابرنس قاتله
وهل له غير أنطاكية سلب
من للشقي بها لاقت فوارسه
وإن يسائرها من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة
برأسه إن أثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه
أنبوبة في صعود أصلها صبب
ما فارقت عذبات التاج مفرقه
إلاّ وهي منه لا تاج ولا عذب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا
بدا الثعلبها من نحره سرب
كنا نعدّ حمى أطرافنا ظفرا
فملكتك الظبى ما ليس نحتسب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها
كان تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق
كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب
يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله
فإنما أنت بحر لجه لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة
من الظبى عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها
حتى أقمت وأنطاكية حلب

حللــت مــن عقلها أيــدي معــاقلهــا
فــاستجفلــت وإلى مشــاقــك الهرب
وأيقنــت أنها تتلــو مــراكــزهــا
وكيــف يثبــت بيــت مــا له طنــب
أجــريــت مــن ثغــر الاعنــاق أنفسهــا
جــري الجفــون امتراهــا بــارح حصــب
ومــا ركــزت القنــا إلاّ ومنــك على
جسر الحديــد هــز بــرغيلــه اشــب
فــاسعــد بها نلتــه مــن كــل صــالحة
يــأوي إلى جنــة المأوى لها حســب
إن لا تكــن أحــد الابــدال في فلــك الــ
ــتقوى فــلا نتمارى أنــك القطــب
فلــو تنــاســب أمــلاك السماء بها
لكــان بينكما مــن عفــة نســب
هــذا وهــل كــان في الاســلام مكــرمــة
إلا شهــدت وعبــاد الهوى غيــب

وله فيه من قصيدة أخرى:
ألا للّــه درّك أي درّ
صريــح جــاء بــالكــرم الصريــح
وعسكــرك الــذي استــولى مشيحــا
على مــا بين فــاميــه وشيــح
ووقعتــك التــي بنــت العــوالي
صــوادر عــن قتيــل أو جــريــح
بــإنــب يــوم أبــرزت المذاكــي
مــن النقــع الغــزالــة في مســوح
غــداة كــانها العــاصي احمرارا
مــن الــدم عبرة الجفــن القــريــح

وقـد وافـاك بـالابـرنـس حتـف
أتيـح لـه مـن القـدر المتيـح
قتلـت أشحهـم بـالنفـس إذلا
يجود بنفسـه غير الشحيـح
مـلأت بهم ضرائحهـم فـأمسـوا
وليـس سـوى القشـاعـم مـن ضريـح
وعـدت إلى ذرا حلـب حميـدا
سمـو البـدر مـن بعـد الجنـوح
فـإن جليـت بغـرتـك الليـالي
فكـم لسنـاك مـن زمـن مليـح
رويـدك تسكـن الهيجـا فـواقـا
بحيـث تـريـح مـن تعـب المريـح
فـأنـت وإن أرحـت الخيـل وقتـا
فهمـك غيرهـم المستريـح

قال أحمد بن منير يمدحه ،ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه ، وحمل رأسه إلى حلب ، وأنشده أيضا إياها بجسر الحديد:

أقـوى الضـلال وأقفـرت عـرصـاتـه
وعـلا الهدى وتبلجـت قسماتـه
وانتـاش ديـن محمـد محمـوده
مـن بعـد مـا غُلـت دمـا عبراتـه
ردّت على الاسـلام عصر شبـابـه
وثبـاتـه مـن دونـه وثبـاتـه
أرسـى قـواعـده ومـدّ عماده
صعـدا وشيـد سـوره سـوراتـه
وأعـاد وجـه الحق أبيـض نـاصعـا
اصـلاتـه وصـلاتـه وصـلاتـه
لما تـواكـل خـربـه وتخاذلـت
أنصـاره وتقـاصرت خطـواتـه

رفعــت لنــور الــديــن نــار عــزيمــة
رجعـــت لهاعـــن طبعهـــا ظلماتـــه
ملـــك مجالـــس لهوه شـــداتـــه
ومشـــوقـــه بين الصفـــوف شـــذاتـــه
تغـــري بحثحثـــة اليراع بنـــانـــه
إن لـــذ حثحثـــة الكـــؤوس لـــداتـــه
ويـــروقـــه ثغـــر العـــدى قـــان دمـــا
لا الثغـــر يعبـــق في لماه لثـــاتـــه
فصبـــوحـــه خـــمر الطلى وغبـــوقـــه
نطـــف النفـــوس تـــدّرهـــا نشـــواتـــه
فتـــح تعممـــت السماء بفخـــره
وهفـــت على أغصـــانها عـــذبـــاتـــه
سبغـــت على الاســـلام بيـــض حجـــولـــه
واختـــال في أوضـــاحهـــا جبهـــاتـــه
وانهل فـــوق الابطحين غمامـــه
وسرت إلى سكينهـــا نفحـــاتـــه
للّـــه بلجـــة ليلـــة محصـــت بـــه
واليـــوم ذبـــح وشيـــه ســـاعـــاتـــه
حـــط القـــوامـــص فيـــه بعـــد قماصهـــا
ضرب يصلصـــل في الطلى صعقـــاتـــه
نبـــذوا الســـلاح لضيغـــم عـــاداتـــه
فـــرس الفـــوارس والقنـــا غـــايـــاتـــه
لمجـــرب عمـــريـــه غضبـــاتـــه
للّـــه معتصميـــة غـــزواتـــه
تحيـــا الضيـــق صفـــاده اسراؤه
وتفيـــض مـــاء شـــؤونها نغماتـــه
بين الجبـــال خـــواضعـــا أعنـــاقهـــا
كـــالـــذود نـــابـــت عـــن بـــراه حـــداتـــه

نشرت على حلب عقود بنودهم
حلل الربيع تناسقت زهراته
روض جناه لها مكرّر جياده
واستوأرت حمالة حملاته
متساندين على الرحال كما انثنى
شرب أمالت هامه قهواته
لم تنبت الأجسام قبل رماحه
شجراً فروع أصوله ثمراته
فليحمد الاسلام ما جدحت له
شربات غرس هذه نخباته
وسقى صداً ذاك الحيا صوب الحيا
خير الثرى ما كنت أنت نباته
نصب السرير ومال عنه ومهدت
لمقر منصبك السرى سراته
ما ضرّ هذا البدر وهو محلق
إن الكواكب في الذرى ضراته
في كل يوم تستطيل قناته
فوق السماء وتعتلي درجاته
وترى كشمس في الضحى آثاره
مجدا وألسنة الزمان رواته
أين الأولى ملأوا الطروس زخارفا
عن نزف بحر هذه قطراته
عذقوا بأعناق العواطل ماله
من جوهر فأتتهم فذاته
لو فصلوا اسمطا ببعض فتوحه
سخرت بها افتعلوا لهم فعلاته
تمسي قنانيه بنات قيونه
فوق القوانس والقنا قيناته

صلتبان من دون الملوك تغرها
حركاته وتنيمها يقظاته
فغدت بهم عن خطوه هماتهم
وسمت به عن قطوهم هماته
سكنوا مسجفة الحجال وأسكنت
زحل الرجال مع السها عزماته
لو لاح للطائي غرة فتحه
باءت بحمل تأوه بآآته
أوهب للطبري طيب نسيمه
لاحتش من تاريخه حشواته
صدم الصليب على صلابة عوده
فتفرقت أيدى سبا أخشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
بالروح مقر ما خبت عذراته
فانقاد في خطم المنية أنفه
يوم الخطيم واقصرت نزواته
ومضى يؤنب تحت إنب همة
أمست زوافر غيها زفراته
أسد تبوأكالغرنف فجآته
فتبوأت طرف السنان شواته
دون النجوم مغمضا ولطالما
اغضت وقد كثرت لها لحظاته
فجلوته تبكي الاصادق تحته
بدم إذا ضحكت له شماته
تمشي القناة برأسه وهو الذي
نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رفعته
لاراك شاهد خفضه اخباته

ما انقاد قبلك أنفه لخزامه
كلا ولا همست لها هدراته
طيان خلف السرح طال زئيره
نطقت سطاك له فطال صماته
لما بدا مسود رأيك فوقه
مبيض نصرك نكست راياته
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحت
مثل الكرين فقلصت كراته
ولى وقد شربت ظباك كماته
تحت العجاج وأسلمته حماته
ترك الكنائس والكناس لناهب
بالبيض نهب ما حواه عفاته
لغلاب أروع لا يميت عداته
داء المطال ولا تعيش عداته
للوحش ملقى بالعرا يقتاته
ما كان قبل بصيده يقتاته
اليوم ملكك القراع قلاعه
متسنما ما استشرفت شرفاته
وغدا تحل لك الحلائل اسهم
متوزعات بينهن بناته
اوطأت أطراف السنابك هامه
فتقاذفت بعنيفها قذفاته
لازال هذا الملك يشمخ شأنه
أبدا ويلفت في الحضيض وشاته
ما أخطأتك يد الزمان فدونه
من شاء فلتسرع إليه هناته
أنت الذي تحلى الحياة حياته
وتهب أرواح القصيد هباته

فصل

قال ابن الاثير: وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية، وهو للفرنج أيضا، وبينه وبين مدينة حماه مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تل مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان من به من الفرنج يغيرون على أعمال حماه وشيزر وينهبوها، فأهل تلك الاعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نو الدين إليه وحصره وضيق عليه ومنع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحو ه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال، وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفرنج سار نحوهم فحين رأوا جدّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذه ومدحه الشعراء وأكثر وا.منهم أبو الحسن أحمد بن منير حيث قال:

اسنى الممالك ما اطلت منارها
وجعلت مرهفة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها
رؤوف تكنف عدله أقطارها
من عام سام الخافقين وحامها
مننا وزادهوى فخص نزارها
مضرية طبعت مضاربه وإن
عدّته ذروة فارس اسوارها
آل الّرعية وهي تجهل آلها
وتعاف نطفتها وتكره دارها
فأقرّ ضجعتها وأنبت نيها
وأساغ جرعتها واثبت زارها
ملك أبوه وسما لها فسما بها
وأجارها فعلت سهيلا جارها

نهج السبيـــل لـــه فـــأوضـــع خلفـــه
وشـــدالـــه يمـــن العلى فـــانـــارهـــا
أنشرت يـــــامحمـــــود ملـــــة أحمد
مـــن بعـــد مـــا شمـــل البلى اصحـــارهـــا
إن جـــانـــأت عـــدل السنـــان قـــوامهـــا
أو نـــانـــأت كـــان الحسـام جبـــارهـــا
عقلـت مـع العصـم العـواصـم مـذ غـدت
هـــذي العـــزائم أسرهـــا وإســـارهـــا
وتكيلفـــت لـــك ضمـــر انضيتهـــا
في صـــونها أن تستردّ ضمارهـــا
كـــلأت هـــواملهـــا وردّ مطـــارهـــا
مـــا أريشتـــه وثقفـــت آطـــارهـــا
كـــم حـــاولـــت مـــن كفتيهـــا غـــرّة
غلـــب الأســـود فقلمـــت أظفـــارهـــا
أنـــى وحـــامـــي سرحهـــا مـــن لـــو سمـــت
للفلـــك بسطتـــه أحـــال مـــدارهـــا
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك ســـورة
للـــديـــن يحمـــل سفـــره أسفـــارهـــا
ومطيلـــة قصر المنـــابـــر إن غـــدا الـــ
ـــخطباء تنثـــر فـــوقهـــا تقصـــارهـــا
همم تحجلـــت الملـــوك وراءهـــا
بـــدم العثـــار ومـــا اقتفـــت آثـــارهـــا
وعـــزائم تستـــوثر الآســـاد عـــن
نهش الفـــرائس إن أحـــس أوارهـــا
أبـــدا تقصر طـــول مشرفـــة الـــذرى
بـــا لمشرفيـــة أو تطيـــل قصـــارهـــا
فغـــزت أفـــاميـــة فما فهمتـــه
كـــوبـــا رأ جنـــاهـــا الاران بـــوارهـــا

أرهفت رائك فوق رائك تحتها
فحططت من شغفاتها أعفارها
أدركت ثارك في البغاة وكنت يا
مختار أمّة أحمد مختارها
عارية الزمن المغير سهالها
منك المغيرة فاستردّ معارها
زأر الهزبر فقيدت عاناتها
عصر الضلال وأسلمت أعيارها
ضاءت نجومك فوقها ولربما
باتت تنافثها النجوم سرارها
أمست مع الشعرى العبور وأصبحت
شعراء تستقلي الفحول شوارها
ولكم فرعت بمقربات مثلها
تلعا وقلدت الكماة عذارها
حتى إذا اشتملتك أشرق سورها
عزا وحلاها سناك سوارها
خرّ الصليب وقد علت نغماتها
واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع انطاكية
سرت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم أضحت تستذمّ مجيرها
من جوره وغدت تذمّ جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها
إن زرّ أطواق القباء وزارها
ماض إذا قرع الركاب لبلدة
ألقت له قبل القراع ازارها
و إذا مجانقه ركعن لصعبة الـ
ـملقاة أسجد كالجدير جدارها

ملأ البلاد مواهبا ومهابة
حتى استرقت آية أحرارها

يذكي العيون إذا أقام لعينها
أبدا ويفضي بالظبى أبكارها

أوما إلى رمم الندى فأعاشها
وهما السابقة المنى فازارها

نبويّ تشبيه الفتوح كأنها
أنصاره رجعت له أنصارها

أحيا الصرح سلامها سلمانها
وأمات تحت عمارها عمارها

إن سار سار وقد تقدّم جيشه
رجف يقصع في اللهي ذعارها

أو حلّ حلّ حبا القروم بهيبة
سلب البدور وبدارها أبدارها

وإذا الملوك تنافسوا درج العلى
أربى بنفس أفرعته خيارها

ونهى إذا هيفت تدلّ لجبرها
وسطى تذل إذا عنت جبارها

تهدى لمحمود السجايا كاسمه
لولز فاعلة بها لأبارها

الفاعل الفعلات ينظم في الدجى
بين النجوم حسودها اسهارها

ساع سعى والسابقات وراءه
عنقا فعصفر منتهاه عثارها

كالمضرجي إذا يصرصر رائبا
خرس البغاث وهاجرت أوكارها

عرفت لنور الدين نور وقائع
يغشى إذا اكتحلت به أبصارها

مشهورة سطعـــت وقـــد حـــاولتهـــا الـــ
ـــأقدار عجـــزا أن تشـــق غبـــارهـــا
للّـــه وجهـــك والـــوجـــوه كـــأنها
حطـــت بها أوقـــار هبـــت قـــارهـــا
والبيـــض تخنـــس في الصـــدور صـــدورهـــا
هبرا وتكتحـــل الشفـــور شفـــارهـــا
والخيـــل تـــدلـــج تحت أرشيـــة القنـــا
جـــذب المواتـــح غـــاورت أبـــارهـــا
فبقيـــت تستجلي الفتـــوح عـــرائسـا
متمليـــا صـــدر العلى وصـــدارهـــا
في دولـــة للنصر فـــوق لـــوائهـــا
زبـــر تنمـــق في الطلى أسطـــارهـــا
فـــالـــديـــن مـــرمـــاة رفعـــت بها الصـــوى
وحـــديقـــة ضمنـــت يـــداك ابـــارهـــا

وله فيه من قصيدة أخرى:

خنـــس الثعـــالـــب حين زمجر مصحـــر
مـــلأ البـــلاد هماهما وزئيرا
تـــركـــوا مشـــاجـــرة الـــرمـــاح لحاذق
جعلـــت مخافتـــه القصـــور قبـــورا
لـــريـــب حـــرب لم تـــزل فعـــلاتـــه
كـــالـــراء يلـــزم لفظهـــا التكـــريـــرا
أســـد إذا مـــا عـــاد مـــن ظفـــر بمفـــ
ـــترس أحـــدّ لمثلـــه اظفـــورا
يتنـــاذر الاعـــداء منـــه سطـــوة
مـــلأ الـــزمـــان تغيظـــا وزفيرا
عـــرفـــوا النـــور الـــديـــن وقـــع وقـــائع
وفى بها الاســـلام أمـــس نـــذورا

أبـــدا يظـــافـــرك القضـــاء على الـــذي
تبغـــي فترجـــع ظـــافـــرا منصـــورا
قـــوّضـــت فـــانتقـــع الظهـــائر ظلمـــة
وقفلـــت فـــاشتعـــل الـــديـــاجـــر نـــورا
وعلى العـــواصـــم مـــن دفـــاعـــك عـــاصـــم
ينشـــي الـــرشيـــد وينشر المنصـــورا

فصل

في وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي في هذه السنة

قال أبو يعلى التميمي: فصل معين الدين من عسكره بحوران ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الآخر لأمر أوجب ذلك ودعا إليه وأمعن في الأكل ، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوته وتولد معه مرض في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق، في محفة لمداواته فوصل، وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نقل بعد ذلك إلى المدرسة التي عمرها.

قلت: قبره في قبة بمقابر العوينة شمالي دار البطيخ الآن واسمه مكتوب على بابها فلعله نقل من ثم إليها، وفيه يقول الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وكتب بها إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض بصرى وصرخد مع نور الدين، وقد تقدم ذلك كتب إليه قصيدة يقول فيها:

كـــل يـــوم فتـــح مبين ونصر
واعتـــلاء على الاعـــادي وقهـــر

صدق النعت فيك أنت معين الـ
ـدين إن النعوت فال وزجر
أنت سيف الاسلام حقا فلا كل
غراريك أيها السيف دهر
لم تزل تضمر الجهاد مسرا
ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا
ك هما الباقيان أجر وشكر (٥٧)

قال: وفي يوم الجمعة تاسع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصلاة على المنبر بابطال الفيئة المستخرجة من الرعية وإزالة حكمها وتعفية رسمها وإبطال دار الضرب، فكثر دعاء الناس له وشكرهم، قال: واستوحش الرئيس مؤيد الدولة من مجير الدين استيحاشا أوجب جمع من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء وحملة السلاح من الجهلة العوام وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حيدرة للاحتماء بهم من مكروه يتم عليهما، وذلك في ثالث عشر رجب، ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يسكنهما ويطيب أنفسهما، فما وثقا بذلك وجدا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الاجناد ، وأثارا الفتنة فقصدوا باب السجن وكسروا غلاقه وأطلقوا من فيه، واستنفروا جماعة من أهل الشاغور وغيرهم وقصدوا الباب الشرقي وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جمع كثير، وامتلأت بهم الأزقة والدروب، فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشاكي، وأخرج ما في خزانته من السلاح والعدد وفرقت على العسكر، وعزموا على الزحف على جميع الأوباش والايقاع بهم والنكاية فيهم، فسأل جماعة من المقدمين التمهل في هذا الأمر وترك العجلة بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم، ووقعت المراسلة والتلطف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطا أجيبا إلى بعضها،

وأعرض عن بعض بحيث يكون ملازما لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولايركب إلى القلعة إلا مستدعى إليها، وتقررت الحال على ذلك وسكنت الدهماء، ثم حدث بعد هذا التغيير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد وجمع الجمع الكثير من الاجناد والمقدّمين والرعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة، وحصر من بها وطلب من عين عليه من الأعداء الأعيان في أواخر رجب، ونشبت الحرب بين الفريقين وجرح وقتل بينهم نفر يسير، وعاد كل فريق منهم إلى مكانه ووافق ذلك هروب السلار زين الدين اسماعيل الشحنة وأخيه إلى ناحية بعلبك، ولم تزل الفتنة ثائرةوالمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصورة إبعاد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين، وسكنت الفتنة وأطلقت أيدى النهابة في دار السلار زين الدين وأخيه وأصحابهما ،وعمها النهب والاخراب، ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرياسة بحيث لايكون له في ذلك معترض ولا مشارك.

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقله.

ذر الاتـــراك والعـــربـــا
وكـــن في حـــزب مـــن غلبـــا
بجلـــق أصبحـــت فتـــن
تجر الـــويـــل والحربـــا
لئـــن تمت فـــوا أسفـــا
ولم تحزن فـــوا عجبـــا

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زد علـــوا في المجـــد يـــا ابـــن علي
هكـــذا مـــن أراد أن يتعـــالى
وغـــدت جلـــق تنـــاديـــك عجبـــا
هكـــذا هكـــذا والا فـــلا لا

لـــن تبـــالي مـــن بعـــدهـــا بعـــدو
إنما ذاك كـــــان قطعـــــا فـــــزالا

قـــد حـــوى الـــديـــن يـــا مـــؤيـــده منـــ
ـــك هـــزبـــراً وديمـــة وهـــلالا

جئتهـــا في الظـــلام خيـــلا ورجـــلا
وحميـــت النفـــوس والامـــوالا

قـــد بلغـــت المراد مـــن كـــل ضـــد
وكفـــى اللّـــه المؤمنين القتـــالا

قال أبـو يعلى التميمـي: وفيهـا ورد الخبر مـن نـاحيـة مصر بـوفـاة المستخلف بها الملقب بالحافظ واسمه عبد المجيد بن الآمر بن المستنصر في خـامس جمادى الآخرة ، وولي الأمـر بعد ولـده الأصغـر أبو منصـور اسماعيل ، ولقب بالظافر، وولى الـوزارة أمير الجيوش أبو الفتح بن مصال المغربي.

فصل

في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل

وهو أخو نور الدين الأكبر.

قال ابـن الاثير:كان أتـابك الشهيـد، يعني زنكـي، ملك دارا وبقيـت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنـة أربع وأربعين فحـاصرها وملكهـا واستولى على كثير مـن بلد مـاردين بسببهـا، ثم حصر ماردين عازما على أن يـدخل ديـار بكر، ويستعيد مـا أخذ مـن البلاد بعـد قتل والـده، فتفرق العسكـر في بلدهـا ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنـا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كـانت أعيـاداً قد حصرنـا غير مرة فلـم يتعدّ هـو وعسكره حـاصل

السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن:

رب دهـــــــر بكيـــــــت منـــــــه فلما

صرت في غيره بكيـــــــت عليـــــــه

ثم إنـه راسل سيف الديـن وصالحه على ما أراد وزوجه ابنتـه الخاتون، ورحـل سيف الـدين عـن ماردين وعاد إلى الموصـل، وجهزت الخاتـون وسيرت إليه فوصلت إلى الموصل وهو مـريض فتوفي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكـان عمره نحو أربعين سنة، وكـان من أحسن الناس صورة، ودفـن بالمدرسة التي أنشـأها بباطن الموصـل، وخلف ولدا ذكر أخذه نـور الدين محمود عمـه فرباه فأحسـن تربيته وزوّجه ابنـة عمه قطب الدين مـودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفـوان شبابه فتوفي وانقرض عقـب سيف الـدين، وكـان كريما شجـاعاً ذا عـزم وحزم، وهـو أوّل من حمل على رأسه سنجـق من أصحاب الأطراف فإنـه لم يكن فيهم مـن يفعله لأجـل السلاطين السلجـوقيـة، وهو أوّل مـن أمر عسكـره أن لايركـب أحدهـم إلا والسيف في وسطه، فلما أمـر هو بـذلك إقتـدى به غيره من أصحـاب الأطراف، وبنـى بالموصـل المدرسة الأتـابكية العتيقـة وهي مـن أحسن المدارس وأوسعها، وجعلهـا وقفا على الفقهاء الشـافعية والحنفيـة نصفين، وبنى ربـاط الصـوفيـة بالموصـل أيضـا، وهـو الربـاط المجاور لبـاب المشرعة ووقف عليهما الـوقوف الكثيرة، وكان كـريما قصده شهاب الـدين حيص بيـص وامتدحه بقصيدتـه المشهورة وهي مـن جيد شعره فـأجازه عنها ألـف دينار أميري سوى الاقامـة والتعهد مدّة مقـامه وسوى الخلع والثياب.

قلت أوّل تلك القصيدة:

إلى م يـــــراك المجـــــد في زي شـــــاعـــــر

يقول في آخرها:

أتـــابـــك إن سميـــت في المهـــد غـــازيـــا
فســــابقـــة معــــدودة في البشــــائر
وفيـــت بها والـــدين قـــد مـــال روقـــه
وصـــدّقتهـــا والكفـــر بـــادي الشعـــائر

وعـزى أبو الحسين أحمد بـن منير نـور الديـن بـأخيـه بقصيدة تقـدّم بعضها أوّلها:

هـــــو الجدّ بـــــز التمام البـــــدورا

يقول فيها:

ســـوى كـــل مـــا جنـــت الحادثـــا
ت مـــا كنـــت ظـــلا علينـــا قـــريـــرا
أســـــأ ن وأحســـــن كـــــنّ الهلال
ومـــــلأننـــــا منـــــك بـــــدرا منيرا
إذا ثبـــــج البحـــــر أخطـــــأنه
فـــلا غـــر وأن ينتشفـــن الغـــديـــرا
وأصغـــر بفقـــدانـــا الـــذاهبـــــ
ـــين مـــا عشـــت نـــاتيـــك ملكـــا كبيرا
ومـــا أغمـــد الـــدهـــر ذاك الحســـا
م مـــاســـلّ حـــداك عضبـــا بتـــورا
قسيـــم عـــلاك ونعـــم القســـــ
ـــيم أخ شـــاف نـــزرا وأعطـــى كثيرا
وكـــان نظيرك غـــار الـــزمـــا
ن مـــن أن يـــرى لـــك فيـــه نظيرا
فـــدتـــك نفـــوس بـــك استـــوطنـــت
مـــن الأمـــن نـــورا وقـــد كـــنّ بـــورا
وغيرك يمهـــد بســـط العـــزا
ء ويـــولي المسلمين سمعـــا وقـــورا

ومـــا نقـــص الـــدهـــر اعـــدادكـــم
إذا شـــف قطـــرا وأبقـــى بحـــورا

ولـــو أنصـــف المجـــد مـــوتـــاكـــم
لخط لهم في السماء القـــــــــــــورا

حيـــاتـــك أحيـــت رميـــم الـــرجـــا
وأمطـــت مـــن الجود ظهـــرا ظهيرا

بقيـــت معـــزا مـــن الهالكـــ
ـــين تـــوقـــى الـــردى تـــوفي الاجـــورا

وللقيسراني قصيدة منها

مـــا أطـــرق الجوّ حتـــى أشرق الافـــق
إن أغمـــد السيـــف فـــالصمصـــام يـــأتلـــق

دون الاســـى منـــك نـــور الـــديـــن في حلـــب
مملـــك ينجلي عـــن وجهـــه الغســـق

هـــو الشقيـــق الشفيـــق الغيـــب حين ثـــوى
أراق مـــاء الكـــرى مـــن جفنـــك الارق

تلقـــى الاســـى مـــن لبـــاس الصبر في جنـــن
حصينـــة تحتهـــا الاحشـــاء تحترق

ومـــدّة الاجـــل المحتـــوم إن خفيـــت
فـــإن أيـــامنـــا مـــن دونها طـــرق

وإنما نحـــــن في مضمار حلبتهـــا
خيـــل إلى غـــايـــة الاعمار تستبـــق

شـــأو إذا ابتـــدر الاقـــوام غـــايتـــه
كـــان المؤخـــر فيهـــا مـــن لـــه السبـــق

إن كـــان صنـــوك هـــذا قـــد ثـــوى وذوى
ففـــي مغـــارســـك الاثمار والـــورق

أو أصبحـــت بعـــده الاهـــواء نـــافـــرة
أيـــدي سبـــا فعلى عليـــاك نتفـــق

مـاغـــاب مــن غــاب عــن آفـــاق مطلعــه
الا ليفترّ عــــن أنـــــوارك الافـــــق
مـــادام شمســـك فينـــاغير آفلـــة
فـــالــــديـــن منتظـــم والملـــك متســـق

فصل

قال ابـن الاثير: لما توفي سيـف الدين غـازي كان أخـوه قطب الـدين مـودود بالموصـل، فاتفقـت كلمة جمال الـدين وزيـن الديـن على توليتـه وتمليكه طلبـا للسلامـة منه، فـإنه كـان لين الجانب حسـن الأخلاق كثير الحلم كريـم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا لـه ونزل بدار المملكة،وحلـف له الأمـراء والأجناد واستقـر في الملك، وأطـاعه جميـع ما كـان لأخيه سيـف الـدين ، لأن المرجـع كـان في جميع المملكـة إلى جمال الديـن وزين الديـن، ولما ملك واستقرّ في الملـك تزوّج امرأة أخيـه الذي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الـدين تمرتاش صاحب ماردين، فولدت لقطب الـدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعـده على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكـانت هـذه الخاتون يحل لها ان تضـع خمارها عنـد خمسة عشر ملكا من آبائها وأجدادهـا وأخوتها، وبني أخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد أولادها، ثـم ذكرهـم ابن الاثير في كتـابه وسماهـم، وذكر أنها أشبهـت في ذلك فـاطمة بنت عبـد الملك بن مروان زوج عمـر بن عبد العـزيز رضي اللّـه عنه، وكـان لها أن تضـع خمارها عنـد ثلاثـة عشر خليفـة وهم مـن معاوية إلى آخـر خلفاء بني أمية سوى آخـرهم وهو مروان بن محمـد فإنه ابن عم لها ليس بمحـرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلـك إلاّ بعد ذكره أن أمها عاتكـة بنت يزيد بن معاويـة، فمعاوية جدّ أمها، ويزيـد جدّها لأمها، ومعاوية ابن يزيد خالها، ومـروان جدّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليـد وسليمان وهشام ويـزيد أخـوتها، وعمر بـن عبد العـزيز زوجهـا،

والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد، أولاد أخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء، وعدتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزومية، على ما بيناه في ترجمتها في تاريخ دمشق، ولكن الصواب في ذلك أن يقال كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان ابن الحكم ونسله سوى، مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن العزيز ومروان بن محمد،بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها : معاوية جدّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد ابن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها، ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالأخوة والأعمام والأخوال وبني الاخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك، وغيرهم، وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية، وماذكر ابن الاثير من أمر حسام الدين، فست الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكا من أخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل،وسيف الاسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذرّيته أصحاب حماه، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

فصل

قال ابن الاثير: ولما ملك قطب الدين الموصل والبلاد الجزرية، كان

أخوه نور الدين بحلب، وهو أكبر من قطب الدين، فكاتبه بعض الأمراء وطلبوه إليهم منهم المقدّم والد شمس الدين بن المقدّم، وهو حينئذ دز دار سنجار، فسار نور الدين جريدة في سبعين فارساً مُن أكابر دولته منهم أسد الدين شيركوه، ومجد الدين أبو بكر بن الداية وغيرهما، فوصلوا إلى ماكسين في ستة أنفس في يوم شديد المطر، وعليهم اللبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلو إلى الشحنة وأخبروه بوصول نفر من الأجناد كأنهم تركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين فحين رآه الشحنة قبل يده وخرج عن الدار فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه، وسار مجداً إلى سنجار فوصلها وليس معه إلاّ نفر يسير، فنزل بظاهر البلد وألقى نفسه على محفورة صغيرة من شدّة تعبه، وأرسل إلى المقدّم بالقلعة يعرفه وصوله، وكان المقدّم قد استدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها فأرسلوا إليه، فوقف عدّة أيام فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل، وترك ابنه شمس الدين بسنجار، وقال له: أنا أتاخر في الطريق فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سنجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصدا إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين فخاف فوات الأمر، ووصل القاصد الذي سيره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتل يعفر، فعاد إلى سنجار وسلمها إلى نور الدين، وكاتب فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن يستنجده، وبذل له قلعة الهيثم فسار إليه بجنده، فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن الموصل، نحو سنجار ومعه الجمال والزين ونزلوا بتل يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، وتهددوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختيارا، فأعاد الجواب: إنني أنا الاكبروأنا أحق أن أدبر أمر أخي منكم، وما جئت إلاّ لما تتابعت كتب الأمراء يذكرون كراهيتهم لولايتكم عليهم - يعني الجمال والزين- فخفت أن يحملهم الغيظ والأنفة على أن يخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدّدكم إياي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلاّ

بجندكم وكـان قد هرب إليه جماعة مـن أجنادهـم، فخافـوا أن يلقوه لئلا يخامـر عليهم بـاقي العسكـر، ودخـل الأمراء في الصلـح وأشار بـه جمال الدين الـوزير، وقال: نحن نظهر للسلطـان والخليفة أننا تبع نـور الدين، ونـور الـديـن يظهر للفـرنـج أنـه يحكمنـا ويهدّدهـم بنا، فـإن كـاشفنـاه وحـاربناه، فـإن ظفر بنـا طمع فينـا السلطان، وإن ظفـرنا بـه طمع فينـا الفرنـج، ولنا بالشام حمص، وقـد وصار له عنـدنا سنجار، فهذه أنفـع لنا من تلـك، وتلك أنفـع له مـن هذه والـرأي أن نسلم إليـه حمص ونأخـذ سنجار وهـو في ثغر بازاء الفـرنج ويتعين مساعـدته، فاتفـق الجماعة على هذا الرأي وسار جمال الدين إلى نور الـدين وأبرم معه الأمر وتسلم حمص وسلم سنجار إلى أخيه، وعاد نور الديـن وأخذ ما كان بسنجار من المال، ولما تسلم قطـب الديـن سنجار أقطعهـا لزيـن الديـن لأن حمص كانـت لأخيـه ينال ، وهـو مقيـم بها، واتفقـت كلمتهم واتحدت آراؤهـم، وكـل واحد منهما لايصدر إلاّ عن أمر أخيه، وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنـت عندك من الكفاية ما يستغنـي به عن وزير ومشير وليـس عندك مـن الأعداء مثـل ما عنـد أخيك لأنّ عـدّوّك كافـر فـالنـاس يدفعـونـه ديـانة، وأعـداء أخيـك مسلمـون فيحتاج مـن يقـوم بدفعهم، وإذا كنت عند أخيك فالنفـع إليك عائد وأريد من بلادك مثل مالي مـن بلاد أخيك معونـة على كثرة خرجي، فـأجابه إلى ذلك فقـال له جمال الدين: أنت عليك خرج كثير لأجل الكفـار فيجب مساعدتك وأنا اقنع منـك بعشرة آلاف دينار كـل سنة، فـأمر لـه بها، فكان نـائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم.

قلت :وقـرأت في ديوان القيسراني وقال في نور الـدين عند قدومـه وقد استـولى على سنجـار وأعمال الـرحبـة والفـرات، وذلـك في منتصـف ذي القعدة سنة أربعين وخمسمائة:

هـــذا الـــذي ولـــدت لـــه الافكـــار
وتمخضـــت فـــألا بـــه الاشعـــار
وجـــرت لـــه خيـــل النهـــى في حلبـــة
وردت وصفـــــو ضميرهـــــا المضمار
واتـــت بـــه نـــذر القـــوافي بـــرهـــة
إن القـــــوافي وحيهـــــا انـــــذار
حكمـــت لسيفـــك بـــالمـالـــك عنـــوة
حكـــما لعمـــري مـــا عليـــه غبـــار
يـــا أيها الملـــك المطيـــل نجـــاده
بـــرّيـــديـــن بهديـــه الابـــرار
يـــا بـــن السيـــوف وهـــل فخـــرت بنسبـــة
إلاّ سما بـــــك للجـــــدود فخـــــار
فـــارقـــت دار الملـــك غير مفـــارق
لـــك مـــن عـــلاك بكـــل أرض دار
في عسكـــر تخفـــي كـــواكـــب ليلـــه
نقعـــا فيطلعهـــا القنـــا الخطـــار
جـــرّار أذيـــال العجـــاج وراءه
وأمـــامـــه بـــل جحفـــل جـــرّار
تـــدنـــي لـــك الغـــايـــات أكبر همة
نـــوريـــة همم الملـــوك كبـــار
حتـــى مـــلأت الخافقين مهـــابـــة
دانـــت لعظـــم نظـــامهـــا الاقطـــار
وملكـــت سنجـــارا ومـــا مـــن بلـــدة
إلاّ تمنـــــت أنها سنجـــــار
وبسطـــت بـــالأمـــوال كفـــا طـــالما
طـــالـــت بها الآمـــال وهـــي قصـــار
وجـــرت بـــأمـــداد الجيـــاد شعـــابها
جـــري السيـــول ومـــا ســـواك قـــرار

وثنـــى الفـــرات إلى يـــديـــك عنـــانـــه
والبحـــر مـــا اتصلـــت بـــه الانهار
وملكـــت رحبـــة مـــالـــك فتبرجـــت
منهـــا العينـــك كـــاعـــب معطـــار
جـــاءتـــك في حلـــل الـــربيـــع وحليهـــا
قبـــل الـــربيـــع شقـــائق وبهار
نشـــرت عليـــك هـــوى القـــلـوب محبـــة
وتـــودّلـــو أنّ النجـــوم نثـــار
فـــأقمـــت كـــالشمـــس إن نـــأت
عـــن أفقهـــا فلهـــا بـــه أقمار
مـــن كـــان نـــور الـــديـــن ثـــم أجنّـــة
ليـــل السرى حفـــت بـــه الانـــوار
تـــدعـــو البـــلاد إليـــك ألسنـــة الظبـــى
فيجيبـــك الانجـــاد والاغـــوار
حتـــى عمـــدت الـــديـــن يـــابـــن عماده
بقنـــا أسنتهـــا عليـــه منـــار
وقفلـــت مـــن أسفـــار جـــدّك قـــادمـــا
كـــالصبـــح نـــمّ بثغـــره الاسفـــار
يغشـــى البصـائر نـــور وجهـــك بعـــدمـا اعـــ
ـــتركت على قسما تـــه الأبصـــار
حتـــى عمـــرت بكـــل قلـــب صـــدره
حيـــث الصـــدور مـــن القلـــوب قفـــار
إن تمس في حلـــب ريـــاحـــك غضـــة
فلهـــا بـــأنطـــاكيـــة إعصـــار
وغـــدت جيـــادك بـــالشـــآم مقيمـــة
ولها بـــأطـــراف الـــدروب مغـــار
همم سبقـــت بها إلى مهـــج العـــدى
صرف الـــردى ومسيره إحضـــار

وأرى صباح القمص كان خديعة
فطغى وجاور رليس ثم وجار
سأل الصنيعة غير محقوق بها
والخير يهدم ما بنى الختار
حتى إذا ما غبت أقدم عائثا
اقدام من لم يدن منه قرار
أمضى السلاح على عدوّك بغيه
بالغدر يطعن في الوغى الغدّار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفل
كالليل فيه من الصفيح بهار
جند على جرد أمام صدورها
صدر عليه من اليقين صدار
قد بايع الاخلاص بيعة نصره
ولكل هادي أمّة أنصار
ملك له من عدله ووفائه
جيش به تستفتح الامصار
وإذا الملوك تثاقلت عن غاية
وأرادها خفت به الاقدار
وإذا انتضته إلى الثغور عزيمة
قامت مقام جنوده الاخبار

ولابن منير من قصيدة فيه:

ترنح معطف الزوراء لما
دعاك لزور سنجار لمام
وزلزلت الصعيد وراء مصر
غداة علتك في قطنا الخيام
رجاء هزتيك وتلك خوف
ولو قد شئت ضمهما قرام

بعيشـــك يـــامبيـــد الخيـــل ركضـــا
حمام هـــــنّ تحتـــــك أم حمام

وقال ابن منير أيضا يهنئه بتسلم قلعة حمص من ينال، وأنشده في القلعة قصيدة أوّلها:

ارحهـــا فهـــي أزلام المعـــالي
لهنّ إلى الـــوغـــى تـــوق المغـــالي

أمـــا ومقيلهـــن بكـــل نقـــع
يقـــوّض بـــالهدى عمـــر الضـــلال

وأي سيـــوفـــك الحمـــر الحواشي
منـــزلـــة متـــى دعيـــت نـــزال

مـــواض إن سللـــن جـــزمـــا
نفـــاه مـــن الطلى لفـــظ اعتـــلال

لقـــد غلـــب الصليـــب بحـــر حـــرب
يشيـــب أوارهـــا لمم الليـــالي

وشمـــت لنصر هـــذا الـــديـــن بـــأساً
يحرّم منـــه كـــل حمى حـــلال

وقـــايـــع أتـــرعـــت في كـــل فـــج
وقـــايـــع جـــوّهـــا دامـــي العـــزال

ومنها:

تســـائل حمص عـــن منسي ديـــن
تقـــاضـــاه لـــك الحجـــج الخوالي

فـــواتـــت وهـــي أخـــت النجـــم بعـــدا
ووعـــدا صيـــغ مـــن مطـــل مطـــال

تشـــامـــخ أنفهـــا عـــزاً وشـــدّت
على أن لا تنـــال يـــدا ينـــال

فمازالت رقابك تجدّ نقضا
لما تثنيه من مرر الحبال
إلى أن أطلق الحسناء كرها
وآل إلى ملاوحة المآلي
يصد الوجه عن شما القت
يد الاشم ذي باع طوال
شغلت بها يمينك والمواضي
تكفل أن مصر اللشمال
إذا فتح القتال عليك أرضا
أباحك أختها لا عن قتال

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بافساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فاحتج عليه وغولط، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس، وبعض العساكر بيعفور، فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبره ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا الافرنج بخبره وقرّروا معهم الانجاد عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس وعرف نور الدين خبرهم، فلم يحفل بهم وقال: لاأنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العيث والافساد في الضياع ،وأمر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها، وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول

المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجـة، وأقام إلى مثله فروى الآكام والوهاد، وجرت الأوديـة وزادت الأنهاروامتلأت برك حوران ودارت أرحيتهـا، وعاد ما صـوح من الزرع والنبـات طرياً ، وحشـد الناس بالـدعاء لنور الـدين وقالـوا: هذا ببركته وحسن معـدلته وسيرته، ثم رحـل من منزله بـالأعوج ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العسـاكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجيرالـدين والرئيس وقال: إنني مـا قصدت بنزول هذا المنـزل طلبا لمحاربتكم ولا منـازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمـر كثرة شكاية المسلمين مـن أهل حوران والعربان بأن الفـلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج، وعدم الناصر لهم ولايسعني مع ما أعطـاني اللّــه ، ولـه الحمـد، مـن الاقتــدار على نصرة المسلمين وجهـاد المشركين وكثرة المال والرجـال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم، مع معـرفتي بعجـزكـم عــن حفـظ أعمالكـم والـذب والتقصير الـذي دعـاكـم إلى الاستصراخ بـالأفـرنـج على محاربتـي، وبـذلكـم لهم أمــوال الضعفـاء والمساكين مـن الرعية ظلما لهم وتعـديا عليهـم، وهذا لا يرضي اللّـه تعالى ولا أحد من المسلمين، ولا بـدّ من المعونة مـن ألف فارس مزاحـي العلة تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عـن هذه الرسالة : ليس بيننـا وبينك إلاّ السيف، وسيوافينا مـن الافرنج ما يعيننـا على دفعك إن قصدتنا ونـزلت إلينا، فلما عاد الـرسول بهذا الجواب ووقـف عليه، أكثر التعجـب منه والانكـار له، وعزم على الزحـف إلى البلد ومحاربته في غد ذلـك اليوم، فأرسل اللّـه من الامطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

-٧٦٩٢-

ودخلت سنة خمس وأربعين

ففي مستهل المحرّم تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق والسبب في ذلك أن نور الدين اشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك، واتفق أنه بذل لهم الطاعة، واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السكة، ووقعت الايمان على ذلك، وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة كاملة بالطوق، وأعاده مكرما محترما، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابع عشر محرم، ثم استدعى الرئيس الى المخيم، وخلع عليه خلعة كاملة أيضاً وأعاده الى البلد، وخرج اليه جماعة من الأجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به، ووصل من استماحه من الطلاب والقراء والضعفاء بحيث ما خاب قاصده، ولا أكدى سائله، ورحل عن مخيمه عائداً الى حلب بعد احكام ما قرر، وتكميل ما دبر

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح
وإن شئت صلحا عدّ من حزمك الصلح
وهل أنت إلاّ السيف في كل حالة
فطوراً له حد وطوراً له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها
ترنح من سكر فخلّ القنا تصحو
وما كان كف العزم إلاّ اشارة
إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الاعداء مذ بت جانحا
إلى السلم ما تنوي بذاك وما تنحو

إذا مـــا دمشـــق ملكتـــك عنـــانها
تيقـــن مـــن في إيليـــا أنـــه الـــذبـــح
متـــى التـــف نقـــع الجحفلين على الهدى
فـــلا مهمـــة يحوي الضـــلال ولا سفـــح
إذا سـار نـــور الـــديـــن في الجيـش عـــازمـــا
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـع الصبـــح
تـــركـــت قلـــوب الشرك تشكـــو جـــراحهـــا
فـــلا زالـــت الشكـــوى ولا انـــدمـــل الجرح
صبرت فكـــــان الصبر غير مغبـــــة
فسيـــق إليـــك الملـــك يسعـــى بـــه النجـــح
كـــأنّ القنـــا تجلـــو لـــه وجـــه أمـــره
ولـــو أمهلـــت بلقيـــس مـــا غـــرّهـــا الصرح
بـــدولتـــك الغـــرّاء أصبـــح ضـــدّهـــا
بهيا ولـــولا الحســـن مـــا عـــرف القبـــح
وكـــم مـــن قـــريـــح القلـــب لـــوبـــات واردا
مـــوارد هـــذا العـــدل مـــا مســـه قـــرح
سخـــابـــك هـــذا الـــدهـــر جـــودا على الـــورى
على أنـــــه مـــــا زال في طبعـــــه شـــــح
وقـــد كـــان يمحـــو رســـم كـــل فضيلـــة
ونحـــن نـــراه اليـــوم يثبـــت مـــا يمحـــو
بـــك ابتهـــج الالبـــاب وانتهـــج الحجـــى
وأثمـــــرت الآداب واطـــــرد المدح
ولاذت بـــك التقـــوى، وعـــاذت بـــك العلى
ودانـــت لـــك الـــدنيـــا وعـــز بـــك السرح
فـــلا قلـــب الا قـــد تملكتـــه هـــوى
ولا صـــدر إلاّ قـــد جـــلاه لـــك النصـــح
ومـــــا الجود في الامـــــلاك إلاّ تجارة
فمـــن فـــاتـــه حمد الـــورى فـــاتـــه الـــربـــح

ولم اختصر مـــا قلـــت إلاّ لأننـــي
اعبر عما لا يقـــوم بـــه الشرح

فصل

في فتح عزاز

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب أعزاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الاسر في قلعة حلب، فسر هذا الفتح كافة الناس، وتوجه نور الدين في عسكره إلى أعزاز، ونزل عليها وضايقها، وواظب قتالها إلى أن سهل اللّه تعالى ملكها بالأمان ، وهي على غاية من المنعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائدا إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأوّل.

قلت،وذكر ابن منير فتح عزاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدة أوّلها:

فـــدتـــك القلـــوب بـــألبـــابها
وســـاح الملـــوك بـــأربـــابها

كتـــائب تـــرمـــي جنـــود الصليـــ
ـــب منهـــا بتقطيـــع أصـــلابها

إذا مـــا انثنـــت مـــن قـــراع الكما
ة كســـت وفـــدهـــا وشي أســـلابها

تبرنـــس منهـــا البرنـــس الثيـــا
ب وحلتـــه مـــن وقـــع احـــلابها

عشيـــة غصـــت على إنـــب
نفـــوس النصـــارى بغصـــابها

وقـــام لأحمد محمـــودهـــا
بجـــذع مـــوازن أحـــزابها

تجلى لها حيـــــــــدري المصـــــــــاع
أغلـــــــب مـــــــود بغـــــــلابها
مـــــورث أركـــــاسهـــــا مـــن أب
أكـــــــــول الفـــــــــوارس شرابها
همام إذا أعصـــــــوصبـــــت نبـــوة
دهـــــاهــــــابها شـــــم أعصـــــابها
مضـــــى وجنـــى لـــــك حلـــو الشهـــا
دمـــــا تمطـــــق مــــن صــــابها
وأوصـــى بها لـــــك مـــن بعـــدمـــا
تجرّع ممقــــــــر أو صــــــــابها
واقســـــم جـــــدّك أن لا يليـــــــ
ـــــــق بغيرك ملبــــس أثـــوابها
صبحـــــت دمشـــــق بمشـــــق الجيـــــاد
زبـــــور الــــوغــــى بين أحــــدابها
واصلــــت رأيـــك قبـــل الحســـا
م محمــــــــد جمرة أجـــــــــلابها
فـــــأعطتـــــك مـــــا لم تنلـــــه يـــــد
وفـــازت رقـــاك بـــأصحـــابها
وأنــــت تصرف فضــــل الــــزمــــا
م مـــــن حمص تـــــأخير ركـــــابها
تخوّنها الجور فـــــاستـــــدركـــــت
بعـــــدلـــــك أغبـــــار ظبظـــــابها
وفـــاجـــأت قـــورس بـــالشـــائلات
تمج القنـــــاســـــم اذنـــــابها
فما رمـــــت حتـــى رمـــت بيضهـــا
إليـــــك أزمـــــة ضرابها
وعـــــزت عـــــزاز فـــــاذللتهـــــا
بمجـــــرى مضيـــــق لاسهـــــابها

بـــــا شمـــــخ مـــــن أنفهـــــا منكبـــــا
وأكثـــــر مـــــن عـــــدّ طـــــورابها
دلفـــــت لعيطـــــا أم النجـــــو
م في الأمـــــر ايطـــــاء أتـــــرابها
وعـــــذرا مـــــذ عمـــــرت مـــــا اهتـــدت
ظنـــــون الليـــــالي لاحـــــزابها
تفـــــرعتهـــــا بفـــــروع الـــــوشـــــ
ـــــيج مثمـــــرة هـــــام أوشـــــابها
وعـــــوج إذا انبضـــــت اغمضـــــت
ذكـــــاء لارســـــال نشـــــابها
ومحدود بـــــات تطير الخطـــــوب
مـــــلافـــــظ ألســـــن خطـــــابها
تصـــــوّب عقبـــــان ريـــــب المنـــــون
متـــــى بنتهـــــا بـــــاعقـــــابها
ومـــــا ركعـــــت حـــــول شـــــم الهضـــــا
ب الاسجـــــدن لانصـــــابها
فـــــلاذت بمعتصـــــم بـــــالكتـــــا
ب وهـــــوب الممالـــــك ســـــلابها
بمعتصمـــــي الـــــذرى والهدى
هموس السّرى غير هيـــــابها
محلى المحـــــل بـــــوصـــــف الفتـــــو
ح ووصـــــف التهـــــاني وأربـــــابها
وتعجـــــز مـــــداحـــــه أن يحيـــــ
ـــــط بـــــآدابـــــه فلـــــك آدابهـــــا
بـــــدائع لـــــوردد هـــــرمـــــ
ـــــين بنـــــات حبيـــــب بـــــاحبـــــابها
وأيـــــن ابـــــن أوس وآيـــــاتـــــه
مـــــن الـــــلاء أودت بحســـــابها

مـــن الـــلاء عـــادعتيـــق لها
وردّ عليهـــا ابـــن خطـــابها

فـــأيـــامـــه مـــن حبـــور تكـــا
د يطير بها فـــرط إعجـــابها

لـــك الفضـــل إن راسلتـــك الجيـــا
د وقـــامـــت أدلـــة أنجـــابها

إذا أغتسقـــت هـــمـــم الجائريـــن
أتيـــت السيـــادة مـــن بـــابها

أبـــوك أبـــوهـــا وأنـــت ابنهـــا
العـــريـــق ودميـــه محرابها

أقـــول لمـــؤجـــره بـــالغـــرو
ر تمطـــت هـــواهـــا فـــأهـــوى بها

حـــذار فعنـــد ابتســـام الغيـــو
ث تخشـــى صـــواعـــق الهابها

ولا تخدعـــوا بـــافترار الليـــو
ث فـــالنـــار في بـــرد أنيـــابها

وبقي أطول من هذا:

فصل

في صفة أسر جوسلين

قال ابـن الأثير: سار نـور الديـن إلى بلاد جـوسلين وهي القـلاع التي شمالي حلب، منهـا: تل بـاشر، وعين تاب، وعـزاز، وغيرها مـن الحصون، فجمع جـوسلين الفرنج فـارسهم وراجلهم ولقوا نـور الدين وكـان بينهم حرب شديـدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنـج، وأخذ جوسلين سلاح دار كـان لنور الديـن أسيراً، وأخذ ما معـه من السلاح فـأنفذه إلى

السلطـان مسعود بـن قليج أرسـلان السلجوقـي صاحـب قونيـة واقصرا وغيرهما مـن تلك الأعمال، وكـان نور الـدين قـد تزوج ابنتـه وأرسل مـع السلاح إليـه يقول: قـد انفذت لـك بسلاح صهـرك وسيأتيـك بعد هـذا غيره، فعظمت الحادثة على نور الديـن وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم إن هـو جمع العساكـر الاسـلامية لقصـده جمع جـوسلين الفـرنج وحـذر وامتنع ، فـأحضر نور الديـن جماعة مـن التركمان وبذل لهم الرغـائب من الاقطاع والأموال إن هـــم ظفـروا بجوسلين إما قتلا وإمـا أسراً، فاتفق أن جـوسلين خرج في عسكـره وأغار على طـائفة مـن التركمان فنهب وسبـى فـاستحسـن مـن السبـي امـرأة منهم خـلا معهـا تحت شجـرة فعـاجلـه التركمان، فركـب فرسه ليقـاتلهم فأخذوه أسيراً فصـانعهم على مال بـذله لهم، فرغبـوا فيه وأجـابوه إلى ذلـك وأخفوا أمره عـن نور الـدين، فـأرسل جـوسلين في إحضـار المال فـأتـى بعض التركمان إلى نـائب نـور الـديـن بحلـب فأعلمـه الحال، فسير معه عسكـرا أخـذوا جوسلين مـن التركمان قهراً وكـان نور الديـن حينئذ بحمص، وكـان أسره من أعظم الفتـوحات على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين وكـان هـو يتقـدّم على الفـرنـج في حـروبهم لما يعلمـون مـن شجاعتـه وجودة رأيـه وشدّة عـداوته للملـة الاسلاميـة وقسوة قلبـه على أهلها، وأصيبـت النصرانية كـافة بأسره، وعظمـت المصيبة عليهـم بفقده وخلت بـلادهم من حاميهـا، وثغورهم مـن حافظها، وسهل أمـرهم على المسلمين بعـده، وكـان كثير الغـدر والمكـر لايقـف على يمين ولا يفـي بعهد، طالما صالحه نـور الدين وهادنه ،فإذا أمن جانبـه بالعهود والمواثيق نكـث وغـدر، فلقيـه غـدره وحاق بـه مكـره (ولايحيـق المكـر السيء إلاّ بأهله)(٥٨)فلما أسر تيسر فتـح كثير من بـلادهم وقـلاعهم، فمنهـا عين تاب و،عزاز وقـورس ،والراوندان ،وحصن البـارة، وتل خالد،وكفـر لاثا وكفر سـود ،وحصن سرفـوت بجبل بنـي عليم ،ودلـوك ،ومرعـش ،ونهر الجوز، وبرج الرصاص.

قال: وكان نور الدين رحمه الله إذا فتح حصنا لايرحل عنه حتى يملأه رجالا وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصرة تتجدّد للفرنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غير محتاجة إلى شيء.

وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا منهم القيسراني، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنس وأسر جوسلين وأخذ بلاده:

دعا ما ادعى من غره النهي والأمر
فما الملك إلا ما حباك به القهر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها
تصرف فيما شاء عن أذنه الدهر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلى
فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجدّ أمسى دون غايته المنى
فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر
ولم لا يلي أسنى الممالك مالك
زعيم بجيش من طلائعه النصر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكها
حبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها
سمت بك حتى انحط عن نسرها النسر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها
وخطب العلى بـ. السيف ما دونه ستر
جلاها الك الاقبال حورية السنا
عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة
نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت اليها الأمن والعدل نحلة
فامست ولا اسر تخاف ولا إصر

فـان صـافحـت يمنـاك مـن بعـد هجـرهـا
فـاحلى التـلاقـي مـاتقـدّمـه هجـر
وهـل هـي الا كـالحصـان تمنعـت
دلالا وان عـز الحيـا وغـلا المهـر
ولكـن إذا مـا قستهـا بصـداقهـا
فليـس لـه قـدر وليـس لها قـدر
هـي الثغـر أمسـى بـالكـراديـس عـابثـا
وأصبـح عـن بـاب الفـراديـس يفتر
على انها لـو لم تجبـك إنـابـة
لا رهقهـا مـن بـأسـك الخوف والـذعـر
فـامـا وقفـت الخيـل نـاقعـة الصـدى
على بـردا مـن فـوقهـا الـورق النضر
فمـن بعـد مـا أوردتها حـومـة الـوغـى
وأصـدرتها والبيـض مـن علـق حمر
وجللتهـا نقعـا أضـاع شيـاتها
فـلا شهبهـا شهـب ولا شقـرهـا شقـر
على النهـر لما كـاثـر القصـب القنـا
مكـاثـرة في كـل نحـر لها نحـر
وقـد شرقـت أجـرافـه بـدم العـدى
إلى ان جـرى العـاصي وضحضـاحـه غمـر
صـدعتهـم صـدع الـزجـاجـة لا يـد
لجابـرهـا مـا كـل كسر لـه جبر
فـلا ينتحـل مـن بعـدهـا الفخـر دائل
فمـن بـارز الابـرنـز كـان لـه الفخـر
ومـن بـز انطـاكيـة مـن مليكهـا
أطـاعتـه ألحاظ المؤللـة الخزر
أخـو الليـث لـولا غـدرة نـزعـت بـه
إلى الـذئب إن الـذئب شيمتـه الغـدر

أتـــى رأســـه ركضـــا وغـــودر شلـــوه
وليـــس ســـوى عـــا في النســـور لـــه قبر
وقـــد كـــان في استبقـــائه لـــك منـــة
هـــي الفتـــك لـــو لم تغضـــب البيـــض والسمـــر

كما أهـــدت الاقـــدار للقمـــص اسره
وأسعـــد قـــرن مـــن حـــواه لـــك الاسر
طغـــى وبغـــى عـــدوا على غلـــوائه
فـــأوبقـــه الكفـــران عـــدواه والكفـــر
والقـــت بـــأيـــديها إليـــك حصـــونـــه
ولـــو لم تجب طـــوعـــا الجاء بها القسر
وأمســـت عـــزاز كـــاسمهـــا بـــك عـــزة
تشـــقّ على النسريـــن لـــو أنها الـــوكـــر
فسر وامـــلأ الـــدنيـــا ضيـــاء وبهجـــة
فبـــالافـــق الـــداجـــي إلى ذا السنـــا فقـــر
كـــأنـــي بهذا العـــزم لا فـــل حـــده
وأقصـــاه بـــالأقصـــى وقـــد قضي الامـــر
وقـــد أصبـــح البيـــت المقـــدس طـــاهـــرا
وليـــس ســـوى جـــاري الـــدمـــاء لـــه طهـــر
وقـــد أدت البيـــض الحداد فـــروضهـــا
فـــلا عهـــدة في عنـــق سيـــف ولا نـــذر
وصلـــت بمعـــراج النبـــي صـــوارم
مســـاجـــدهـــا شفـــع وســـاجـــد هـــاوتـــر
وإن يتيمـــم ســـاحـــل البحـــر مـــالكـــا
فـــلا عجـــب أن يملـــك الســـاحـــل البحـــر
سللـــت سيـــوفـــا أثكلـــت كـــل بلـــدة
بصـــاحبهـــا حتـــى تخوّفـــك البـــدر
إذا ســـار نـــور الـــديـــن في عـــزمـــاتـــه
فقـــولا لليـــل الافـــك قـــد طلـــع الفجـــر

ولـــو لم يسر في عسكـــر مـــن جنـــوده
لكـــان لـــه مـــن نفســـه عسكـــر مجر

مليـــك سمـــت شـــم المنـــابـــر بـــاسمـــه
كما زهيـــت تيهـــا بـــه الأنجـــم الـــزهـــر

فيـــا كعبـــة مـــا زال في عـــرصـــاتها
مـــواســـم حـــج لا يـــروّعهـــا النفـــر

خلعـــت على الايـــام مـــن حلـــل العلى
مـــلابـــس مـــن أعـــلامهـــا الحمـــد والشكـــر

وتـــوّجـــت ثغـــر الشـــأم منـــك جـــلالـــة
تمنـــت لها بغـــداد لـــو أنها الثغـــر

فـــلا تفتخـــر مصر علينـــا بنيلهـــا
فيمنـــاك نيـــل كـــل مصر بها مصر

رددت الجهـــاد الصعـــب سهـــلا سبيلـــه
ويـــا طـــالما أمســـى ومسلكـــه وعـــر

وأطمعـــت في الافـــرنـــج مـــن كـــان بـــأســـه
يخوّف أن يعتـــاده منهـــم فكـــر

وأقحمـــت جـــرد الخيـــل أعلى حصـــونها
ولـــولاك لم يهجـــم على كـــافـــر كفـــر

ومـــن يـــدعـــي في قتلـــك الشرك شركـــة
إذا لم يكـــن عنـــد القـــوافي لـــه ذكـــر

هـــي القـــانتـــات الحافظـــات فـــروجهـــا
فشـــاهـــدهـــا عـــدل ورائقهـــا سحـــر

ولـــو لم يكـــن في فضلهـــا وكمالها
ســـوى أنها مـــن بعـــد عمـــر الفتـــى عمـــر

وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أوّلها:

أمـــا وخيـــال زار ممـــن أحبـــه
لقـــد هـــاج مـــن ذكـــراه مـــا لا أغبـــه

إذا مـــا صبـــا قلـــب المحـــب إلى الصبـــا
ذكـــرت نسيما بـــالثغــــور مهبـــه
فيـــا نفحـــات الشـــأم رفقـــا بمهجـــة
يحامـــى عليهـــا مـــدنـــف القلـــب صبـــه
فـــلا تســـألـــن الصـــب أيـــن فـــؤاده
فـــإن فـــؤاد المرء مـــع مـــن يحبـــه
وفي شعـــب الاكـــوار مـــن هـــو عـــالم
غـــداة استطـــار البرق مـــن طـــار لبـــه
يشيـــم ثغـــور المزن تهمـــى كـــانها
سنـــا بشر نـــور الـــديـــن تنهـــل سحبـــه
إذا مـــا سما في مبهـــم الخطـــب وجهـــه
تمزق عـــن بـــدر الـــدجنـــة حجبـــه
تـــولـــد بين الغيـــث والليـــث والتقـــى
منـــافســـة أي الثـــلاثـــة تـــربـــه
يعـــدّ مضـــاء في الظبـــى لا وضربـــه
بها قلـــل الاعـــداء مـــا السيـــف ضربـــه
مكين الحجـــى أرضـــى الـــزمـــان بنفســـه
إلى الآن حتـــى لان وانقـــاد صعبـــه
حمى قبـــة الاســـلام بـــالخيـــل فـــاغتـــدت
وأوتـــادهـــا جـــرد الطعـــان وقبـــه
فكـــم هبـــوة أوقعـــن بـــالكفـــر تحتهـــا
فما انقشعـــت الا وللـــذل جنبـــه
كيـــوم الـــرهـــا الـــورهـــاء والهام يـــانـــع
مليّ بـــرعـــي الهنـــد وأنـــى خصبـــه
وشهبـــاء هـــاجتهـــا وغـــى صرخـــديـــة
ثنـــاهـــا وليـــل الحرب ينقـــض شهبـــه
وعـــارم يـــومـــا بـــالعـــريمـــة فـــاغتـــدت
كـــوادي ثمـــود إذ رغـــا فيـــه سقبـــه

وعـاصي على العـاصي بـأرعـن خـاطـب
دم الأفـك حتـى أنكـح النصـل خطبـه
بـانّـب لما أكسـب المال وانثـى
بصـاحـب أنطـاكيـة وهـو كسبـه
غـداة هـوى شطـريـن للسيـف رأسـه
وللـرّمـح حتـى تـوّج الـرأس قلبـه
على حين للخطـيّ فيـه عـوامـل
يعـاقبـه خفـض الحسـام ونصبـه
وقـائع محمـوديـة النصر لم تـزل
غـريبـا بها عـن مـوطـن السيـف غـربـه
يقـوم مقـام الجيـش فيهـا وعيـده
وتفعـل افعـال الكتـائب كتبـه
وحين انتضتـه عـزمـة مـن قـرابـه
مضـى وهـو نصـل والممالك قـربـه
إلى أن دعتـه ربها كـل بلـدة
فليـس مـن الأمصـار مـا لا يـربـه
ولما تـرى بـالقمـص عجـب هـوى بـه
على أم رأس البغـي والغـدر عجبـه
فـأصبـح في الحجلين ينكـر خطـوه
بعيـد على الـرجلين في السعـي قـربـه
تعـاقبـه البشرى بـأخـذ حصـونـه
فيـا عـانيـا ضرب البشـائر ضربـه
تنـاجـي عـزاز بـاسمـه تـلّ بـاشر
فيلعنـه لعـن الصريـح وسبـه
فـان يكـن المقهـور مـن ثـل عـرشـه
فهـذا عمـود الكفـر قـد طـاح طنبـه
فقـل للمـلوك الخافقين نصيحـة
كـذا عـن طـريـق الليـث يـزأر غلبـه

وخلــوا عــن الافــاق فــالشرق شرقــه
بحكــم الــردينيــات والغــرب غــربــه
ولا يعصــم بــالــدرب طــاغ على القنــا
فــإن القنــا في ثغــرة النحــر دربــه
رحيــب فضــاء الحلــم عــن ذات قــدره
إذا ضــاق مــن صــدر ا لمملــك رحبــه
عفــوّ عــن الجاني يكــاد الــذي جنــى
بكــرّ بــه شــوقــا إلى العفو ذنبــه
أمتخـــذ الاخــلاص للّــه جنــة
ومــن يعتصــم بــاللّــه فــاللّــه حسبــه
أبــوك استردّ الشــأم بــالسيــف عنــوة
ولــلــروم بــأس طــا لماغــال خطبــه
إذا ذب عــن أضغــاث دنيــاه مــالــك
فــانــت الــذي عــن حــوزة الــديــن ذبــه
رأيــت اتبــاع الحق خير مغبــة
فــأفــرجــت عــن رأي يسرك غبــه
وأوضحــت مــا بين الفــريقين سنــة
بهاعــرف المربــوب مــن هــو ربــه
وبينــت نــور الــديــن مــاكــان يبتغــي
دليــلا بــأن اللّــه مــن أنــت حــزبــه

وقال ابن منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:
هيهــات يعصــم مــن أردت حــذار
أنــى ومــن أوهــاقــك الاقــدار

ومنها:
طلعــت عليــك بجــوسلين ذريعــة
لاسحــل انشــاهــا ولا امــرار

وسعـــادة مـــازلـــت تمرى خلفهـــا
فيشـــف وهـــو النــــاتـــق المدرار
فـــارتـــك مـــا يجنـــي الـــوفيّ وفـــاؤه
وأرتـــه كيـــــف تحين الغـــدّار
عـــــود أمـــــرّ على ابـــــارك طلعـــــه
فـــاحيـــــل ذاك البر وهـــــو بـــــوار
مـــازلـــت تنعـــم وهو يكفر عـــاتيـــا
واللـــه يهدم مـــابنـــى الكفـــار
حتـــى أتـــاح لقـــومـــه مـــاجـــرّه
لثمـــود مـــن عقـــر الفصيـــل قـــذار
اسرى فـــأصبـــح في بـــراثـــن اسره
لازال يـــدمـــي ظفـــره الاظفـــار
يهب التـــلاد مـــن البـــلاد ومـــا حـــوت
إن السماحـــة للبحـــار بحـــار
يقظـــان يخشـــى اللّـــه في خلـــواتـــه
لامترف لاه ولا جبـــــــــــار
نصـــب المراقـــب للعـــواقـــب نـــاظـــرا
فيهـــا الـــذلـــك تـــربـــأ الابـــرار
لا كـــالـــذيـــن تعجلـــوا حســـواتها
وتغلســـوهـــا بعـــد وهـــي خســـار
درجـــوا وأدرج في ملـــف رفـــاتهم
ســـوءى تســـاء لـــذكـــرهـــا الآثـــار
والمرء مـــن يطـــوي فينشر طيـــه
مـــا أودعتـــه صـــدورهـــا الاخيـــار
قـــل لـــلأولى نـــامـــوا على نـــامـــاتـــه
مـــاكـــل هبـــة بـــارح اعصـــار
لاتـــأمنـــوا في اللّـــه بطشـــة ثـــائر
للّـــه مـــل ء سريـــره اسرار

صـــــاف إذا كـــــدر المعـــــادن عـــــادل
إن حـــــاف حكـــــام الملـــــوك وجـــــاروا.
أعلى أبـــــوه لـــــه النجـــــاد وشيـــــد في
صهـــــواتها ممـــــا ابتنـــــاه منـــــار
محمـــــودا المحمـــــود آثـــــارا إذا
نظمـــــت على جيـــــد الـــــدجـــــى الاسمار
ذانـــــت لـــــه الايـــــام صـــــاغـــــرة كما
دانـــــت لـــــه ظلـــــه الامصـــــار

له من أخرى أوّلها:
مـــــا الملـــــك الا مـــــا حـــــواك نجـــــاده

يقول فيها:
وتـــــديـــــن حســـــده لمحكـــــم آيـــــة
والفضـــــل مـــــا شهـــــدت بـــــه حســـــاده
شمـــــس إذا مـــــا الحرب زرجيـــــوبها
حـــــل المعـــــاقـــــد كـــــرّه وطـــــراده
ألـــــوى ألـــــدّ حمى الشريعـــــة جهـــــده
وأذل نـــــاصيـــــة الضـــــلال جهـــــاده
صعـــــق البرنـــــس وقـــــد تـــــلالأ بـــــرقـــــه
واطـــــار ســـــاكـــــن جـــــأشـــــه ارعـــــاده
ولى وقـــــد سلـــــت فسلـــــت ضغنـــــه
زبـــــر تلقـــــى فـــــودهـــــن فـــــؤاده
مستلئما مستسلما لاعـــــدّه
ردّ المنـــــى عنـــــه ولا استعـــــداده
ولجوسلين احتثهـــــن فـــــاصبحـــــت
نهبـــــى لهن بـــــلاده وتـــــلاده
جـــــاءت بـــــه بعـــــد الشماس عـــــوابـــــس
قـــــود يلين لعنفهـــــنّ قيـــــاده

بـــــه تصيـــــد لـــــك السعـــــود وقلما
ينجـــو بخير مـــــن أردت مصـــــاده
دانـــــى لـــــه قينـــــاه أدهـــــم كلما
غنـــــاه طـــــار شما تـــــه عـــــوّاده
سلبـــــت عـــــزاز عـــــزاءه وبقـــــورس
محجـــوبـــة فـــرشـــت لـــه اقتـــاده
وبتـــل خـــالـــديـــوم تـــل جبينهـــا
خلـــط الثـــرى بجبينـــه اخـــلاده
وغـــدا يبـــاشر تـــل بـــاشر قلبـــه
بـــاحـــرّ مـــا حمل القلـــوب عـــداده
منـــت أمـــانيـــه بشـــائرك التـــي
عـــادت لهن مـــآتما أعيـــاده
وحبـــوت ملكـــك مـــن نظيـــم ثغـــوره
حليـــاتتـــايـــه تحتـــه أجيـــاده
لايخدعنـــك فـــانها اصـــلاح مـــن
يخشـــى انتشـــاط خنـــاقـــه افســـاده
أنـــزلـــه حيـــث قضـــت لـــه غـــدراتـــه
واحلـــه طغيـــانـــه وعنـــاده
في حيـــث لا يـــأوي لـــه سبحـــانـــه
حنقـــا ويكشـــط جلـــده جـــلاده
وثـــن هـــدمـــت بنـــي الضـــلال بهدمـــه
وعـــدت عبـــادك عنـــوة عبـــاده
فتكـــت بـــه آيـــات مـــن لمحمـــد
ولـــدينـــه ابـــداؤه وعـــواده
او انشـــط البلـــد الحرام تـــواءمـــت
تثنـــي عليـــه تـــلاعـــه ووهـــاده
ولـــــو ان منبره أطـــــاق تكلما
نطقـــت بباهـــر فضلـــه اعـــواده

نـــام الخليفة واستطـــال لـــذبـــه
عـــن ســـدتيـــه واستطير رقـــاده
رجعـــت لـك العـــز القـــديـــم سيـوفـــه
مـــازان رونـــق مـــائهـــا اغماده
مـــن بعـــد مـــا نعـــق الصليـــب لحزبـــه
ورأيـــت زرع الملـــك حـــان حصـــاده
انـــى تميـــل الحادثـــات رواقـــه
بهبـــوبها وابـــن العماد عماده

فصل

قال ابـن الاثير : لما سار نـور الديـن إلى قلاع جـوسلين ملك بعضـا، وأبقى بعضاً ، فـاجتمعت الفرنج فـالتقوا مع نور الـدين بدلوك فهـزمهم واستولى على دلوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن منير قصيدة منها:

هـــي الخيـــل خير عتـــاد الكـــريـــم
يحضر للهـــم احضـــارهـــا
ضغمـــت فـــأدررت أفـــواههـــا
وسرت فقلمـــت أظفـــارهـــا
الام ولم تبـــق ممـــا غـــزو
ت قلـــوبـــا تكـــابـــد إذ عـــارهـــا
أمـــا في مفصـــل آي القـــرا
ع أن تضـــع الحرب أوزارهـــا
عســـى إن يُحم لهذا الحما
م أن يتـــوكـــر أوكـــارهـــا
ومـــا يـــوم مـــن غلتـــه واحـــد
فتـــودعـــه اللســـن أشعـــارهـــا
وأيـــن المقـــاول ممـــا فعلـــت
ولـــو شفـــع الفطـــراء كثـــارهـــا

فكـــم اجلبـــت خلفـــك الجافخـــا
ت(٥٩) فصلصل فخرك فخارها

أعــــدت بعصرك هـــــذاالانيـــــ
ـــق فتـــوح النبـــي واعصـــارهـــا

وكـــان مهـــاجـــرهـــا تـــابعيـــ
ـــك وانصـــار رأيـــك انصـــارهـــا

فجـــــدّدت اســـــلام سلمانها
وعمـــــر جـــــدك عمارهـــــا

ومـــا يـــوم إنـــب الاكتيــــ
ـــك بـــل طـــال بـــالبـــوع اشبـــارهـــا

وأيـــامـــك الغـــر مـــن بعـــده
يعيـــد إلى الطـــي اغـــرارهـــا

ولما هبيـــت ببصرى سمكـــت
بـــاهبـــاء خيلـــك أبصـــارهـــا

ويـــوم على الجون جـــون السرا
ةعـــز فسعطهـــاعـــارهـــا

صـــدمـــت عـــريمتهـــا صـــدمـــة
أذابـــت مـــع الماء أحجـــارهـــا

وفي تبـــل بـــاشر بـــاشرتهم
بـــزحـــف تســـور أســـوارهـــا

وإن دالكتهـــم دلـــوك فقـــد
شـــدّدت فصـــدقـــت أخبـــارهـــا

وشـــب التـــدامـــر حتـــى طلعـــت
عليهـــا فـــولتـــك أدبـــارهـــا

مشـــاهـــد مشهـــورة نمنمـــت
على صفحـــة الـــدهـــر اسطـــارهـــا

يلـــذ الاغـــاني تـــرجيعهـــا
ويستسفـــر السفـــر أسفـــارهـــا

بنيـــــت لـــــوفــــد المنـــى كعبــــة
تجير المعلــــــق استــــارهـــــا
وملكــــــــــــت الاراضي مغبرة
تكـــــاد تحدّث أخبـــــارهـــــا
فمازلـــت تـــدجـــن حتـــى محو
ت دجـــاهـــا وشعشعـــت أنـــوارهـــا
وصلـــت فـــأعـــززت مسكينهـــا
وصلـــت فـــأذللـــت أبـــارهـــا
وصغـــت حلى مـــن عـــلاً أحكمـــت
على عنـــق الـــدهـــر أزرارهـــا

قـال أبو يعلى : في رجب وردت الاخبار من ناحية نور الدين بظفـره بعسكر الأفـرنج النازلين بازائه قـريبا من تـل باشر، وعظيم النكايـة فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد الذي كان مضايقه ومنازله.

قال : وفي أيـام من محرم وصـل جماعة مـن حجاج العـراق وخراسـان : المأخوذين في طريق الحج عند عودهـم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة مـا نزل مثلها بـأحد في السنين الخاليـة، ويكون أبشع منهـا، وذكر أنه كـان في هذا الحاج مـن وجوه خـراسان وأعيـانها وفقهائهـا وعلمائها وقضاتها وخواتين أمراء العساكـر السلطانية والحرم العدد الكثير، والاموال الجمـةوالأمتعة الـوافـرة فـأخذ جميـع ذلـك وقتـل الأكثر، وسلـم الاقـل، وهتكـت النساء وسلبـن وهلـك من هلـك بـالجوع والعطـش، فضاقـت الصدور لهذه النازلـة فكسي العاري منهم وأطلق لهم ما استعـانوا به على عودهـم إلى أوطانهم مـن أصحاب المروءة بـدمشق(ذلـك تقديـر العزيـز العليم)[٦٠].

فصل

قال: وكان مجاهد الدين بزان قد توجه إلى حصنه صرخد ليتفقد أحواله، فعرضت نفرة بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الاغراض والفساد، واقتضت الحال استدعاء مجاهد الدين لاصلاح الحال فوصل وتم ذلك بوساطته على شرط ابعاد الحاجب يوسف صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، و توجهوا ولم يتعرض لشيء من أموالهم وقصد بعلبك فأكرمه واليها.

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخلف المستمر بين وزيرها ابن مصال وبين الأمير المظفر ابن السلار، ووقوع الحرب وسفك الدماء إلى أن أسفرت الحال عن قتل ابن مصال الوزير وانتصاب ابن السلار موضعه في الوزارة.

قال: وفيها في سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك ابن الفقيه عبد الوهاب الحنبلي، وكان إماما فاضلا مناظرا مستقلا مفتيا على مذهب الامامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدّم، وكان يعرف اللسان الفارسي مع العربي، وهو حسن الحديث في الجدّ والهزل، وكان له يوم مشهود ودفن في جوار أبيه وجدّه في مقابر الشهداء.

قال: وتوفي عقيب وفاته القاضي النقيب فخر الدولة أبو الحسين بن أبى الجنّ ، وتفجع الناس لخيريته وشرف بيته.

- ٧٧١٣ -

ودخلت سنة ست وأربعين

ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدحه ابن منير بقصيدة يحرضه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماه وهو محاصر دمشق، وقد تخلف عن الخدمة لمرض عرض له منها:

اخليفة اللّه الذي ضمنت له
تصديق واصفه سراة المنبر
لا المستطيل بمصر ظل قصوره
والمستطال إليه شقة صرصر
يا نور دين اللّه وابن عماده
والكوثر بن الكوثر بن الكوثر
صفر بحد السيف دار أشائب
عقلوا اجيادك عن بنات الاصفر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقدوا
نارا تحش بهم غدا في المحشر
اذكوا بجلق حرها واستسعرت
لفحاتها بين الصفا والمشعر
شردتهم من خلفهم مستنجدا
ما ظاهر الكفار من لم يكفر
لا تعف بل سق الهدى نفس الذي اد
رع الضلال على أغر مشهر
قلده ما اهدى علي لمرحب
فلقد تهكم في الخداع الخيبري
ما الغش ممن أمه نصرانة
لم تختتن كالغش من متنصر
اذكت لنا هذي العزائم لاخبت
ما غار من سنن الملوك الغبر

اثقـــــاب اراء المعـــــز وخفـــــق را
يـــات العـــزيـــز ويقظـــة المستنصر
شمـــر فقـــد مـــدّت إليـــك رقـــابها
لا يـــدرك الغـــايـــات غير مشمـــر
أولســت مـــن مـــلأ البسيطـــة عـــدلـــه
واجتـــب بـــا لمعـــروف أنـــف المنكـــر
حـــدب الاب البر الكبير ورأفـــة الـــ
ـــأم الحفيـــة بـــاليتيـــم الاصغـــر
يـــاهضبـــة الاســـلام مـــن يعصـــم بها
يـــؤمـــن ومـــن يتـــول عنهـــا يكفـــر
كـــانـــوا على صلـــب الصليـــب سرادقـــا
انبـــت بنيتـــه بكـــل مـــذكـــر
آثـــارهـــم نجـــس اذال المسجـــد الـــ
ـــأقصى فصـــن مـــادنســـوه وطهـــر
جـــار الخليـــل ومـــن بغـــزة هـــاشـــم
بلهـــامـــك المتـــدمشـــق المتمصر
بعـــرمـــرم صلمـــت وعـــاوعـــه عـــرى
اسماع جيحـــون وسيـــف البربـــر
يفتر عـــن ملـــك الملـــوك منحـــل الـــ
ـــأنـــواء بـــل سعـــد السعـــود الأكبر
عـــن طـــاعـــن الفـــرســـان غير مكـــذب
ومتمـــم الاحســـان غير مكـــدر
بـــدر الجحـــافـــل والمحـــافـــل فـــارس الأ
ســـاد في غـــاب الـــوشيـــج الاسمـــر
ملـــك تســـاوى النـــاس في أوصـــافـــه
عـــذر المقـــلّ وبـــان عجـــز المكثـــر
يـــا أيها الملـــك المنـــادي جـــوده
في ســـائر الآفـــاق هـــل مـــن معسر

إن القصـــائد أصبحـــت أبكـــارهـــا
في ظـــل ملكـــك غـــاليـــات الأمهـــر
إن كنـــت أحييـــت ابـــن حمدان لها
فـــانـــا الـــذي غبرت في وجـــه السري
ولأنـــت أكـــرم مـــن أنـــاس نـــوّهـــوا
بـــاسـم ابـــن أوس واستخصـــوا البحتري
ذلـــت لـــدولتـــك الـــرقـــاب ولا تـــزل
ان تغـــز تغنـــم أو تقـــاتـــل تظفـــر

وكتب إليه من حماه أيضا وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول:

أبـــوك أب لـــو كـــان للنـــاس كلهـــم
أبـــا ورضـــوا وطء النجـــوم لفنـــدوا
ومـــا مـــات حتـــى سـد ثلمـــة ملكـــه
بـــك اللّـــه تـــرمـــي مـــارمـــاه فتصرد
صدمـــت ابـن ذي اللغـديـن فـانحـل عقـده
وكـــا السلـــك قـــد أمســـى يحل ويعقـــد
يقلـــب خلـــف السجـــف عينـــا سخينـــة
ويبكـــي بـــأخـــرى ذات شتر ويسهـــد
ولا غـــرو قـــد أبقـــى أبـــوه وجـــده
لـــه كـــل يـــوم ثـــوب عجـــز يجدّد
فيـــا راكبـــا أمـــا عـــرضـــت فبلغـــن
بيـــوتـــا على جيرون بـــالـــذل تعمـــد
وقـــل لمبيـــد الـــديـــن وهـــو مجيره
بـــزعـــم لـــه وجـــه الحقيقـــة أربـــد
حملـــت الصليـــب بـــاغيـــا ونبـــذتـــه
وثغـــرك مطـــووس يبـــاب وأدرد
وحـــاربـــت حـــزب اللّـــه واللّـــه نـــاصر
لنـــاصره وديـــن أحمد أحمد

تنصرت حينـــا والبـــلاء مـــوكـــل
ولا بــد مــن يــوم بــه تتهـــوّد
وأقســم مـــا ذاق اليهـــود بـــا يليـــا
ومـــوضعهـــا مـــن بختنصر أســـود
كبعـــض الـــذي جـــرّعتـــه فسرطتـــه(٦١)
وأيـــد فيـــه مـــن عماك المؤيـــد

ولا يتـــه عـــزل اليـــك مـــوجـــه
وتصحيفـــه قتـــل عليـــك مـــؤبـــد
رمـــاك ببـــاقـــلا دمشـــق فلـــم تكـــن
ســـوى بقلـــة حمقـــاء بـــالحمـــق تحصـــد
وجـــالـــدت جـــلادا وأنـــت مـــؤنـــث
تـــذكـــرت والجلاد أدهـــى وأجلـــد
تطـــاولـــت لأنفـــس تسمـــى ولا أب
وراءك زحفـــا إنما أنـــت مقعـــد
امسعـــاة نـــور الـــديـــن تبغـــي ودونها الـــ
ـــأسنة تبر والعـــوامـــل تعضـــد
بمحمـــود المحمـــود سيفـــا وســـاعـــدا
حملـــت لقـــد نـــاجتـــك صما مـــؤيـــد
وهـــل يستـــوي ســـارتـــأســـد طـــاويـــا
ونشـــوان يعلـــو معصما ويـــؤيـــد
تنصرت أمـــا بـــل تمجســـت والـــداً
وعماً فعـــرق الكفـــر فيـــك مـــردّد
تخذت بنـــي الصـــوفي أسرا وأسرة
لكـــي يصلحـــوا مـــا في يـــديـــك فـــأفســـدوا
لعمـــري لنعـــم العبـــد أنـــت تجيعـــه الـــ
ـــموالي وتـــوليـــه هـــوانـــا فيحمـــد
إليكـــم بنـــي العـــلات عـــن متشـــاوس
لـــه الشـــأم مـــرفـــا والعـــراق مـــرفـــد

مـــا مصر إلاّ بعـــض امصـــاره التـــي
إلى أمـــره تسعـــــى قماء وتحفـــــد
انيبـــوا إليـــه فهـــو أرحـــم قـــادر
لـه الصفـح ديـن واقبلـوا النُصـح تـرشـدوا
ولا تـــرشفـــوا نفـــس المؤيـــد إنـــه
عـــن الخير يـــروي أو إلى المين يسنـــد
وفـــرّوا إلى مـــولاكـــم والـــذي لـــه
عليكـــم أيـــادوسمهـــا ليـــس يجحـــد
ولا تكفـــــروه إنما أنتـــــم لـــــه
ومنـــه ويـــوم عنـــد حـــوران يشهـــد
غـــداة على الجولان جـــول وللظبـــى
رعـــود فـــريـــص الموت منهـــن يـــرعـــدُ
ولما اكفهـــرّ اليـــوم واربـــدّ وجهـــه
وعـــزّ مـــرهـــون وفـــر مـــزبـــد
وأيقـــن مـــن بين السـديـــر وجـاسـم
بـــان الحرار الســـود بـــالجرد تجرد
ردتهم على بصرى وصرخـــــدّ خيلـــــه
وقـــد أبصرت بصرى رداهـــا وصرخـــد
وطـــاروا تهز المرهفـــات طـــلاهـــم
كما انصـــاع مـــن اســـد نعـــام مشرد
وليلـــة ألقـــى الشريـــك بـــالمرج بـــركـــه
ومـــازج نيران الـــوغـــى تتـــوقـــد
رمـــى وأخـــوه مغـــرب الشمـــس دونكـــم
بمشرقهـــا غضبـــان يعـــدو ويسئـــد
فمـــذ وردت مـــاء الارنـــط مغـــذة
أثـــارت بثـــور اغلـــة ليـــس تبرد
أيـا سيـف شـامتـه يـدا الملـك صـارمـا
فيمهمـــــد إذ يسري ويسري فيهمـــــد

دمشـــق دمشـــق إنّما القـــدس سرحـــة
ومـــركـــزهـــا صرح عليهـــا ممـــرد

حموهـــا الكـــي يحمـــوا وقـــد بلـــغ المدى
بهم أجـــل حتـــم وعمـــر محدّد

متـــى انـــاراء طـــائر الفتـــح صـــادحـــا
يـــرفـــرف في أرجـــائهـــا ويغـــرد

وله من قصيدة أخرى:

نـــذرك بـــالغـــوطتين قـــد ضمنـــت
ربـــوتها ربعـــه ومقـــراهـــا

أطلـــع لها الشمـــس مـــن جبينـــك لم
تـــرج ســـواهـــا في النـــوم جفنـــاهـــا

فـــالخيـــل صـــور إلى تســـاهـــم سهميـــ
ـــها وملهـــى في بيـــت لهيـــاهـــا

دولـــة مـــن دانـــت البـــلاد لـــه
وعمهـــا ظلـــه فـــأغنـــاهـــا

لا بســـواهـــا تليـــق بهجتهـــا
ولا ســـواه تبغـــي رعـــايـــاهـــا

قال أبـو يعلى: وفي عاشر المحـرم نزلت أوائل عسكـر نور الـدين على أرض عذرا من عمل دمشق وما والاها ، وفي الغـد قصد فريق وافر منهم ناحية السهـم والنيرب وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشـق، فلما خرج منها إليهم أسرع النـذير إليهم فحذرهـم وقد ظهر الكمين فانهزمـوا إلى البلد، وفي الغـد نزل نـور الـدين بعسكـره على عيون فـاسريـا بين عذرا ودومـة، وامتـدوا إلى تلك الجهـات ونـزلـوا من الغـد في أراضي حجيرا وراويـة في الخلـق الكثير والجم الغفير، وانبسطـت أيـدى المفسـديـن مـن العسكـر الدمشقي والأوباش من أهل العيث والفساد في زروع الناس فحصدوها، وفي الثمار فأفنـوها بلا مـانع ولادافـع ، وتحرك السعر وانقطعت السـابلة،

ووقع التأهب للحصار ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلاّ صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلَم يعد الجواب إليه بما يرضاه فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبلي البلد.

قلت: هو الذي يسمى في زماننا بمقبرة المعتمد بين مسجد القدم ومسجد فلوس.قال: وهذا منزل ما نزله أحد من مقدمى العساكر فيما سلف من السنين، وأهمل الزحف إلى البلد اشفاقا من قتل النفوس ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح وزاد انكارهم لمثل هذه الاحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحفة ولا محاربة، فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر فرحل العسكر النوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فذايا وحلقبلتين والخامسين المصاقبة للبلد، وما عرف في قديم الزمان من أقدم على الدنو منها، ثم رحل في العشرين من صفر إلى ناحية داريا لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد لقوّة عزمه على لقائهم، وصار العسكر النوري في عدد لايحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لايأذن لأحد من عسكره في التسرع والظهور، ولايعودون إلاّ خاسرين مغلولين ، وأقام على هذه الصورة، ثم رحل إلى ناحية الأعوج لقرب عسكر الافرنج وعزمهم على قصده، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجرارا لهم وأفرق من عسكره فريقا يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الأفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم وخروج العسكر الدمشقي إليهم واجتماعهم بهم، ثم يقاطع عليهم، واتفق أن عسكر الفرنج رحل عقيب رحيله إلى الأعوج، ونزل به في ثالث ربيع الأوّل ودخل منهم خلق كثير

إلى البلد لقضاء حوائجهم، وخرج مجير الديـن ومؤيد الدين في خواصهما وجماعة وافـرة من الـرعية واجتمعوا بملكهـم وخواصه ومـا صادفـا عنده شيئـا ممـا هجـس في النفـوس مـن كثـرة ولا قـوّة ، وتقرّر بينهـم النـزول بـالعسكـرين على حصـن بصرى لتملكـه واستغـلال أعماله ، ثـم رحـل عسكر الافرنـج إلى رأس الماء ، ولم يتهيأ خروج العسكر الـدمشقي إليهم لعجزهـم واختلافهم، وقصـد من كان بحـوران من العسكر النـوري ومن انضـاف إليهم مـن العـرب في خلـق كثير ناحيـة الافـرنـج للايقـاع بهم والنكايـة فيهم، والتجـأ عسكر الأفـرنج إلى لجاة حـوران للاعتصـام بها، ونمى الخبر إلى نور الدين فرحـل ونزل على عين الجر من البقاع عائدا إلى دمشق، وطـالبا قصـد الفرنـج والعسكر الـدمشقي، وكـان الافرنـج حين اجتمعوا مـع العسكر الـدمشقي قد قصـدوا بصرى لمضايقتهـا ومحاربتها، فلم يتهيـأ ذلك لهم وظهـر إليهم سرخـاك واليها في رجـاله، وعـادوا عنها خاسرين، وانكفـأ عسكر الافرنج إلى أعمالـه، وراسلوا مجير الدين ومـؤيد الديـن يلتمسون بـاقي القطيعـة المبذولة لهم على تـرحيل نـور الديـن عن دمشق، وقالوا: لولا نحن ندفعه مارحل عنكم.

قال أبـو يعلى: وفي هذه الايام ورد الخبر بوصـول الأسطول المصري إلى ثغور السـاحل في غاية مـن القوة وكثرة مـن العدّة، وذكر أن عدّة مـراكبة سبعون مـركبا حربية مشحنـة بالرجال، ولم يخرج مثلـه في السنين الخالية، وقد انفـق عليه فيما حكي وقـرب ثلاثمائة ألف دينار.وقـرب من يافـا من ثغور الفـرنج فقتلوا وأسروا وأحـرقوا ما ظفروا بـه،واستولوا على عـدّة وافرة من مراكـب الروم والأفرنج ، ثم قصـدوا ثغر عكا ففعلوا فيـه مثل ذلك، وحصل في أيـديهم عدّة وافرة مـن المراكب الحربيـة الفرنجية، وقتلـوا من حجاجهـم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصـدوا ثغر صيدا وبيروت وطـرابلس، وفعلوا في الكـل مثل ذلك، ووعد نـور الدين بمسيره إلى ناحيـة الاسطول المذكور لإعانته على تـدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بـأمر دمشق وعوده

إليهـا لمضايقتهـا، وحـدث نفسه بملكهـا لعلمـه بضعفهـا وميل الأجنـاد والرعية إليه، واشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذكـر أن نور الديـن أمر بعـرض عسكره فبلغ كمال ثـلاثين ألفا مقاتلة ، ثـم رحل ونزل بالدلهمية مـن عمل البقاع، ثم نزل بـأرض كوكبا غربي داريا ثم نزل بأرض داريـاإلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الاجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلاّ اليسير ممن كان يخرج أوّلا، ثم تقدّم ونزل القطيعـة وما والاها ودنا منهـا بحيث قرب من البلـد، ووقعت المنـاوشة بين الفـريقين من غيرزحـف ولا شـدّ في محاربة تحرجـا من قتـل المسلمين، وقـال: لاحاجـة إلى قتل المسلمين بـأيدي بعضهـم بعضا وأنـا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

قـال: وورد الخبر إلى نور الـديـن بتسلم نـائبـه الامير حسان المنبجـي مدينة تـل باشر بالأمان في الخامس والعشرين مـن ربيع الأوّل، وورد مع المبشر جماعة مـن أعيان تل باشر لتقـرير الأحوال وتـرددت المراسلات في عقد الصلـح مع أهل دمشـق على شروط واقتراحات ، وتردد فيهـا الفقيه برهان الـدين على البلخي والأمير أسد الـدين شيركوه وأخوه نجـم الدين أيـوب، وتقـارب الأمـر في ذلـك إلى أن استقـرّ الحال على قبـول الشروط المقترحـة، ووقعت الايمان مـن الجهتين على ذلـك والـرضى بـه في عـاشر ربيع الآخـرة، ثم رحـل نور الـدين من الغـد طالبـاً ناحيـة بصرى للنزول عليها، والتمـس من دمشـق ما تدعـو إليه الحاجـة من آلات الحرب لأن واليها سرخاك كـان قد شاع عصيانه وخـلافه ومال إلى الأفرنـج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقا وافراً من عسكره.

قلت: ولابـن منير في نو ر الـدين يذكـر وقعة الجولان وغيرهـا قصيدة أوّلها :

مـــابـــرقــــت بيضـــك في غمامهـــا
إلا وغيـــث الــــديـــن لابتســـامهـــا

يقول فيها:

محمود المحمود جداً وجداً
أرخص جلد الارض حكم عامها
ملك أزل الروم عن صلبانها
دفاعه وكب من أصنامها
جال على الجولان أمس جولة
صفرت الأدحيّ من نعامها
والجون قد جرعها أجونه
وفل مشحوذا من اعتزامها
وشدّ في القدّ له مليكها
قود عتود القوط في شبامها
وفي الرها صابت له سحابة
صاروا جفاء خف في التطامها
وهب في هاب له عواصف
تجهمتها الهف من جهامها
وكفر لاث الاث في جبينها
لثم ظبى أتت على لثامها
وقايع يرفض تحت وقعها
نظم الثريا في فضا مصامها
فساعة البيض إذا عدّدها
سوط عذاب صب في أيامها
واعجبا لعصب الشرك التي
لم يعصب الرشد على أحلامها
حكمة استواؤها في غيها
في نقض ما أحصد من ابرامها
مظفر الرايات والرأي إذا الـ
ـحرب مشت تعثر في خطامها
عدّت به حدّ العلاء همم
هن النجوم أو نواصي هامها

جلــت لـــه الـــدنيــا على زبـــرجهـــا(٦٢)
عفـــوا فلـــم يلـــو على حطـــامهـــا
رأتـــه وهـــو الليـــث يـــدمـــي ظفـــره
انفـــذ في المشكـــل مـــن حكـــامهـــا
فتـــوّجتـــه العـــز في مـــرتبـــة
تمنطـــق الجوزاء في نظـــامهـــا
غضبـــان لـــلاســـلام لا يغيظـــه اســـ
ـــتسلامها للقسر مـــن إســـلامهـــا
خـــط على مثـــل أب طـــاعـــت لـــه الـــ
ـــآفاق واستشرف لاغتشـــامهـــا
تصرف الـــدنيـــا على إيثـــاره
عـــراقهـــا مستردفـــا بشـــامهـــا
لـــو لم يكـــن دون منـــى فـــات المنـــى
واقعـــد الفـــائز مـــن قـــوّامهـــا
وامتـــك مـــاء مكـــة رواضـــع
يقصر بـــاع الـــدهـــر عـــن فطـــامهـــا
وصـــار كـــالجمـــر الجمار وخـــلا
مـــن أهلـــه الأشرف مـــن مقـــامهـــا
ودونها الازلـــت تـــرقـــى في حمى
مـــن مـــؤلم الارداء أو لمامهـــا
تلبـــس بيـــت اللّـــه وشـــي يمـــن
يقـــرأ آيـــاتـــك مـــن أعـــلامهـــا
فـــإنها الـــديـــن رحـــى قطبتهـــا
وبـــازل مكنـــت مـــن زمـــامهـــا
امـــت بنـــا الآمـــال منـــك كعبـــة
سلـــم الليـــالي آيـــة استســـلامهـــا
وارشفتنـــا بـــك ثغـــر نعمـــة
لا نســـأل اللّـــه ســـوى دوامهـــا

وقال أيضا يمدحه:

بجـــدك اصحـــب الجد الحزون
واطلـــع فجـــره الفتـــح المبين

وفي كنفيـــك ســـولمت الليـــالي
وفـــارق طبعـــه الـــزمـــن الخؤون

ومنـــك تعلـــم القطـــع المواضـــي
وقـــد زبنـــت بها الحرب الـــزبـــون

وأنـــت السيـــف لم تمســـه نـــار
ولا شحـــذت مضـــاربـــه القيـــون

تـــرقـــرق فـــوق صفحتـــه الامـــاني
ويقطـــر مـــن غـــراريـــه المنـــون

وقبلـــك مـــا سمعـــت بـــذي فقـــار
يثير الفقـــر كـــان ولا يكـــون

ولا غيـــث سماوتـــه سريـــر
ولا ليـــث وســـادتـــه عـــريـــن

ولا قمـــر لـــه الهيجـــاء هـــال
ولا تـــاج لـــه الـــدنيـــا جبين

جبلـــت نـــدى وعفـــواً وانتقـــامـــا
ومـــاء كـــل مجبـــول وطين

وملكـــك عمـــر الأقطـــار قطـــرا
فـــأمـــرعـــت الأواعـــث والحزون

تـــلا لأتحتـــه غـــرر الليـــالي
إذ الايـــام عنـــد ســـواك جـــون

وأنـــت أقمـــت للجـــدوى منـــارا
يبين لشـــائميـــه ولا يبين

وعنـــدك مشرب النعمـــى زلال
إذا عبقـــت مشـــاربها الأجـــون

تحكـــم في عطـــائك كـــل عـــاط
وقـــد شيـــدت مـــن المنـــع الحصـــون

لقـــد أشعـــرت ديـــن اللّـــه عـــزا
تتيـــه لـــه المشـــاعـــر والحجـــون
وقـــام بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قـــويّ منـــــــك في الجلى أمين
رجعـــت ملـــوكهـــم وهـــم خيـــوف
أسير في صفـــــادك أو كنـــــون
فبرنســـت البرنـــس لقـــاع خســـف
وجـــرّع مـــرّ جـــوســـك جـــوسلين
إذا مـــا الفعـــل عـــلّ تـــلاه حـــذف
يتـــاح لمنتهـــــاه أو سكـــــون
غنـــوا حتـــى غـــزوتهم فغنـــى الصـــ
ـــدى في أرضهـــم حـــف القطين
وكـــم عبر الصليـــب بهم صليبـــا
فـــردّتـــه قنـــاك وفيـــه لين
ومـــا خطـــرت بـــدار الشرك إلاّ
هـــوى النـــاقـــوس وارتفـــع الاذيـــن
مـــلأت عظـــام ســـاحهـــم عظـــامـــا
فكـــل مـــلا لقـــوك بـــه جـــريـــن
بـــإنـــب والقنـــا تجري نجيعـــا
كـــان عيـــون أكعبهـــا عيـــون
وبين حـــرار صرخـــد ذبـــن حـــرّا
لـــه في كـــل حبحبـــة كمين
وفين مـــن العـــريمـــة في عـــرام
لـــه في جـــونها الأقصـــى وجـــون
وكـــم حـــرم لحارم غـــادرتـــه
ودارتـــه لمنسفهـــا دريـــن
وفى شعـــراء قـــورس صغـــن شعـــرا
تـــدار على غـــراريـــه اللجـــون

وقـــــائع صرن في صنعـــــاء طيرا
يــــوقعهـــا على عـــدن عـــدون
نماك أب إذا عـــدّ انتســـابـــا
تـــراقـــى مصعـــدا والنـــاس دون
شمالا كـــان أمـــلاك البرايـــا
وقـــد قيســـوا بـــه وهـــو اليمين
قضـــى وقضـــاؤه في الأرض حتـــم
فطـــاعـــة أهلهـــا لبنيـــه ديـــن
لهذا اليـــوم تنتخـــب القـــوافي
ويـــذخـــر نفســـه الـــدر المصـــون
ونحـــن أحـــق منـــك بـــأن نهنـــى
إذا قـــرّت بـــرؤيتـــك العيـــون
سلمـــت لنـــا فـــإنـــا كـــل صعـــب
نـــوازيـــه بـــأن تبقـــى يهون
تـــرابطنـــا بعقـــوتـــك التهـــاني
ويغبطنـــا بـــدولتـــك القـــرون

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديـار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهـد مثله فى حديث ولا قديم بحيـث أحصي المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فبلـغ سبعة آلاف شخص، وفي سنـة ست وأربعين مثلهـم، فصار الجميـع أربعة عشر ألفاً، وخلـت دور كثيرة من أهلهـا، وبقيت مغلقة لاساكن فيها ولا طالب لها.

وفيها في ثاني جمادى الآخرة توفي القـاضي السديد الخطيب أبو الحسين ابن أبى الحديـد خطيب دمشق، وكان خطيبا بليغا صيتـا عفيفاً، ولم يكن

له من يقوم مقامه في منصبه سوى أبي الحسن الفضل ولد ولده، وهو حدث السن، فنصب مكانه ، وخطب وصلى بالناس واستمرّ الأمر له ومضى فيه.

قال: ووردت الحكايات بحدوث زلزلة وافت الليلة الثالثة عشرة من جمادى الآخرة ، اهتزت الأرض لها ثلاث رجفات في أعمال بصرى وحوران وما ولاها من سائر الجهات، وهدمت عدّة وافرة من حيطان المنازل ببصرى وغيرها، ثم سكنت بقدرة من حركها سبحانه وتعالى.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل نور الدين صاحبها، فأكرمه وبالغ في الجميل في حقه وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

قلت: وفي ذلك يقول القيسراني:

وفت لك الدنيا بميعادها
باذلة افلاذ أكبادها

وأوفدت غرّ سلاطينها
عليك في همة انجادها

تبغي سناء أقصدت قصده
طائعة طاعة أجنادها

خاضعة تعتدّ أعمارها
يوم التلاقي يوم ميلادها

شامت دمشق بك برق العلى
فأرسلت أصدق روّادها

رأتك نور الدين نار الهدى
قد أشرق الأفق بايقادها

فيممت منك حيا مزنة
بيض الايادي وردروّادها

فــــاســــأل مجير الــــديـــــن عـــــن خبرة
أوردهـــــا محمــــود إيــــرادهــــا

تبـــــوّأت مـــــن عـــــزهــــا قبــــة
سمــــر القنــــا أطنــــاب أوتــــادهــــا

تنـــــافـــــس النــــاس على دولـــــة
فــــت بها أعين حســــــادهــــا

يغــــــدوا المعــــــادي كـــــا الموالي لها
فـــــوالها إن شئــــــت أوعـــــادهــــا

يــــــاملكــــا يــــزهـــــى بــــاسمائه
منــــابــــر تسمــــو بــــأعــــوادهــــا

وتـــــأخــــــذ الاسماع أوصــــــافـــــه
عـــــن جمع الـــــدنيــــا وأعيـــــادهــــا

كــــم للمعــــالي فيـــك مـــــن رغبــــة
تفنــــى الأمــــاني دون تعــــدادهــــا

لــــك المســــاعــــي الغـــــر يــــا جــــامعــــا
مـــــن طـــــرفيهــــا بين أضـــــدادهــــا

يغنـــــي الـــــورى أفـــــرس فـــــرســــانها
وفي التقــــى أزهــــــد زهـــــادهــــا

فــــــانـــــت نسكــــا غيــــث أبــــدالها
وأنـــــت فتكـــــا الـيـــث آســـــادهــــا

في أمّــــــة أنـــــــت حمى دينهـــــا
حينـــــا وحينــــا شمـــــس عبــــادهــــا

يطــــوى بــــك العمـــــر إلى غـــــايـــــة
حسبــــك تقـــــوى اللّــــه مــــن زادهــــا

هــــذا وكــــم مــــن سنــــة بــــدعــــة
أعــــدمتهــــا مــــن بعــــد إيجادهــــا

مــــآثــــر لــــو عــــدمــــت راويــــا
تكفــــل النظــــم بــــاسنــــادهــــا

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعض التركمان على ظاهر بانياس، فخرج إليهم واليها من الأفرنج في أصحابه، وظهر التركمان عليهم فقتلوا وأسروا.

وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحية من البقاع وأغاروا، فأنهض إليهم والي بعلبك رجاله فلحقوهم وقد أرسل اللّه عليهم من الثلوج المتداركة ما ثبطهم، فاستخلصوا منهم الغنيمة.

قلت: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبى طي: في سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس فخرج أهل بانياس من الفرنج استنقذوا ما أخذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفرنج، فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ماأخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنج فجيشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع، والناس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغنائم والأسارى، واتصل خبر غارة الفرنج بنجم الدين أيوب، وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه، فقدّم عليهم ولده شمس الدولة ، فخرج وأوقع بالفرنج، واتفق أنه كان قد أصاب الفرنج ثلج عظيم، فهلك أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورّطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة، وخلص من كان عند الفرنج من الأسارى.

قال: وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب، فقدّمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعا حسنا.

قال أبو يعلى: وفي ثاني شوال ، وهو الثاني من شباط وافت قبيل

الظهر زلزلة اهتزت لها الأرض ثلاث هزات هائلة، وتحركت الدور والجدران ثم سكنت.

قلت: وفي هذه السنة في غرّة جمادى الأولى كتب أحمد بن منير من حماه إلى نور الدين قصيدة يهينه بوصول الخلع إليه من بغداد من عند الخليفة ، على يد الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، ويصف الفرس الأصفر الاسود القوائم والمعارف والسيف العربي أوّلها:

لعلائك التأييد والتأميل
وللملك التأبيد والتكميل

أبداً تهم وتقتفي فتنال ما
عز الورى إدراكه وتنيل

إما كتاب يستقل به الكتا
ئب أو رسول للنجاح رسيل

لك من أبي سعد زعيم سعادة
فمن تفاءل فيك ليس يفيل (٦٣)

نعم الحسام جلوته وبلوته
يرضيك حين يصل ثم يصول

سهم تعوّد في الكنانة عودة
ويقصر المطلوب وهو طويل

سدّدته فمضى وقرطس صادرا
كالنجم لا وهل ولا تهليل

فثنا القلوب إلى ولائك حوّل
منه بما يجني رضاك كفيل

وأقام ينشر في العراق ودجلة
آياً تأوّلها لمصر النيل

وكساك من رأي الخليفة جبة
لا النقص يوهيها ولا التقليل

كنت الشريف أفضت في تشريفه
ماء عليه من سناك دليل

أليوسف لما طلعت مقرطقا
طمثت حصان واستخف أبيل
أم عن سليمان يفرج ضاحكا
سجف الرواق وضعضع الكيول(٦٤)
وبملك في السرج أم ملك سطت
لبهائه عقل وتاه عقول
وبرزت في لبس الخلافة كالهلا
ل جلاه في حلل الدجى التهليل
خلع خلعن على القلوب مسرة
سدكاتها(٦٥) التعظيم والتبجيل
نشرت نضارا جامداً أعلامها
وتكاد تجري رقة وتسيل
لقضى لها ان لا عديل لفخرها
ربّ براك فما تلاك عديل
أنت المهند منذ سلته العلى
لم يخل من مهج عليه تسيل
مذ هز قائمه الامام تألقت
غرر شدخن لملكه وحجول
واليت دولته فتهت بدولة
متكلل بصعيدها الاكليل
ونصرته فحلاك أبيض دونه
صرف الزمان إذا استكل كليل
قلدته وكلاكما متلهذم
عضب فزان المغمدا المسلول
وحبا ركابك حين قرّ بزحفه الـ
قرآن واستخذى له الانجيل
بأقبّ أصفر مشرف الهادي له التـ
حجيل لون واللما تحجيل

قسيم الدجى بين الغدائر والشوى
واعتام رونقه الاصيل أصيل
وتقاسم الراؤوه تحتك أنه
حيزوم مصرف عطفه جبريل
تختال في حبك الحليّ مخيلا
إن الشوامخ للبدور خيول
مرخى الذوائب كالعروس يزينه
طرف بأطراف الرماح كحيل
تتصاعق النعرات تحت لبانه
إن شبّ زفر واستجش صهيل
لم يحب مثلك مثله مهد ولم
يشلل على برق سواه شليل (٦٦)

وأنشده في هذه السنة أيضا بحمص قصيدة منها:

الدهر أنت ودارك الدنيا ومن
في العدّ بعده مؤمّل معدود
وأزمة الاقدار طوع يديك والـ
أيام جندك والانام عبيد
فت الورى وعقدت ناصية المدى
بمذمر الشعرى فأين تريد
تال أباك فهل سليمان يرى
في الدست مهد ملكه داود
جلى وسدت مصليا الا يرفع الـ
معدوم ما لم يشفع الموجود
لم يخترم جدّ نماك ولا أب
إن النباهة في الخليف خلود
شمخت منارك في اليفاع وأمّها
من لم يسد فأرته كيف يسود

وهبيــــت لـــــلاســـــلام وهـــــو مصــــوّح
فــــــاهتــــــزهضــــــاب ورق نجـــــود
وفتـــــأت جمرة صـــــا لميـــــة بصيلـــــم
نصـــــع الاجنـــــة يـــــومهـــــا المشهـــــود
خطمتهـــــم فـــــوق الخطيـــــم لـــــوافـــــح
نفـــــس الاريـــــن لـــــو أرهـــــنّ بـــــرود(٦٧)
ورمـــــوا على الجولان منـــــك بجـــــولـــــة
تـــــوئيـــــدهـــــانسر الضـــــلال وئيـــــد
ولحا عظـــــامهـــــم بعـــــرقـــــه عـــــارق
مـــــازلـــــت تمخـــــض جـــــوّه فيجـــــود
وشللـــــت بـــــالـــــروج السروج وفـــــوقهـــــا
زرع لمحصـــــده الـــــرمـــــاح حصيـــــد
وعلى عـــــزاز عنـــــوا وثـــــل عـــــروشهـــــم
ملـــــك مقيـــــد مـــــن عصـــــاه مقيـــــد
ويتـــــل بـــــاشر بـــــاشروك فعـــــافســـــوا
أهـــــب الاســـــاود حشـــــوهـــــنّ أســـــود
أودوا كما أودى بعـــــــــادغيهـــــــــا
زعقـــــوا كما استغـــــوى الفصيـــــل ثمـــــود
إن آلمواعقـــــرافـــــانـــــك صـــــالـــــح
أو آلمواغـــــدرافـــــانـــــك هـــــود
وزعتهـــــم فبكـــــل مهبـــــط تلعـــــة
خـــــدّبـــــه مـــــن وازع أخـــــدود
وعصبتهـــــم بعصـــــائب مـــــل ء الملا
شتـــــى وإن خـــــلّ البســـــالـــــة عـــــود
أثـــــارهـــــا محمـــــودة وآثـــــارهـــــا
مشهـــــودة وشعـــــارهـــــا محمـــــود
لبســـــت مـــــن اسمـــــك في الكـــــريهة ملبســـــا
يبلي جـــــديـــــد الـــــدهـــــر وهـــــو جـــــديـــــد

قصيرة الآجـــال طـــوّل بـــاعهـــا
بـــوع يســـامـــى هـــامهـــا وقـــدود
مطـــرورة الأســـلاب مـــذ هـــزعتهـــا
تـــاه الهدى وتبختر التـــوحيـــد
أشرعتهـــا فعلى شريعـــة أحمد
مـــا جنتـــه بـــوارق وعقـــود
ولكـــم نثـــرت نظيمهـــا في مـــوقـــف
تغـــريـــد صـــالى حـــره التغـــريـــد
يجلـــو سنـــاك ظـــلامـــه ويحل مـــا
عقـــدت قنـــاه لـــواؤك المعقـــود
في هبـــوة زحـــم السماء رواقهـــا
والارض تـــرجـــف تحتـــه وتميـــد
ضربـــت مخيمهـــا فكـــان كماتها
أوتـــاده القصـــوى وأنـــت عمـــود
في كـــل يـــوم مـــن فتـــوحـــك صـــادح
هـــزج الغنـــاء وطـــائر غـــرّيـــد
تهدي لعـــانـــة كـــاســـه فـــرغـــانـــة
وتسيـــغ زبـــدة مـــا شـــداه زبيـــد
فغـــرار سيفـــك لـــلاحـــابـــش محبـــس
ومثـــار نقعـــك للصعيـــد صعيـــد
لاتعـــدمـــن هـــذا المقلـــد أمّـــه
ملقـــى إليـــه لـــرعيهـــا الاقليـــد
الـــورد قـــرو المســـارح رحبـــة
والـــرفـــد مـــدّ والظـــلال مـــديـــد
والعيـــش أبلـــج مشرق القسمات والـــ
ـــأشجار غـــرو الاصـــائل غيـــد
والملـــك ممـــدود الـــرواق منـــوّر الـــ
آفـــاق وضـــاء المنـــى محســـود

في دولـــة مـــذهـــب نشر ربيعهـــا
نشر الـــرفـــات وأثمـــر الجلمـــود
محمـــودة الآثـــار محمـــوديـــة
كـــل المواســـم عنـــدهـــا تعييـــد

وقـال يهنيه بليلـة الميلاد ويصـف النـازلين في الجبل مـن قلعة حلـب بقصيدة منها:

هنيـــت روزى ذراك صـــومـــك والـــ
ـــميلاد جـــاء والسعـــد في نســـق
فـــذاك انحلـــت فيـــه كـــل يـــد
وذاك أنحلـــت فيـــه كـــل تقـــى
وجـــه كصـــدر الحسـام تصبـــولـــه الـــ
ـــعين وينقـــد القلـــب مـــن فـــرق
ومقلـــة شـــوقهـــا ليقظتهـــا
شـــوق لحســـادهـــا إلى الارق
ومـــرتقـــى تعجـــب السماء لـــه
إذا استطـــالـــت إليـــه كيـــف رقـــى
تـــوّجـــت شهبـــاءهـــا بمشرقـــه
مشرفـــة شهبهـــا على الافـــق
جـــوّ تهادى منـــه كـــواكبـــه
طـــرفـــه طـــرف رجـــوم مسترق
فـــوارس تـــذهـــل الفـــوارس إن
تهافتـــت مـــن ارشـــاقهـــا الـــرشـــق
مـــن راكـــض في الهواء أهـــوى
ومـــن الفتـــح مجرّ مـــن تحتـــه لبـــق
شـــاو مـــن الخصر لـــو تحاولـــه الـــ
ـــخضر لـــزلـــت عـــن مـــوطـــىء زلـــق
يقـــول مـــن دينـــه الفـــروســـة مـــا
لاقـــك الاضرب مـــن الالـــق

- ٧٧٣٦ -

بـــــــدائع تغبـــــــــط السماء بها الأر
ض وتـــذكـــي الاشفـــاق في الشفـــق
في دولـــــة جمعـــت ايـــالتهـــا
مـــن بـــدا الحســـن كـــل مفترق
تـــذرّ أطـــواقهـــا على ملـــك
مكتفـــل رزق كـــل مـــرتـــزق
محمـــــود اسما وميسما ونـــــدى
واعتصـــب الـــدم كـــل مـــرتفـــق
طبـــق طـــوفـــانـــه فلســـت تـــرى
إلاّ مغيثـــا مشـــف على غـــرق
يـــا بحـــر لا خلـــق يـــدعـــي شبهـــا
فـــات المدى مـــا حـــويـــت مـــن خلـــق
ملكـــك هـــذا الـــذي تملأه
صبـــاه يجري والـــدهـــر في طلـــق

- ٧٧٣٧ -

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن انطرسوس في عسكره وافتتاحه له وقتل من كان فيه من الأفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه، وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضا ظفر رجال عسقلان بالأفرنج المجاورين لهم بغزة، بحيث هلك منهم العدد الكثير، وانهزم الباقون. قلت: وقرأت في ديوان ابن منير يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحمور، وعوده عنهما فذكر قصيدة منها:

أبداً تباشر وجه غزوك ضاحكا
وتؤوب منه مؤيداً منصورا
تدني لك الأمل البعيد سواهم
محقت اهلتها وكن بدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو أربع
في الجوّ مطلبها لكن طيورا
نبذت علائقها بحمص واعلقت
سحراً بمعرق عرقه الأظفورا
وغدون صافيتا لاح شوارهما
قد اتلعت عنقا اليك مشيرا
القلب أنت فإن تعامى عن هدى
عضو أهاب به فعاد بصيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهم
يغري بياض أديمها الديجورا
أين الذبال من الغزالة أشرقت
وجها وطبقت البسيطة نورا

غضبـــان اقســم لا يشيــم حســامـــه
والارض تحمــــل في الكفـــــور كفـــورا
غســل العـــواصـــم أمـــس مـــن أدرانهم
واليـــوم ردّ بـــه الســـواحـــل بـــورا
لم يبـــــــــق بين الحولتين وآمـــــــد
وتــــرا المضطغـــــن ولا مــــوتـــورا
اخلى ديـــــار الشرك مـــــن أوثــــانها
حتــــى غـــدا ثــــالــــوثهـــن نكيرا
رفــــع القصـــور على نضــــائدهـــامهـــم
مـــن بعـــدمـــا جعــل القصـــور قبـــورا
بشـــواحـــب الاليـــاط تقطـــو في الظـــلا
م قطــــاوتهوى في الصبــــاح نشـــورا
غــادرت انطــرســوس كــالطــرس انمحــى
رسما وحمر ردعهـــــــا يحمـــــــورا
وهـــي الـــزنـــادلفتنـــة كـــانــت على الــــ
ـــــــاسلام أحكــــــم كسره اكسيرا
هتمــت طــرابلســا فــاصبــح ثغــرهـــا الــــ
ـــــبسام مــــن عـــز الثغـــور ثغيرا
اقليــــدهـــاكـــــانـــت وقـــد انطيتـــه
واســــأل بـــــه ممـــــن دهتــــه خبيرا
إن الاولى امنـــوا وقـــاعـــك بعـــدهـــا
غـــرّوا وقـــد ركبـــوا الاغـــرّ غـــرورا
الـــق العصـــافيمـــن أطـــاع ومـــن عصـــى
منهـــم ودمـــر أرضهـــم تـــدميرا
لا يلههــم إن قـــد منـنــت وشنهـــا
شعـــواء تصلي الكـــافـــريـــن سعيرا
بـــاكـــر بـــركـــزقنـــا تنســف اسهـــا
والخيـــل صـــور كـــي تـــزيـــرك صـــورا

وتـريـك لامعـة التريـك بسـاحـة الـ
ـأقصى مطهـرة لها تطهيرا
أولسـت مـن قـوم إذا هـزوا القنـا
فتلـوا معـاصمهـم لها تسـويـرا
وإذا هـم خطبـوا اليراع عـزيـزة
سـاقـوا الشفـار على المهـار مهـورا
القـى قسيا هـم إليـك أزمـة الـ
ـملك المطـل على السهـا تـأثيرا
ضحكـت لـك الأيـام واكتـأب العـدا
قلقـا فجئـت مبشرا ونـذيـرا
لا ملـك الا ملـك محمـود الـذي
تخذ الكتـاب مظـاهـرا أو وزيـرا
تمشي وراء حـدوده أحكـامـه
تـأتمهـن فيحكـم التقـديـرا
يقظـان ينشر عـدلـه في دولـة
جـاءت لمطـوى السماح نشـورا
خلـف الخلائف قـائما عنهـم بما
عيـوا بـه ألـوى الـدّ غيـورا
البر والمعصـوم والمهـدي والـ
ـمأمون والسفـاح والمنصـورا
بشروا بـه فعهـودهـم وعهـادهـم
يمتحـن تحت لـوائه منشـورا

وأنشده بحلب في هذه السنة قصيدة أوّلها:

المجـد مـا ادّعـت ثـراك هضـابـه
وتثقفتـك شعـوبـه وشعـابـه
ملـك تكنـف ديـن أحمد كنـه
فـأضـاء نيره وصـاب شهـابـه

فـــالعـــدل حيـــث تصرفـــت احكـــامـــه
والأمـــن حيـــث تصرمـــت أسرابـــه
متهلـــــل والموت في نبراتـــــه
يـــرجـى ويـــرهـــب خـــوفـه وعقـــابـــه
عقـــد اللـــواء وســـار يقـــدمـــه ومـــا
حلـــت عقـــود تميمهـــا أتـــرابـــه
أســـد فـــرائســـه الفـــوارس والظبـــا
أظفـــاره والسمهـــريـــة غـــابـــه
طبـــع الحديـــد فكـــان منـــه جنـــانـــه
وسنـــانـــه وإهـــابـــه وثيـــابـــه
ويهش إن كبـــت الـــوجـــوه كـــأنها
أعـــداؤه تحت الـــوغـــى احبـــابـــه
نشرت بمحمـــــود شريعـــــة أحمد
وأرى الصحـــابـــة مـــا احتـــذاه صحـــابـــه
مـــاغـــاب اصلـــع هـــاشـــم فيهـــا ولا الــــ
ـــفاروق بـــاء بخطبـــه خطـــابـــه
أبنـــاء قيلـــة قـــائمـــون بنصره
إن اجلبـــت مـــن قـــاســـط أحـــزابـــه
صبحـــوا بحلقـــة البرنـــس بحـــالـــق
حـــرش الضبـــاب مـــن القلـــوب ضبـــابـــه
مـــازال يغلـــب مـــن بغـــاه ضـــلالـــه
حتـــى اتيـــح مـــن الهدى غـــلابـــه
ملقـــى بـــوحـــش الاصرمين تـــزيلـــت
آراؤه وتـــــزايلـــــت آلابـــــه
دون الأرنـــط سخـــت بـــه نجـــداتـــه
ونجـــاده وقـــرابـــه وقـــرابـــه
سلبتـــه درّة تـــاجـــه يـــد ضيغـــم
لم تنجـــه مـــن بـــأســـه اسـلابـــه

واتتــــه تجلــــب جــــوسلين جنــــائب
هبــــت فقــــل إلى القتــــال هبــــابــــه

اسرتــــــه لامنعـــــت سراه وغـــــره
بــــالقـــــاع إن رام الــــورود سرابـــــه

يمشي فتسمعـــــه قعـــــاقـــــع قيـــــده
هــــزجـــاً تقــــيء دمــــاً لـــه أنـــدابـــه

لاتــــل بـــــاشره ولا كيســـــونــــه
صـــدّت منـــى عنـــه ولا عنتـــابـــه

ضمنـــت شقـــاوتـــه سعـــادة صـــافـــح
غطـــى على أعنـــاتـــه اعتـــابـــه

مــــازال يغـــدر ثـــم يعـــذر قـــادرا
حتـــى أتـــاه بجـــامـــح أصحـــابـــه

قصر الأمــــاني إن يمـــلأ عصرك الـــــ
ــــاسلام مضروبـــا عليـــه حجـــابـــه

مجر يجرّ إلى الغنـــــــائم قبـــــــه
وحمى يـــزار على الفتـــوح قبـــابـــه

وأنشده بحلب في شوال من هذه السنة قصيدة منها:

لقــــد أوطـــأت ديـــن اللّـــه عـــزا
أديــــم الشعـــــريين لـــــه رغـــــام

دعـــاك وقـــد تنـــاوشـــت الـــرزايـــا
لـــه اهـــب يـــوزعهـــا العـــذام

فقمـــت بنصره والنـــاس فـــوضـــى
قيـــام ذم مـــا اقترفـــت فئـــام

جـــذبـــت بضبعـــه مـــن قعـــر يـــم
لـــه مـــن فـــوق مقسمـــه التطـــام

وملـــت على معـــاقلهـــم فخّـــرت
ولاء مثـــل مـــا انتقـــض النظـــام

بصرخد والخطيم وفي عزاز
وقائع هز مشهدها الانام
ولو لم يعترف ويشم لأمسى
وأصبح لاعراق ولا شآم
صبيت على الصليب صليب بأس
قواه تحت كلكله حطام
ويوم بالعريمة كان حتفا
على الاشراك أمقره العرام
لقوك كأنّ ما سلوه شيح
وما اعتقلوه من خور ثمام
وهاب وقورس وبكفر لاثا
ذممت وأنت للجليّ ذمام
صدمتهم بأرعن مرجحنّ
كأن مطارا أنسره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها
لهم طيفا يروع به منام
بنور الدين أنشر كل عدل
تعفت في الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حدّ
حمى من أن تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه
فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاؤك خير ما يرجوه راج
وأنفع ما يبلّ به أوام

فصل

وفي هذه السنة ولد بحمص لنور الدين ابن سماه أحمد وهناه ابن منير في بعض قصائده، ثم توفي بدمشق وقبره خلف قبر معاوية رضي الله

عنه إذا دخل الحظيرة في مقابر الباب الصغير، وقصيدة ابن منير قد تقدّم بعضها في أوّل الكتاب ومنها في ذكر المولود:

تـوالـت الأعيـاد لازلـت لها
تبلي ديـابيـج البقـاء وتجد
الفطـر والميـلاد والمولـود لـو
قـابلـه بـدر التمام لسجـد
ثـلاثـة تعـرب عـن ثـلاثـة
لمثلهـا يـذكـر حمدا من حمد
فتـح مبين وطـلاب مـدرك
ودولـة مـا تنتهـي إلى أمـد

وله من أخرى يقول:

وجئـت بـأحمد فمـلأت حمدا
مـوارد كـان معـذبها عـذابـا
تهلـل وجـه ملكـك يـوم أهـدت
قـوابلـه لـك الملـك اللبـابـا
شبيهـك لا يغـادر منـك شيئـا
سنـا وحيـا وبـذلا واستـلابـا
قسيـم الحمـد الا انّ حـرفـا
مـن اسمـك زاد للمعنـى منـابـا
ألا للّـه يـوم فـرّ عنـه
وركـب نـص بـالبشرى الـركـابـا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصرا لسرخاك واليه لمخالفته وجوره، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صرخد لمشاهدته، فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا

فيه وال من قبلك، وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه ويلقى مجير الدين بما يجب له، فخرج في أصحابه ومعه المفاتيح وأخلى الحصن من الرجال ودخل إليه في خواصه وسرّ بذلك وتعجب من فعل مجاهد الدين وشكره على ذلك، وعاد إلى مخيمه على بصرى وحاربها عدّة أيام إلى أن استقرّ الصلح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق.

وفيها في شوّال توفي الأمير سعد الدولة أبو عبد اللّه محمد بن المحسن ابن الملحي، ودفن في مقابر الكهف، وكان فيه أدب وافر وكتابة حسنة ونظم جيد، وتقدّم والده في حلب في التدبير والسياسة وعرض الاجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان، وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاص بك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه ولم يمهله غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاص بك أن يقبض عليه أيضا فيخلو وجهه من منازع من السلجوقية، وحينئذ يطلب السلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده وسار إليه وهو بهمذان واجتمع به وخدمه خاص بك خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاص بك فقتله محمد وألقى رأسه إلى أصحابه فتفرقوا واستقرّ محمد وثبتت قدمه واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاص بك سنة ثمان وأربعين، وبقي مطروحا حتى أكلته الكلاب، وكان ابتداء أمره أنه كان من بعض أولاد التركمان، فخدم السلطان، فمال إليه وقدّمه حتى فاق سائر الامراء واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشاغلة للسلطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من أتباعه لما كان يقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم.

وذكر الـوزير يحيـى بـن هبيرة في كتـاب الافصاح أنـه لما تطـاول على الخليفـة المقتفـي أصحـاب مسعود وأسـاؤوا الأدب ولم يمكـن المجاهـرة بالمحـاربة اتفق الـرأي على الدعاء على مسعـود بن محمد شهـراً، كما دعا رسول اللّـه صلى اللّه وسلم على رعـل وذكوان شهـراً فابتدأ هـو والخليفة سرا كل واحد في موضعـه يدعو سحرا من ليلة تسـع وعشرين من جمادى الأولى سنـة سبع وأربعين وخمسمائة، واستمـرّ الأمـر على ذلـك كل ليلـة، فلما كـان ليلة تسـع وعشرين مـن جمادى الآخرة كـان موت مسعـود على سريره لم يـزد عن الشهر يومـاً ولاينقص يومـا، ووصل القصاد بذلـك من همذان إلى بغداد في ستـة أيام، فـأزال اللّه يـده ويد أتبـاعه عـن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم فتبارك اللّه رب العلمين، مجيب دعوة الداعين.

قـال: وكان الشيـخ محمد بـن يحيـى يقول: لاأدل على وجـود موجـود أعظم من أن يدعى فيجيب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وخمسمائة

ففيها أخذت الفرنج خذلهم اللّه عسقلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه اللّه سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى.

قال الرئيس أبو يعلى التميمي: وتواصلت الأخبار من ناحية نور الدين بقوّة عزمه على جمع العساكر والتركمان من سائر الأعمال والبلدان للغزو في احزاب الشرك والطغيان، ولنصرة أهل عسقلان على الأفرنج النازلين عليها وقد ضايقوها بالزحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير، واقتضت الحال توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضد على الجهاد في ثالث عشر محرّم ، واجتمع معه في ناحية الشمال وقد ملك نور الدين الحصن المعروف بافليس بالسيف، وهو في غاية المنعة والحصانة وقتل من كان فيه من الأفرنج والأرمن ، وحصل العسكر من المال والسبي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حماته وتسهلت أسباب ملكته، وقد تواصلت استغاثة أهل عسقلان واستنصارهم بنور لدين فقضى اللّه تعالى بالخلف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل فأجفلوا عنها من غير طارق من الأفرنج طرقهم، ولاعسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج وعزموا على معاودة النزول على بانياس وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سبب ولا موجب وتفرّقوا وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالما في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوّل، وعاد نور الدين إلى حمص ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عسقلان، فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال، وظفروا بعدّة وافرة من مراكب الفرنج في

البحر، وهـم على حالهم في محاصرتها ومضايقتهـا والزحف بـالبرج إليهم، واستمرّ ذلك إلى أن تيسرت لهم أسباب الهجوم عليهـا من بعض جوانب سورهـا، فهدموه وهجموا البلـد وقتل من الفـريقين الخلق الكثير، وألجأت الضرورة والغلبة إلى طلب الأمان فأجيبوا إليه وخرج من أمكنه الخروج في البرّ والبحر إلى نـاحية مصر وغيرهـا، وقيل إن في هـذا الثغر المفتتـح من العدد الحربيـة والاموال والميرة والغلال مـا لايحصر فيذكر، ولما شـاع هذا الخبر في الأقطـار سـاء سماعه، وضـاقـت الصـدور وتضاعفـت الأفكـار بحدوث مثله، فسبحـان من لايردّ نافـذ قضائه، ولايدفع محتـوم أمره عند نفوذه ومضائه.

فصل

قال: وعـرض بين الرئيس ابـن الصوفي وبين أخويـه عز الدولـة وزين الدولة مشاحنات ومشاجـرات اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجير الديـن إلى الرئيس يستدعيه للاصـلاح بينهم في القلعة فامتنـع من ذلـك وجلس في داره، وهـمّ بالتحصـن عنه بـأحداث البلـد والغوغاء وآلت الحال إلى تمكن زين الدولـة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرّر بينهما إخراج الرئيس من البلـد وجماعة إلى حصن صرخد مع مجاهد الديـن بزان واليـه، بعد أن قـرر له بقـاء داره وبستانـه وما يخصـه ويخص أصحابـه، وتقلد أخوه زيـن الدولة مكـانه وأمر ونهى ونفـذ الاشغال على عـادتـه في العجـز والتقصير وسـوء الأفعـال، والتماس الـرشـا على أقـل الأعمال، ورأى مجير الدين عقيب ذلك التـوصل إلى بعلبك لتطييب نفس واليهـا عطاء الخادم واستصحـابـه معه إلى دمشـق لينـوب عنه في تـدبير الأمور، وعاد وهو معه واستشعر مجاهد الـدين بزان أن نية مجير الدين قد تغيرت فيه، فـاستوحـش من عـوده إلى البلد بغير يمين يحلـف له بها على أمانـه في نفسه، فـوعد بـالإجابـة ، فعاد إلى داره بـدمشق، ثـم هجس في خاطره من مجير الـدين وأصحابه ما أوحشه منهـم فدعاه ذلك إلى الخروج

من البلد سراً طالباً صرخد، فحين عرف خبره أنهض في طلبه وقص أثره فأدرك وقد قرب من صرخد، فقبض عليه وأعيد إلى القلعة بدمشق وأعتقل بها اعتقالاً جميلاً، ثم تجدّد من الرئيس الوزير حيدرة المقدم ذكره أشياء ظهرت عنه مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيب من المعرفة بالسعي والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة من القضاء النازل به لسوء أفعاله وقبح ظلمه وخبثه، ثم عدل به الجاندارية إلى الحمام بالقلعة مستهل ذي القعدة وضربت عنقه صبراً وأخرج رأسه ونصب على حافة الخندق، ثم طيف به والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه وتفننه في الفساد ومقاسمة اللصوص وقطاع الطريق على أموال الناس المستباحة بتقريره وتدبيره وحمايته، وكثر السرور بمصرعه، وابتهج به ثم زحفت العامة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه ومخازن غلاته وأثاثه وذخائره فانتهبوا منها ما لا يحصى، وغلبوا أعوان السلطان وجنده عليها بالكثرة فلم يحصل للسلطان من ذلك إلاّ النزر اليسير، ورد أمر الرياسة والنظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد بن علي التميمي في اليوم المقدم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله وسكنت الدهماء وبولغ في إخراب منازل الظالم، ونقل أخشابها.

قال: وكان عطاء الخادم قد استبد بتدبير الأمور ومدّ يده في الظلم، وأطلق لسانه بالهجو وأفرط في الاحتجاب، وقصر في قضاء الاشغال، فتقدم مجير الدين باعتقاله وتقييده والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبك وما فيها من مال وغلال، ثم ضربت عنقه ونهبت العوام والغوغاء بيوت أسبابه وأصحابه.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السلار الذي كان رتبته قد علت ومنزلته في الوزارة قد تمكنت ، كان لزوجته ولد

يعرف بالأمير عباس قد قدّمه واعتمد عليه في الأعمال، ولعباس هذا ولد قدّمه الوزير وأنعم عليه وأذن له في الدخول بغير أذن إليه، فدخل عليه وهو نائم في فراشه فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قلت: هو أبو الحسن علي بن السلار وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشافعية بالاسكندرية للحافظ أبي طاهر السلفي رحمه اللّه ، وكان قتله في سادس المحرّم بمواطأة من الخليفة الملقب بالظافر بن الحافظ.

وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البلخي رئيس الحنفية، ودفن في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الشهداء، وكان من التفقه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع والدين والعفاف والتصوّف، وحفظ ناموس العلم والتودد إلى الناس على طريقة مرضية وسجية محمودة.

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسن أحمد بن منير الشاعر في جمادى الآخرة، ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشاعر أبو عبد اللّه محمد بن نصر بن صغير القيسراني من حلب باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام في الثاني والعشرين من شعبان.

قلت: هما شاعرا الشام في وقتهما، وقد شبههما العماد الكاتب في كتاب الخريدة بالفرزدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه اللّه قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرض سنذكره، ومما قاله ابن منير من قصيدة له:

أيـــا سيفـــا أعـــز الـــديـــن منـــه الـــ
ـــــغرار العضـــب والنـــوم الغـــرار
مـــلأت جـــوانـــح الاقطـــار رجفـــا
كـــأن الأرض خـــامـــرهـــا دوار
عـــلاك حلى على الـــدنيـــا فتـــاج
بمفـــرقهـــا وفي يـــدهـــا ســـوار
أضـــاءت شمـــس عـــدلـــك في دجـــاهـــا
فكـــل زمـــان ســـاكنهـــا نهار
فتحـــرق مـــن عصـــاك وأنـــت مـــاء
وتغـــرق مـــن رجـــاك وأنـــت نـــار
الا للّـــه وجهـــك والمنـــايـــا
مكلحـــة وللبيـــض افترار
هتكـــت حجـــابـــه والنصر غيـــب
وللهبـــوات طـــيّ وانتشـــار
بطعـــن للقلـــوب بـــه انتظـــام
وضرب للـــرؤوس بـــه انتشـــار
تبـــادره كـــأن الموت غنـــم
ومـــا مـــن عـــادة البـــدر البـــدار
أنخـــت على الصليـــب مطـــا صليبـــا
بـــه مـــن صـــك مبركـــه هـــدار
بمشرفـــه المنـــاكـــب مقـــربـــات
لهن بمتـــن كـــل وغـــى حصـــار
جنين بـــإنـــب أنـــب العنـــاصي (٦٨)
وإضـــن وللقنـــا منهـــا ثمار
وفي هـــاب أبـــت بها فجـــاءت
كما أجلى مـــن الكســـم الصـــوار (٦٩)
وكـــم في فـــج حـــارم مـــن حـــريـــم
عفتـــه فـــلا جـــديـــر ولا جـــدار

وانطـــاكيــــة استنـــت إليهـــا
فـــاجفـــل خيطهـــا ولـــه عـــرار (٧٠)
وصبـــــح في عـــــزاز بهاعـــزاز
فـــأمســـى وهـــو وعـــث أو خبـــار (٧١)
يشـــق بها دجـــى الغمـــرات عسفـــا
جـــواد لا يشـــق لـــه غبـــار

وله من أخرى:
ومـــا يـــوم الفـــرنجـــة منـــك فـــذ
فتحصر عـــــده خطـــــط الحبـــــاب
أجـــاش الاربعـــاء لهم خميســـا
بعيـــد الغـــور ملتطـــم العبـــاب
وأحكـــم بـــالخطيـــم لهم خطـــامـــا
أمـــر بـــريمـــه مـــرّ الضراب
مشـــو متســـانـــديـــن إلى صليـــب
يبرقـــع هبـــوة الصنـــم الصـــلاب
تلفهـــم المنـــايـــا في الثنـــايـــا
وتفجـــأهـــم شعـــوب مـــن الشعـــاب
أطـــاشـــت سهـــم كبشهـــم هنـــاة
فكنـــت ذبـــاب طـــائشـــة الـــذبـــاب
حللـــت التـــاج عنـــه وحـــل تـــاجـــا
مكـــان العقـــد مـــن عقـــد الكعـــاب
أنـــاف على العقـــاب فكـــان أشهـــى
وأبهى منـــــه في ظـــــل العقـــــاب
فـــأشرف وهـــو عـــن شرف معـــوق
واصعـــد وهـــي غـــايـــة الانصبـــاب
تكـــاشره الشـــوامـــت وهـــو مغـــض
ثنـــاه منـــاه عـــن رجـــع الجواب

بعيداً من قراع واقتراع ... يؤوب له إلى يوم المآب

وكم سوط بخيلك اقبلوه الصـ ... ـدور فكان سوطاً من عذاب

تركتهم بأرض الشام شاماً ... لظفر تتقيه أو لناب

هتكت حجابهم والشمس وسنى ... بشمس لا تواري بالحجاب

بأبيض من حبيك الهند صاف ... مصون المتن مبتذل الذباب

له سمة الشيوخ صفاء شيب ... وفي خطواته ترف الشباب

الا يا ناظر الدنيا بعين ... أرته علابها [٧٢] خدع السراب

تبطنها فطلقها ثلاثاً ... على عز التملق والخلاب

فلا يأوي إلى رأي شعاع ... ولا يثني إلى أمل خراب

ترفع عن مجاورة الأماني ... وحلق عن محاضرة التصابي

صلاة اللّه كل درور شمس ... على مثوى أبيك من التراب

فقد ألقى إلى الاسلام عضباً ... يطبق في النوائب غير ناب

تجيش له رواس كالرواسي ... تمدّ لها جفان كالجوابي

وله من أخرى:

مظفر العزم ممدود الرواق على
معالم الدين يرفيها ويبنيها
ردّ الكنائس كنسا للهدى فخبت
نار الضلال ووارتها أثافيها
وأورد العلم عدا من ايالته
فاستن وافتن عبا في صوافيها
وبث للشرك اشراكا فما درجت
طريدة منه الا استوهقت فيها
يا بدر مذ أشرقت في الدست غرته
غيث الرعية واخضلت مراعيها
أقام أحمد من محموده علما
به استقام على البيضاء ساريها
محيي شريعته من بعد ما انهدمت
واستعجمت بعد إفصاح معانيها
شابت مواهبه فيها مهابته
حتى استقرت على سمت سواريها

وله من أخرى:
عزت سيوفك فالعراق عراقها
والشام غير مدافعات شامها
إن أغمدت حل العزائم حلها
أو جردت حرم الكرى احرامها
شجنت (٧٣) عداك بها فلا اشراقها
بمفازة منها ولا إعتامها
سريت فصبحها بها يقظاتها
هدأت فمستها بها أحلامها
كالماء إلا أن في رشفاته
ناراً حشاشات النفوس ضرامها

خفـــــــت على أيمانكـــــــم أوزانها
يــوم الــوغــى واستثقلتهـــا هــامهــا
حتــى أحلــن الشــام شــامــا صرصرت
فيـــه جنـــاد بها وصــدّح هـــامهـــا
ورحضــــن أدران الجزيـــرة بعــــدما
غمـــرت بها وهـــداتها وآكـــامهـــا
شطـــراً أبـــرت ومثلـــه أنظـــرتـــه
وقـــع الخطـــوب تكـــرهـــا أيـــامهـــا
بـــا لخابطـــات الغـــاب تـــزأر أســـده
والمجفلي الحي اللقـــاح صيـــامهـــا
أورتها أجمات أنطـــــــاكيـــــــة
عنقـــا وقـــد شبـــب الصــــدا اجمامهـــا
تلقـــى المشـــافـــر في مـــراشــف كلما
بـــردت بها الأكبـــاد زادهيـــامهـــا
فغـــدت وقـــد عـــز السراح سراحهـــا
وتـــوزعـــت في كنسهـــا آرامهـــا
ومشـــى الضـــلال القهقـرى واستـأصل الـــ
ــاذان مـــن رجـــع الاذان صــلامهـــا
وغـــدا يخللهـــا الخليـــل ســـواحبـــا
عـــذبـــا يمـــرّ لها العـــذاب غمامهـــا
غضبـــا لـــديـــن اللّـــه حـــص جنـاحـــه
بغيـــا وأدمـــى صفحتيـــه لـــدامهـــا
فـــالآن رد النـــور فيـــه نـــوره
وانجـــاب مـــن تلـــك الهنـــات ظـــلامهـــا
محمـــودا المحمـــودا قـــدامـــا إذا
خـــام الكماة وزلـــت اقـــدامهـــا
الفـــارج الكـــرب العظـــام تضـــاجمت
أشـــداقهـــا وفـــرى القلـــوب ضغـــامهـــا(٧٤)

وله من أخرى:

أمـــا الـــرعـــايـــا فـــإنها رشفـــت
لـــديـــك نعمـــى عـــذبـــا ثنـــا يـــاهـــا
سلكـــت نهج العـــدل القـــويـــم بها
فـــا حمدت دينهـــا ودنيـــاهـــا
وكـــم اميتـــت خـــوفـــا فـــامنهـــا
متـــالـــف الخوف خـــوفـــك اللّـــه
للّـــه أقطـــارك التـــي قطـــرت
لها منـــاهـــا إلى منـــايـــاهـــا
أنـــب في إنـــب فـــوارسهـــا
تـــردي فتردي أولاك أخـــراهـــا
أشجـــت لهاة البرنـــس هبـــوتها
وكـــم عتـــاعـــاتيـــا فـــأشجـــاهـــا
وجـــوسلين استســـاغ نطفتهـــا
فـــاحتلـــب الـــذل تحت مغـــداهـــا
ردّتـــه صفـــرا مـــن كـــل مـــا ملكـــت
يـــداه أيـــد مـــاضـــل مسراهـــا
جـــويـــس جـــاستـــك أوجـــه لا رأت
بـــؤســـا وجـــاد الحيـــا محيـــاهـــا
في سريـــة لـــو تكـــون فـــارسهـــا
يـــومئـــذ مـــا انبعثـــت أشقـــاهـــا
لازال ظـــل النعماء عـــن ملـــك
مـــا الشمـــس كفـــؤالـــه إذا بـــاهـــا
واللّـــه جـــازيـــه عـــن مقيـــدة
أعـــزهـــا اللّـــه مـــذ تـــولاهـــا
محمـــــــود المعتلي إلى فلـــــــك
الحمـــد وثيراً لـــه ولا يـــاهـــا
أعطـــاكـــه جـــدّك المتـــوج بالجـــ
ـــدّ ونفـــس للّـــه مغـــزاهـــا
نفـــس عـــزوف عـــن الخنـــا طبعـــت
نـــزههـــا اللّـــه يـــوم ســـوّاهـــا

أنت الذي سلم الانام له
يمنى طباق العلى ويسراها
وأنت مولى الملوك قاطبة
من كل فنا خسرو وشاهنشاها
والشهر هذا الاقول أحمده
أوّه بديل من قولتي واها

وله من أخرى:
يابن الذي لم يال في نجدة ال
إسلام ادلاجا وتهجيرا
تكنف الشام وقد شام بر
ق الخوف انجادا وتغويرا
وكف كلب الروم من بعد أن
انشبه نابا واظفورا
فاهله رقك إن انصفوا
رقا بحدّ السيف مسطورا
بدر هوى واستخلف الشمس في
دستك اشراقا وتأثيرا

وله من أخرى:
ملك كسى الاسلام من ذبه
بردا بتدبيح الظبى معلما
من أصبح الشام به شامة
يقطر من قتل عداه دما
لو لم يقم منصلتا دونه
لم تلق في أقطارها مسلما

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماه واهتمامه بالعرس وعوده إلى حلب:

الـــدهـــر مـــارضتـــه بـــالجودوالبـــاس
مقســـــم بين اغـــــراس واعـــــراس
فتـــح تعـــافيـــه فتـــح ومطلـــب
دانـــي المنـــال وملـــك ثـــابـــت راسي
نصرا ببصرى وصفحـــاعـــن حماة لقـــد
أحسنـــــت للـــــداء حسما أيها الآسي
يـــابـــن الـــذي عنـــت الـــدنيـــا الـــدولتـــه
مـــن فـــاطمـــي اعـــزتـــه وعبـــاسي

وله فيه أيضا:

غـــدا الـــديـــن بـــاسمـــك سـامـــي العلـــم
أمين العماد مكين القـــــــــــدم
لـــــذلـــــك لقبـــــت نـــــورا لـــــه
وقـــد أغطـــش الظلـــم فيـــه الظلـــم
أضـــاءت بعـــدلـــك آفـــاقـــه
وفضـــت عـــرى الـــديـــن لما ادهـــم
ولم تمش رهـــوا النصر الـــرهـــا
ومثلـــك أدرك لما عـــزم
ويـــوم بســـوطـــا بسطـــت الحما
م على الهضـــب مـــن ركنهـــا فـــانهدم
وبصرى وصرخـــد لـــو لم تثـــر
دراكـــا الكـــانـــارديفـــي ارم
ومـــذ فـــض جيشـــك في الغوطتـــ
ـــين فـــض الصليـــب لـــه مـــا نظـــم
وفي كفـــر لاثـــا وهـــاب حللـــ
ـــت عقـــد البرنـــس ببيـــض خـــذم
معـــــودة أنها لاتســـــ
ـــــلّ الا مقمقمـــــة للقمـــــم

يــــوم بسرفــــود جـــــرّ عتهـــم
أجـــاجـــا أغصهـــم واصطلــــم
وفـــوق العـــريمــــة غشــــاهـــم
عــــرام جيـــوشـــك سيـــل العـــرم
وأبــــــت بكلبهـــــم في الكبـــــو
ل مبـــاح الحريــــم مـــــذال الحرم
وبـــــــارتهم أذنـــــــت انها
ابـــــارتهم فليبــــــؤ بـــــذم
بنــــوهـــــا واعلـــوا ولم يعلمـــوا
بما خـــط في اللـــوح منـــك القلـــم
وانـــك خـــارم مـــا أحكمـــو
ه ومـــن ديننـــا راقـــع مـــا انخـــرم
تـــرفـــع مـــن بعـــد خفـــض هـــدى
وتخفـــض مـــن بعـــد رفـــع صنـــم
سمكـــت المدارس فـــوق النجـــو
م فكـــم منجـــم تحتهـــا قـــد نجـــم
وعـــاش الحنيفـــي والشافـــ
ـــعي بما شـــدّت منهـــا وكـــانـــا رمـــم
وإن لم تكـــن هـــاشمـــي الأصـــو
ل فـــانـــك فـــرع الهزبـــر الهشـــم
ومـــن يـــدّعـــي في العلى مـــا ادّعيـــ
ـــت وأنـــت ابـــن مـــن عـــز لما احتكـــم
واقسـم مـــا غـــاب ميـــت سقـــت
مغـــارســـه عين هـــذي الشيـــم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة ، ونفسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القيسراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد الموصلي،وسيأتي شيء من شعره إلى أن قدم العماد الكاتب للشام في سنة اثنتين وستين فتسلم هذا الأمر ،

- ٧٧٥٩ -

وعبر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغزواته بأحسن العبارات وأتمها نظماً ونثراً، وسيأتي كل ذلك في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن الأثير: وفيها توفي صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش بن أرتق.

قلت: وقد مدحه القيسراني والعرقلة وغيرهما من الشعراء.

- ٧٧٦٠ -

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

قال ابـن الأثير: ففيها ملك نـور الدين دمشق، وأخـذها من صـاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكـان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفرنـج ملكوا في السنة الخالية عسقـلان، وهي مدينـة فلسطين حسنا وحصـانـة، ولما كـانـوا يحصرونها كان نـور الـديـن يتلهـف ولايقـدر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طـريقه، وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط، وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق.

واستضعفوا مجير الـدين وتـابعو الغـارة على أعمـاله، وأكثـروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمـر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنـج على أهل المدينة قطيعة كـل سنة ، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيهـا من أهل البلد، ثم أشتد البـلاء على أهلها حين أرسل الفرنج واستعرضـوا عبيدهم وإماءهـم الذين نهبـوا من سائر بـلاد النصرانية وخيروهم بين المقـام عند مواليهـم والعود إلى أوطانهم، فمـن أحب المقام تـركوه، ومن أحـب وطنه سـار إليه، وزالـت طاعـة مجير الـدين عـن أهل البلـد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مـؤيد الدين ابن الصوفي، فلما كانت الأمور بها هكـذا خاف أهلهـا وأشفقوا من العـدّو فلجأوا إلى اللـه تعالى ودعوه أن يكشف مـا بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خـلاصهم مما هـم فيه، على يد أحـب عباده إليـه وأحسنهم طريقـة، وأمثلهم سيرة، وهو الملـك العادل حقا، نـور الدين محمـود، فحسن له السعـي في ملك البلدة وألقاه في روعه، فلما خطر له ذلـك أفكر فيه فعلم أنه إن رام ملكه بالقـوّة والحصار تعذر عليـه لأن صاحبه متـى رأى شيئاً من ذلـك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم.

قلـت: وقد كـان سبق لـه بـذلك سـوابـق قد تقـدّم ذكر شيء منهـا، ولذلك قال العرقلة يمدح أتابكه معين الدين أنر من قصيدة:

يظــن صــلاح الــديـن فــرسـان جلــق
كفــرســانــه ومــا الاســد مثــل الثعــالــب
رجـــال إذا قـــام الصليـــب تصلبـــت
رمـــاحهـــم في كـــل مـــاش وراكـــب
غـــدا يطلـــع الشـــام الفـــرنـــج بفيلـــق
مسعـــودة أبطـــالـــه للمصـــائب
لها الليـــل نقـــع والأسنـــة أنجـــم
فما غير أبطـــــال وغير جنـــــائب

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك لم يكن حينئذ ملكا يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغيساني صاحب حماه، أحد أصحاب زنكي وقد تقدّم ذكره مراراً، وكأنه كان في مقدمة الجيش النوري لما قصد دمشق في المرتين الأولين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زنكي لها، واللّه أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها وإنضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيما لما كان قد جبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل، فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها واستماله، وواصله بالهدايا وأظهر له المودّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلانا - ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين - قد كاتبني في المخامرة عليك فاحذره، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميرا كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهما شجاعا، وفوّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لايتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قلت: وفي بعض قصائد ابن منير ما يدل على أن عطاء هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم
لحور نسائهم منهم نساء
هي الفردوس أصبح هو عاف
من العافي ومن خال خلاء
جنان تعرف الجنات فيها
ولا رأي هناك ولا رواء
لا سمح صعبها ودنت قصاها
وامكنك إقتياد وامتطاء
ويا نعم العطاء عطاء رب
توسطه فأنشطه عطاء
تفاءل باسمه فالفال وعد
يكون على ظباك به الوفاء
هو السبب الذي شزرت قواه
وهذ به لخدمتك الصفاء
وسيف إن تشمه تشم حساما
وإن يغمد فنار بل ذكاء
جنته لك السعادة قطف رأي
لنقب الخادعيك به هناء

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديث، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لما بلغ مجير الدين ذلك، وعطاء هذا هو الذي ينسب إليه مسجد عطا ء خارج الباب الشرقي بدمشق، وجوزة عطاء ببيت أبيات وهي أرض فيها أخشاب كبار من الجوز تربى أوتاراً لجامع دمشق، وهي وقف عليه، وقد مدحه العرقلة وغيره من الشعراء.

قال ابن الأثير: فلما قتل عطاء قوي طمع نور الدين في دمشق، فراسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار

إليهم وحاصرهم عشرة أيام، فكاتب مجير الدين الفرنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحلوا نور الدين عنه ، فإلى أن جمعوا وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من إلباب الشرقي فدخله بالامان عاشر صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الاقطاع الكبير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

وقال ابن أبي طي: أنفذ نور الدين أسد الدين شيركوه رسولا إلى صاحب دمشق فخرج في تجمل عظيم ومعه ألف فارس، فعظم على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة هذه مكيدة ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحد من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين ونزل بمرج القصب وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يعرّفه بما جرى عليه، فسار نور الدين في عساكره وزحف إلى البلد من شرقيه، وكانت الحرب في عاشر صفر ، وتولى أسد الدين القتال وأبلى الجهد فكسر عساكر دمشق إلى الأسوار من قبلي البلد، ولم يكن أحد من المقاتلة على السور من ذلك الجانب لأنّ نور الدين كان من شرقها وجلّ العسكر مقابله، ورأى من كان مع نور الدين من الجاندراية والحلبيين إلى خلوّ السور من المقاتلة فتسرعوا إلى السور وتعلقوا به وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال أن إمراة كانت على السور فدلت حبلا فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى، ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين ، فوقع على أهل البلد الخذلان وكسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق، وكان لأسد الدين اليد الطولى في فتحها، فولاه نور الدين أمرها وردّ إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرحبة.

قال الرئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرم وصل الأمير أسد

الدين شيركوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخيم بناحية القصب من المرج في عسكر يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقع الاستبحاش منه واهمال الخروج إليه لتلقيه والاختلاط به، وتحرّرت المراسلات فيها اقتضته الحال ولم تسفرعن سداد ولا نيل مراد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغلات، ووصل نور الدين في عسكره إلى شيركوه ثالث صفر وخيم بعيون الفاسريا عند دومة، ورحل في الغد ونزل بيت الأبار من الغوطة ، وزحف إلى البلد من شرقيه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثيرووقع الطراد بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوما بعد يوم ، وتأكد الزحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي فاندفع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كيسان والدباغة من قبلي البلد وليس على السور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر ، غير نفر يسير لايؤبه لهم، فتسرع بعض الرجالة إلى السور وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلا فصعد فيه، وحصل على السور ولم يشعر به أحد وتبعه من تبعه وأطلعوا علما نصبوه على السور وصاحوا:نور الدين يامنصور، وامتنع الاجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله وحسن ذكره، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه، وفتحه فدخل منه العسكر وسعوا في الطرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم، وفتح باب توما، أيضا ودخل الناس منه، ثم دخل نور الدين وخواصه ، وسرّ كافة الناس من الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الاسعار والخوف من منازلة الفرنج الكفار،وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه فأومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين فطيب نفسه ووعده الجميل،ودخل نور الدين القلعة في اليوم المقدّم ذكره وأمر بالمناداة بالامان للرعية والمنع من انتهاب شيء من دورهم وتسرع قوم من الرعاع والأوباش إلى سوق علي وغيره فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل

البلد بها طيب نفوسهم وأزال نفرتهم، وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدار الأتابكية دار جدّه، وأقام أياما، ثم تقدم إليه بالمسير إلى حمص في خواصه ومن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه بعد أن كتب له المنشور باقطاعه عدّة ضياع بأعمال حمص برسمه ورسم جنده، وتوجه إلى حمص على القضية المقررة، ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرعية من القضاة والفقها والتجار وخوطبوا بما زاد في ايناسهم وسرور نفوسهم وحسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم فأكثروا الدعاء له والثناء عليه والشكر لله تعالى على ما أصارهم إليه، ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطيخ وسوق البقل وضمان الأنهار وأنشأ بذلك المنشور وقرى على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر الناس بصلاح الحال وأعلن الناس برفع الدعاء إلى اللّه تعالى بدوام أيامه ونصرةأعلامه.

وقال ابن الاثير:لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً.

قلت: قد تقدم ذكره في أوّل الكتاب، وسيأتي منه أشياء مفّرقة فيما بعد.

قال: وألقى الاسلام جرانه بدمشق، وثبتت أوتاده ، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الاسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه، بل ربما تعذر لاسيما مع مجاورة الأفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوّضه عنها مدينة بالس، فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى دارا تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج وعلموا أنه لايقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص

وتقرّبوا إليه، ثم إن من بتل باشر راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حسان المنبجي وهو من أكابر أمراء نور الدين واقطاعه منبج فأمره أن يتسلمها منهم، فسار إليها وتسلمها وحصنها ورفع إليها ذخائر كثيرة.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بزان أطلق يوم الفتح من الاعتقال وأعيد إلى داره، ووصل الرئيس مؤيد الدين المسيب إلى دمشق مع ولده النائب عنه في صرخد إلى داره معوّلا على لزومها وترك التعرّض لشيء من التصرفات والأعمال ، فبدا منه من الأسباب المعربة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السداد والإرشاد ما كان داعيا إلى فساد النية فيه، وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه ، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه وأسقط قوّته مع فهاق متصل وقلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوّل ودفن في داره، واستبشر الناس بهلاكه والرحمة من سوء أفعاله.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظافر بن الحافظ، وأقيم ولده عيسى مقامه وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقبوه بالفائز ، وعباس الوزير، ثم ورد الخبر بأن الامير فارس الدين طلائع بن رزيك ، وهو من أكابر الأمراء المقدّمين الشجعان المذكورين لما انتهى إليه الخبر وهو غائب عن مصر قلق لذلك وامتعض وجمع واحتشد، وقصد العود إلى مصر، فلما عرف عباس بما جمع خاف الغلبة فتأهب للهرب في خواصه وأسبابه وحرمه وما تهيأ من ماله، وسار مغذاً فلما قرب من أعمال عسقلان وغزة خرج إليه جماعة من خيالة الأفرنج فاغتر بكثرة من معه، وقلة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه وانهزم أقبح هزيمة هو وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتل العادل بن السلار

مع ولده وحرمه وماله وكراعه، وحصلوا في أيدي الفرنج ومن هرب لقي من الجوع والعطش شدّة، ومات العدد الكثير من الناس والدواب ووصل في أثرهم فارس الدين فوضع السيف فيمن ظفر به، من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة، وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من ألجأه الهرب على أشنع صفة من العدم والعري في آخر ربيع الآخر .

قلت: وفي ذلك يقول عمارة اليمنى من قصيدة له:

لكم يا بني رزيك لازال ظلكم
مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم
قهرتم بها سلطانه وهو قاهر

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في كتاب الاعتبار أن نصر بن عباس لما قتل ابن السلار وتوزر أبوه عباس، كان نصر يعاشر الخليفة الظافر ويخالطه، وعباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم وضرب بعض الناس ببعض حتى يفنوهم، وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على أبيه ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك فنهيته فاطلع والده على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به وقرّر معه قتل الظافر، وكانا يخرجان متنكرين وهما تربان سنهما واحد فدعاه إلى داره ورتب من أصحابه معه في جانب الدار نفراً، ثم لما استقرّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سلخ محرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ورموه بجب الدار، وأصبح عباس جاء القصر، ضحوة نهار للسلام، وجلس في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظافر ، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى صاحب زمام القصر، وقال: ما لمولانا ما جلس للسلام، فتبلد الاستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: ما لك لاتجاوبني؟ قال: ياmولاي مولانا ما ندري أين

هو، قال: مثل مولانا يضيع ارجع واكشف الحال، فمضى ورجع فقال: ما وجدنا مولانا، فقال: يبقى الناس بلا خليفة ادخل إلى الموالي أخوته يخرج منهم واحد لنبايعه، فمضى وعاد، وقال: الموالى يقولون لك: ما لنا في الأمر شيء والدنا عزله عنا، وجعله في الظافر والأمر لولده بعده، قال: أخرجوه حتى نبايعه وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول لأخوته أنتم قتلتموه ويقتلهم ، فخرج الظافر ولعل عمره خمس سنين يحمله الأستاذ، فأخذه عباس فحمله وبكى وبكى الناس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه وهو حامله وفيه أولاد الحافظ.

قال ابن منقذ: ونحن في الرواق جلوس ، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين فما راعنا إلاّ قوم قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة فإذا السيوف تختلف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: انظر من هذا المقتول، فمضى وعاد وقال: ما هؤلاء مسلمين هذا مولاي أبو الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، ثم إن واحداً شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربة سيف والدم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي الخزانة ألف سيف مجرّد.

قال: وكان ذلك اليوم من أشدّ الايام التي جرت عليّ لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره اللّه سبحانه، وجميع خلقه.

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في ديوانه قال: كان لعباس أربعمائة جمل تحمل أثقاله ومائتا جنيب، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع عشر ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين وخمسمائة وقد قام عليه أهل مصر وعسكريتها فارسهم وراجلهم، تقدّم بشدّ خيله وبغاله وجماله ليتحمل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره وقد ملأت ذلك الفضاء إلى

قصر السلطان إلى الإيوان، خرج غلام يقال له عنبر كان على أشغاله وغلمانه كلهم تحت يديه فقال للجمالين والخربندية والركابية:روحوا إلى بيوتكم وسيبوا الدواب، ففعلوا ذلك وانحاز هو إلى المصريين يقاتله معهم، وكان ما جرى من تهميل الدواب لطفا من اللّه تعالى به فإنها سدّت الطريق بينه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلق كثير، ونحن في قلة ما نبلغ خمسين رجلا، وغلمان عباس ومماليكه في ألف ومائتي غلام بالخيول الجياد والسلاح التام، وثمانمائة فارس من الأتراك خرجوا كلهم من باب النصر ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطابية فراراً من القتال، فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال

والبغال ، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عباس من باب النصر وجاؤوا في أثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره، وكان عباس قد أحضر من العرب نحوا من ثلاثة آلاف فارس يتقوّى بهم على المصريين، واستحلفهم ووهبهم هبات عظيمة فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدّ قتال ستة أيام يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف الليل ثم يركبون ويهدّون خيلهم على جانب الناس، ويصيحون صيحة واحدة فتجفل الخيل وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه منعة وقوة، فيأخذونه، فكان ذلك سبب هلاك خيله وتمكن الأفرنج منه واشتغاله عن سلوك طريق لايقصده الفرنج إليه.

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعة ضحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليهوأخذوامنه حسباً على أموالهم وأنفسهم وبيوتهم ظنا منهم أن له عودة إليهم وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس، ويوم الأحد صبحهم الأفرنج، وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم فقتلوا ابنه الأوسط وابنه الأكبر، وقتلوا خلقا كثيرا، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صغاراً وانصرفوا.

قلت: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعزبن باديس الحميري، ويلقب بالأفضل ركن الدين ويكنى بأبي الفضل، ورأيت علامته في الكتب أيام وزارته « الحمد لله وبه أثق» وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عم جود الأفضل السيد الورى
وأغنى غناء الغيث حيث يصوب(٧٥)

ومن أبيات لابن أبي أسعد فيه لما قتل الظافر:

وأنفق من انعامهم في هلاكهم
وأظهر ما قد كان عنه تنافق
ومدّ يداً قد طوّلوها إليهم
وحلت بأهل القصر منه البوائق
سقى ربه كاس المنايا وما انقضى
له الشهر إلا وهو للكأس ذائق

وكان عباس قد تخيل من أسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصالح من المودّة والمصافاة فأحضره واستحلفه أنه لاينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى أنفذ من أستاذي داره من يدخل على حرمه إلى داره فأخذ أهله وأولاده فتركهم عند أهله وأولاده.

وقال: قد حملت ثقلهم عنك لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ، يعني ولده ناصر الدين وبأخواه ، فلما خرجوا ونهبت دورهم ودوابهم عجز عن حمل من يخصه، فأعادهم أسامة من بلبيس، وأنفذ إلى الملك الصالح يقول له: قد أنفذت أهلي وأولادي إليك، وأنت ولي ما تراه فيهم، فأنزلهم في دار وأجرى عليهم الجاري الواسع وأحسن إليهم غاية الأحسان ، وكان يكاتبه في الرجوع إلى مصر وهو يلطف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسب إلى وحشة قلبه من القصور ونفوره من المصريين، فأنفذإليه يقول له: تصل إلى مكة في الموسم

ويلقاك رسولي إليها يسلم إليك مدينة أسوان، وأنفذ إليك أهلك وأمدك بالأموال وهي كما علمت الثغر بيننا وبين السودان، وما يسدّ ذلك الثغر مثلك وأكثر من الوعد وذكر رغبته في قربه ورعايته وما بينه وبينه من قديم الصحبة، فاستأذن أسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته فقال: يافلان ما تساوي الحياة الشتات والرجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان، ومنعه من ذلك بإحسانه ووعده أن يستخلص أهله، فكتب أسامة إلى الملك الصالح يعتذر ويسأله تسيير أهله وتردّدت بينهما مكاتبات وأشعار متصلات إلى أن سيرهم وهم نيف وخمسون نسمة في الاكرام والاحترام إلى آخر ولايته .

وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه، ووصله بعض أصحابه من دمشق وهو في العسكر النوري بحلب فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسرت بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه ولم يصلوا إلى دمشق إلاّ بأنفسهم، وأن متملك الافرنج أعطاهم خمسمائة دينار أصلحوا منها حالهم، وأكتروا ظهراً إلى دمشق قال أسامة:

إلى اللّه أشكو فرقة دميت لها
جفوني وأذكت بالهموم ضميري
تمادت إلى أن لاذت النفس بالمنى
وطارت بها الاشواق كل مطير
فلما قضى اللّه اللقاء تعرضت
مساءة دهري في طريق سروري (٧٦)

فصل

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأوّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر

محمد نـائب نور الدين في حلـب إلى دمشق عقيب عوده مـن الحج،وأقام أياما وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: مجد الـدين هذا هـو ابن الدايـة، وكان نور الـدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخـوته وسيتكرر ذكرهـم في هذا الكتـاب، ومجد الديـن أكبر أخوته، وقد مدحه الشعراء قال القيسراني من بعض ما قاله فيه:

دعــوا مـــا مضـــى مــــن قبـــل هــــذا المابعــــد
فــأقســـم لـــولا المجـــد مـــا عـــرف المجـــد
كـــريـــم سمـــت أوصـــافـــه لعفـــاتـــه
قـــــرائن كـــــل اثنين بينهما عقـــــــد
محيــــــاه والبشرى ويمنـــــاه والنـــــدى
ونجـــواه والـــدنيـــا وتقـــواه والـــزهـــد
ففـــي قـــربـــه الـــزلفـــى وفي وعـــده الغنـــى
وفي نيلـــه الحسنـــى وفي رأيـــه الـــرشـــد
إذا وجـــه نـــور الـــديـــن قـــابـــل مجده
فقـــل في كمال البـــدر قـــابلـــه السعـــد

وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فليته، وولي الحرمين ابنه قـاسم بن هـاشم، وهو الذي أرسـل عمارة اليمني الفقيه الشـاعر إلى الديار المصرية، وسيأتي ذكره.

قال أبـو يعلى: وفي ثامن مـن جمادى الأولى ورد الخبر من نـاحية مصر أن عدة وافرة من مراكب الفرنـج من صقلية وصلت إلى مدينة تنيس على حين غفلـة من أهلهـا، فهجمت عليهـا وقتلـت وأسرت وسبت ونهبـت، وعادت بالغنـائم بعد ثلاثة أيام وتـركتها صفراً، وبعد ذلك عـاد من كان هرب منهـا في البحر بعد الحادثـة، ومن سلـم واختفى وضاقـت الصدور عند استماع هذا الخبر المكروه.

- ٧٧٧٣ -

قال: وفي شهر رمضـان ورد الخبر من ناحية حلب بوفـاة القاضي فخر الديـن أبي منصور محمـد بن عبـد الصمد بـن الطرسـوسي، وكان ذا همة ماضيـة ويقظة ومـروءة ظاهـرة، وفي داره وولده ومـن يلم بـه من غـريب ووافد، وقـد نفذ أمـره وتصرفه في أعمال حلب في الأيـام النوريـة، وأثر في الوقوف أثراً حسنا، توفر به ارتفاعها، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال.

- ٧٧٧٤ -

ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة

وفيها تسلم نور الدين بعلبك من واليها ضحاك، ذكر ابن الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان الضحاك البقاعي ينوب ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع ضحاك بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها واستولى عليها.

وقال ابن أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتب نور الدين في تسليم بعلبك فأنفذ إليه وتسلمها منه وألحقه بأصحابه.

قال: ورأيت بعض المؤرخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة، وجعله في البلد، وولى القلعة رجلاً يقال له ضحاك، فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها ضحاكا وتوسط أسد الدين في أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعا وسيره إلى دمشق، فأقام فيها ورد نظر دمشق إليه، وولى ولده تور انشاه شحنكية دمشق، فساسها أحسن سياسة ولم يزل بها إلى أن توفي، فولى صلاح الدين شحنكية دمشق .

قلت: هذا وهم، تورانشاه هو الملك المعظم شمس الدولة الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين،فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شحنكية دمشق، وأما كونه ولي الشحنكيةبدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيت ما يؤكده ، قرأت في ديوان العرقلة وقال يهنيه بالشحنكية بدمشق، وهو في دار عمه أسد الدين شيركوه بن شاذي:

قلت لحسادك زيدوا في الحسد
قد سكن الدار وقد حاز البلد

لا تعجبوا إن حل دار عمه
أما تحل الشمس في برج الأسد

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوص الشام تابوا من ذنوب
تكفرها العقوبة والصفاد
لئن كان الفساد لكم صلاحا
فمولاي الصلاح لكم فساد

وله فيه أيضا:

رويدكم يا لصوص الشـ
ـام إني لكم ناصح في مقالي
وإياكم وسمي النـ
ـبي يوسف رب الحجى والجمال
فذاك مقطع أيدي النسـ
ـاء وهذا مقطع أيدي الرجال

قال ابن ابى طيّ: وولي صلاح الدين شحنكية دمشق والديوان فأقام فيه أياما، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعة جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن همام ، فأنفذ نور الدين وأخذ ابن همام وحلق لحيته، وطيف به في دمشق.

قلت: وابن همام هذا هو الذي ذكره الشنباسي في قصيدته، وأشار إلى حلق لحيته بقوله:

كأبي سالم بن همام لما
قام للنصح عاد يمشي ملثم

ثم قال ابن أبي طيّ: واستخص نور الدين صلاح الدين وألحقه بخواصه، فكان لايفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعا في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة .

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصة بالملك قليج

أرسلان بن الملك مسعـود بن سليمان بن قتلمش ملك قونيـة وما والاها ، فملك عـدّة من حصـونها وقلاعها بـالسيف والأمـان، وكان الملـك قليج أرسـلان وأخواه ذو النـون ودولات مشتغلين بمحاربـة أولاد الدانشمنـد، ونصروا عليهم في وقعـة كانت بـأقصرا في شعبان، فلما عاد قليـج أرسلان وعرف مـا كان من نـور الدين في بلاده عظـم عليه هذا الأمـر، واستبشعه مع مـا بينهما من الموادعـة والمهادنة والصهـر، وراسله بـالمكاتبـة والانكار والوعيد والتهديد فأجابه نـور الدين بحسن الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمـر بينهما مستمـراً على هـذه الحال، وعـاد نور الـديـن مـن حلـب إلى دمشق.

قـال: وولي الاسطـول المصري مقـدّم شديـد البـأس. بصير بـاشغـال البحر، فاختار جماعـة من رجال البحر يتكلمون بلسـان الفرنج، وألبسهم ثيـابهم، ونهض بهم في عـدّة مـن المراكب الاسطـوليـة، وأقلـع في البحـر ليكشـف الأماكـن والمكامـن والمسالـك المعروفـة بمراكـب الروم وتعـرّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور وقد ذكـر له أن فيه شختورة رومية كبيرة فيها رجال كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكهـا، وقتل من فيها واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحـرقها وعاد منها في البحر فظفر بمراكب حجاج الفرنج، فقتل وأسر وانتهب وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى.

قلت : وفي هذه السنة ورد أمر الخليفـة ببغداد، وهو المقتفي ، إلى أمير الحرمين قاسـم بن هاشم يـأمره أن يركـب على باب الكعبة المكرّمـة باب ساج جـديدا، قد ألبـس جميع خشبه فضـة وطلي بذهب، وأن يـأخذ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه ويسير إليه خشب الباب القديم مجرّداً ليجعله تابوباً يدفن فيه عند مـوته. وذكر ذلك الفقيه عمارة الشاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيـع له الفضة التي أخذها مـن الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألـف درهم فتوجهت إلى زبيد، وعـدت من مكة في صفر سنـة إحدى وخمسين، وحججت في الموسـم منها فـدفعت لأمير

- ٧٧٧٧ -

الحرمين ماله، وألزمني الترسل عنه إلى مصر، يعنـي مرة ثانية بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدين قلعة حارم، وهي حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية ، وضيق على أهلها وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين، فاجتمعت الفرنج من قرب منها ومن بعد، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطان من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه ،فأرسل إليهم يعرّفهم قوّتهم وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذب عنه، بما عندهم من العدد والعدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارم وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه، ففعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نور الدين في الصلح على أن يعطوه حصة من حارم، فأبى أن يجيبهم إلاّ على مناصفة الولاية فأجابوه إلى ذلك فصالحهم وعاد.

وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدة وذكر أبياتا من قصيدة لابن منير ، وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين، فأما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة، وقد قرأت في ديوان ابن منير، وقال يمدحه ويهنيه بالعود من غزاة حارم:

ما فوق شأوك في العلى مزداد
فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا
فالشهب أطناب لها وعماد
أنت الذي خطبت له حساده
والفضل ما اعترفت به الحساد
قام الدليل وسلم الخصم اليلند
وانجلى للآثر الاسناد
زهرت لدولتك البلاد فروحها
ارج المهب ودوحها مياد

أحيـــا ربيـــع العـــدل ميـــت ربـــوعهـــا
فـــالبرض نســـج والهشيـــم مـــراد
فـــالعيـــش إلا في جنـــابـــك ميتـــة
والنـــــوم إلا في حماك سهـــــــاد
وإذا العـــدى زرعـــوا النفـــاق واحصـــدوا
كيـــدا فعـــزمـــك نـــاقـــض حصـــاد
بـــالمقـــربـــات كـــأن فـــوق متـــونها
جـــن الملا وكـــــأنها أطـــــواد
تـــدأى ومـــن وحـــي الكماة صفـــورهـــا
فـــالـــزجـــر قيـــد والنـــدى قيـــاد
سحـــب إذا سحبـــت بـــأرض ذيلهـــا
فـــالحزن سهـــل والهضـــاب وهـــاد
يهدي النـــواظـــر في دجنـــة نقعهـــا
بـــنـــدر بسرجـــــك نير وقـــــاد
ألبســـت ديـــن محمـــد يـــانـــوره
عـــزّالـــه فـــوق السُّهـــا إسـاد
مـــازلـــت تسمكـــه بميـــاد القنـــا
حتـــى تثقـــف عـــوده الميـــاد
لم يبـــق مـــذ أرهفـــت عـــزمـــك دونـــه
عـــدد يـــراع بـــه ولا استعـــداد
إن المنـــابـــر لـــو تطيـــق تكلما
حمدتـــك عـــن خطبـــائها الاعـــواد
ولئـــن حمت منـــك الأعـــادي مهلـــة
فلهـــم إلى المرعـــى الـــوبيّ معـــاد
ولكـــم لكـــم في أرضهـــم مـــن مشهـــد
قـــامـــت بـــه لظبـــاكـــم الاشهـــاد

ملـــق بـــأطـــراف الفـــرنجـــة كلكـــلا
طـــرفـــاه ضرب صـــادق وجـــلاد

حـــامـــوا فلما عـــاينــوا حــوض الـــردى
حـــامـــوا بـــرائش كيـــدهـــم أو كـــادوا
ورجـــا البرنـــس وقـــد تبرنـــس ذلـــة
حـــرمـــا بحـــارم والمصـــاد مصـــاد
ضجـــت ثعـــالبـــه فـــأخـــرس جـــرسهـــا
بيـــض تنـــاســـب في الحديـــد حـــداد
وســـواعـــد ضربـــت بهنّ وبـــالقنـــا
مـــن دون ملـــة أحمد الاســـداد
يـــركـــزن في حلـــب ومـــن افنـــانها
تجنـــي فـــواكـــه أمنهـــا بغـــداد
يـــامـــن إذا عصفـــت زعـــازع بـــأســـه
خمدت جحيـــم الشرك فهـــي رمـــاد
عجبـــا لقـــوم حـــاولـــوك وحـــاولـــوا
عـــودا فـــواتـــاهـــم إليـــه مـــراد
ورأوا النصر فـــوقـــك خـــافقـــا
فـــأقـــام منهـــم في الضلـــوع فـــؤاد
مـــن منكـــر أن ينســـف السيـــل الـــربـــا
وأبـــوه ذاك العـــارض المدّاد
أو أن يعيـــد الشمـــس كـــاسفـــة السنـــا
نـــار لها ذاك الشهـــاب زنـــاد
لا ينفـــع الآبـــاء مـــا سمكـــوا مـــن الـــ
ـــعلياء حتـــى تـــرفـــع الأولاد
ملـــك يقيـــد خـــوفـــه ورجـــاؤه
ولقلما تتضـــافـــر الاضـــداد

وقال يهنيه بالنصر يوم حارم قصيدة أوّلها:
للملك مـــا تشـــاء مـــن الـــدوام

يقول فيها:

حظيـــت مـــن المعـــالي بـــا لمعـــاني
ولاذ النـــاس بعـــدك بـــالاســـامـــي
عـــزيـــز المنتمـــى عـــالي المراقـــي
بعيـــد المرتمى غـــالي المســـامـــي
فما أحـــــد إلى العليـــاء يـــدلي
بمحتـــدك القسيمـــي القســـامـــي
أبـــوك المعتلي قمـــم الأعـــادي
إذا استعـــرت مـــذامـــرة القمام
زكـــا عـــرق العـــراق وقـــد تكنـــى
بـــه وأطـــال مـــن شمـــم الشـــآم
وجـــدك جـــدّ حتـــى قـــال قـــوم
على الفلـــك ابتنـــى عمـــد الخيـــام
فخـــرت ففـــت أبـــاء عظـــامـــا
إذا فخـــر المنـــافـــر بـــالعظـــام
وقفنـــا والنـــواظـــر مسجـــدات
وروح العـــــز ذاريّ الختـــــام
أســـاطـــر كـــالـــزبـــور مفصـــلات
كـــأنـــا مـــن صـــلاة في نظـــام
لـــدى ملـــك سجـــايـــاه سجـــال
تعـــاقـــب بين عفـــو وانتقـــام
كـــريـــم أكثـــرت يـــده أيـــادى الـــ
ـــعفاة وقللـــت عـــدد الكـــرام
فـــأهللنـــا الســـالفتـــي هـــلال
وكفـــرنـــا الضـــاحكتـــي حســـام
ذهلنـــــا والسماط تخال سمطـــــا
وقـــد سجـــد المقـــاول للســـلام
هـــل الـــدســـت استقـــل بليـــث غـــاب
أم الفلـــك ارتـــدى بـــدر التمام

يطـــرب بـــه إلى العليــــاء نفـــس
غـــروب عــــن مــــلاء مـــة الملام
وخير سماعـــــه ضرب مــــدام
إذا طـــــرب الملــــوك إلى المدام
سقـــى اللّـــه العـــوامـــل مـــن جبـــان
شققـــن النقـــع عـــن نقـــع الاوام
فكـــم انتجـــت مـــن أمـــل عقيـــم
بها وحسمـــت مـــن داء عقـــام
بـــإنـــب والـــرعـــال كـــأن ثـــولا
تطـــاوح تحت عير مـــن أيـــام
مقـــام كنـــت قطـــب رحـــاه أرجـــى
مقـــام بين زمـــزم والمقـــام
رميتهـــم بـــأرعـــن مـــرجحـــنّ
ابـــارهـــم وكنـــت أبـــرّ رام
وقمـــت وقـــد تنـــاعـــس كـــل راع
وقـــام وقـــد تقـــاعـــس كـــل حـــام
فـــأيـــدي الخيـــل تـــذرع بحـــر لـــج
مـــن الـــدم مـــن يـــد التثخين طـــام
أحلـــت الـــديـــن فيـــه وكـــان هما
عـــزيـــز القـــوم معتـــدل القـــوام
وفي شجـــراء حـــارم شـــاجـــرتهم
ســـواهـــم كـــالسهـــام بكـــا السهـــام
نظـــائر حممـــت لهم حمامـــا
تطـــايـــر تحتـــه مثـــل الحمام
فلـــو قـــد مثـــل الاســـلام شخصـــا
لـــرشـــف مـــا وطئـــت مـــن الســـلام
فـــاكـــذب مـــدّعين هفـــوا وغـــرّوا
بـــأن الأرض تخلـــو مـــن همام

أولى لابصـــاركـــم هـــذا التعـــاشي
عـــن النـــور المبين بـــل التعـــامـــي
عـــن القمـــر الـــذي يجلـــوه ظـــل الـــ
ـــعواصم في ضيـــا الليـــل التهـــامـــي
هـــو المهـــدي لامـــن ضـــل فيـــه
كثير واستخـــف ســـوى هشـــام
وقـــائم عصرنـــا لامـــا تمنـــى
بـــه مـــن صـــوغ أضغـــاث المنـــام
بنـــور الـــديـــن أنشر كـــل حـــق
أطيـــل ثـــواؤه تحت الـــرجـــام
وطـــالـــت قبـــة الاســـلام حتـــى اســـ
ـــتوت بين الفـــوارس والنعـــام
تطـــابـــق لاسمـــه لفـــظ ومعنـــى
أحـــلاه الطبـــاق علـــى الأنـــام
جـــرى قـــدّامـــه ابـــن سبكتكين
وقبـــل الـــوبـــل هينمـــة الـــرهـــام
وكـــان مـــن النجـــوم بحيـــث تـــومـــى
إليـــه مـــن عنـــايـــات التكـــامـــي
وجئـــت فصـــار أشمـــخ مـــا بنـــاه
لما شيـــدت الطـــأمـــن رغـــام
أطـــاعـــك إذ أطعـــت اللّـــه جـــدّ
ركبـــت بـــه الـــزمـــان بـــلا زمـــام
ألا يـــاربما اتفـــق الاســـامـــي
وفـــاضـــل بينهـــا درج التســـامـــي
جنـــى شرفـــا مـــن استغـــواه حتـــف
إليـــك وكـــم حيـــاة مـــن حمام
تـــرشفـــك الكماة وأنـــت مـــوت
كـــانـــك مـــن طعـــان في طعـــام

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: توجه نور الدين إلى ناحية حلب في بعض عسكره في الرابع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم وصادفه في طريقه المبشر بظفر عسكره الحلبي بالافرنج المفسدين على حارم وقتل جماعة منهم وأسرهم، ووصل مع المبشر عدّة وافرة من رؤوس الأفرنج المذكورين وطيف بها في دمشق.

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في بعض أيام رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها وتفقد أحوالها، واستقرّت الموادعة بينه وبين ولد السلطان مسعود صاحب قونية وزال ماكان حدث بينهما، وفي شوال تقرّرت الموادعة والمهادنة بينه وبين ملك الأفرنج مدّة سنة كاملة، أوّلها شعبان وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية، وكتبتا المواصفة بذلك بعد أن تأكيدها بالأيمان والمواثيق المشدّدة.

قال: وفي العشر الآخر من ذي الحجة غدر الفرنج ونقضوا ما كان استقر من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدّة وافرة من الفرنج في البحر وقوّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس، وقد اجتمع فيها من جشارات الخيول العسكرية والرعية وعوامل فلاحي الضياع ومواشي الجلابين والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لايحصى فيذكر للحاجة إلى الرعي بها، والسكون إلى الهدنة المستقرّة، ووقع للمندوبين وبحفظها تقصير فانتهزوا الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه، وأقفروا أهله منه مع من أسروه من التركمان وغيرهم وعادوا غانمين ظافرين أمنين، واللّه عادل في حكمه يتولى المكافأة لهم والادالة منهم، وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السنة الآتية.

وفيها توفي القاضي أبو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس، كاتب الانشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دمياط، ذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه، ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في آخر الصلاة.

وفاتر النية عنينها ... مع كثرة الرعدة والهمزه
مكبر سبعين في مرة ... كأنه صلى على حمزه

وله في وصف كتاب:

مداده في الطرس لما بدا ... قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللمى ... أو ذاب فيه الحجر الأسود

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظمه كثيراً ويسميه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لايتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلاّ في ركوبه من القصر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر فيسايره الفاضل ويجاريه في فنون إلكتابة والآداب والشعر.

قال: وفيها في يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل من هذه السنة توفي الفقيه الزاهد أبو البيان نبأبن محمد المعروف بابن الحوراني، وكان حسن الطريقة مذ نشأ صبيا إلى أن قضى متدينا نقيا عفيفا سخيا محباً للعلم والأدب والمطالعة للغة العرب، وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر الباب الصغير المجاورة لقبور الصحابة من الشهداء رضي الله عنهم يوم مشهود من كثرة المتأسفين له والمثنين عليه.

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار، وفي الليل ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماه بانهدام مواضع كثيرة وانهدام برج من أبراج افامية، بهذه الزلازل المباركة، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الخالية، وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أوّل شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروّعت القلوب انتصاف الليل ، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي تلتها زلزلتان أوّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلزلة أعظم مما تقدّم، وفي سابعه وسادس عشره، ، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع اللّه تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم، فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأما شيزر فإن الكثير من مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفر طاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأمّا حماه فكانت كذلك، وأمّا باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة ، واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلـزلة عظيمة، وتلاها أخرى وكذا في ليلة العشريـن واليوم بعدهـا، وتواصلت الأخبـار من الشام بعظيـم تأثير هذه الزلازل ، وفي ليلـة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافـت أربع زلازل، وضج الناس بـالتهليل والتسبيح والتقديـس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان وترادفت الأخبـار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازل أثـرت في حلـب تـأثيرا أزعـج أهلها وأقلقهـم وكـذا في حمص وهـدمـت مواضـع فيها، وفي حماه وكفـر طاب وأفاميـة ، وهدمت مـا كان بنـي من مهدوم الزلازل، وحكـي أن تيماء أثرت فيها هذه الـزلازل تأثيرا مهولاً، وفي رابـع رجب نهاراً وافـت بـدمشـق زلزلـة عظيمـة لم يـر مثلها فيما تقـدّم، ودامـت رجفاتها حتـى خاف النـاس على أنفسهـم ومنازلهم وهـربوا مـن الـدور والسقائف وانـزعجوا وأثـرت في مـواضع كثيرة، ورمـت من فـص الجامع الشيء الكثير الذي يعجـز عن إعادته، ثم وافت عقيبهـا زلزلة في الحال، ثـم سكنتـا بقدرة مـن حـركهـا، ثـم تبـع ذلك في أول ليلـة اليـوم المذكور زلـزلة، وفي وسطـه زلزلة، وفي آخـره زلزلة،وفي ليلـة الجمعة ثـامن رجب زلزلة مهـولة أزعجت الناس ، وتلاها في النصف منهـا ثانية، وعند انبلاج الصبـح ثالثة، وكـذلك في ليلـة السبت وليلة الأحـد وليلة الاثنين، وتتابعت بعـد ذلك بما يطول الشرح ، ووردت الاخبار مـن ناحية الشمال بما يسـوء سماعـه، ويرعـب النفـوس ذكـره بحيث انهدمـت حماه وقلعتهـا وسائر دورها ومنازلها على أهلها مـن الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان، وهم العـدد الكبير والجم الغفير، بحيث لم يسلم منهـم إلاّ القليل اليسير، وأمّا شيزر فـان ربضها سلم الا ما كان خرب أوّلا، وأمّـا حصنها المشهور فإنـه انهدم على واليها تاج الـدولة بن أبي العساكـربن منقذومـن تبعه إلاّ اليسير ممن كان خارجـا، وأمّا حمص فانّ أهلها كانوا قـد قد اختلفوا منها إلى ظـاهرهـا فسلمـوا، وتلفـت مساكنهـم، وتلفـت قلعتهـا، وأمّا حلـب

فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب وأفامية وما والاها ودنا منها وبعد عنها من الحصون والمعاقل إلى جبلة وجبيل ، وأتلفت سلمية وما اتصل بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها،ولولم يدرك العباد والبلاد رحمة اللّه تعالى ولطفه لكان الخطب أفظع، وقد نظم في ذلك من قال:

روّعتنا زلازل حادثات
بقضاء قضاه رب السماء
هدمت حصن شيزر وحماة
أهلكت أهله بسوء القضاء
وبلادا كثيرة وحصونا
وثغورا موثقات البناء
وإذا مارنت عيون إليها
أجرت الدمع عندها بالدماء
وإذا ما قضي من اللّه أمر
سابق في عباده بالمضاء
حار قلب اللبيب فيه ومن كا
ن له فطنة وحسن ذكاء
وتراه مسبحا باكي العيـ
ـن مروعاً من سخطه وبلاء
جل ربي في ملكه وتعالى
عن مقال الجهال والسفهاء

قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والاماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

قال: وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماه أعظم مما كانت في غيرها وأنها هدمت ما كان عمر فيها من بيوت يلتجيء إليها وأنها دامت أياما كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات توفي على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك ردفات متوالية أخف من غيرهنّ، فلما كانت ليلة السبت العاشر من شوال، وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء، الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها، هزة خفيفة، وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل ، وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضا زلازل نفرالناس من هولها إلى الجوامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرع إلى الله تعالى، وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس.

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدها بمدينة حماه وحصن شيزر فإنهما خربا بالمرّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعرّة، وغيرها من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لايحصه إلاّ اللّه تعالى، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أن اللّه منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد، وإلاّ كان دخلها الأفرنج بغير حصار ولا قتال.

وقال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماه ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور، وسقط المكتب على

الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مؤيد الدولة أسامة بن مرشد ابن منقذ، وقال في الزلازل التي أهلكت كثيرا من أهل الشام وكان ابتداؤها في شهر اللّه رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها من هلك من الخلق وكان نحوا من عشرة آلاف نسمة، قال وكتب هذا المكتوب والزلازل إلى الآن تتعاهد البلاد:

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحـ
ـنا نظن اليقين احلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي
تيقظوا كم ينام من ناما(٧٧)

وقال أيضا:

أيها الغافلون عن سكرة المو
ت وإذ لا يسوغ في الحلق ريق
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ
ـلة حار الساري وضل الطريق
إنما هزت الزلازل هذي الـ
أرض بالغافلين كي يستفيقوا(٧٨)

وقال في الزلازل أيضا وقد سكن الناس بعد الدور النزهة في أكواخ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الراحمين أرحم عبادك من
هذي الزلازل فهي الهلك والعطب
ماجت بهم أرضهم حتى كأنهم
ركاب بحر من الانفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ونصفهم
لمصرع السلف الماضين يرتقب

تعـوّضـــوا مـــن مشيـــدات المنـــازل بـــالـــ
ـــــلاكواخ فهـــي قبـــور سقفهـــا خشـــب

كـــأنها سفـــن قـــد أقبلـــت وهـــم
فيهـــا فـــلا ملجـــأ منهـــا ولا هـــرب (٧٩)

وقال: يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شيزر قصيدة منها:

مـــا استـــدرج الموت قـــومـــي في هـــلاكهـــم
ولا تخرمهـــم مثنـــى ووحـــدانـــا

فكنـــت اصبر عنهـــم صبر محتســـب
وأحمد الخطـــب فيهـــم عـــز أو هـــانـــا

واقتـــدي بـــالـــورى قبلي فكـــم فقـــدوا
أخـــا وكـــم فـــارقـــوا أهـــلا وجيرانـــا

لكـــن سقـــب المنـــايـــا وسـط جمعهـــم
رغـــا فخـــروا على الاذقـــان اذعـــانـــا

وفـــاجـــأتهم مـــن الأيـــام قـــارعـــة
سقتهـــم بكـــؤوس الموت ذيفـــانـــا

مـــاتـــوا جميعـــا كرجـــع الطـرف وانقـرضـوا
هـــل مـــا تـــرى تـــارك الحين إنســـانـــا

اعـــزز علـي بهم مـــن معشر صبروا
على الحفيظـــة إن ذو لـــوثـــة لانـــا

لم يترك الـــدهـــر لي مـــن بعـــد فقـــدهـــم
قلبـــا أجشمـــه صبرا وسلـــوانـــا

فلـــو رأوني لقـــالـــوا مـــات أسعـــدنـــا
وعـــاش للهـــم والاحـــزان اشقـــانـــا

لم يترك الموت منهـــم مـــن يخبرني
عنهـــم فيـــوضـــح مـــا قـــالـــوه تبيـــانـــا

بـــادوا جميعـــا ومـــا شـــادوا فـــواعجبـــا
للخطـــب أهلـــك عمارا وعمـــرانـــا

هـــذي قصـــورهـــم أمســـت قبـــورهـــم
كـــذاك كـــانـــوا بها مـــن قبـــل سكـــانـــا

ويـــح الـــزلازل أفنـــت معشري فـــإذا
ذكـــرتهم خلتنـــي في القـــوم سكـــرانـــا
لا ألتقـــى الـــدهـــر مـــن بعـــد الـــزلازل مـــا
حييـــت إلاّ كسير القلـــــب حيرانـــــا
أخنـــت على معشري الادنين فـــاصطلمـــت
منهـــم كهـــولا وشبـــانـــا وولـــدانـــا
لم يحمهـــم حصنهـــم منهـــا ولا رهبـــت
بـــأســـا تنـــاذرة الأقـــران أزمـــانـــا
إن اقفـــرت شيـــزر منهـــم فهـــم جعلـــوا
منيـــع أســـوارهـــا بيضـــا وخـــرصـــانـــا
هـــم حموهـــا فلـــو شـــاهـــدتهم وهـــم
بها الشـــاهـــدت آســـادا وخفـــانـــا
تـــراهـــم في الـــورى أســـد ويـــوم نـــدى
غيثـــا مغيثـــا وفي الظلماء رهبـــانـــا
بنـــو أبي وبنـــو عمـــي دمـــي دمهـــم
وإن أروني منـــاواة وشنـــآنـــا
يطيـــب النفـــس عنهـــم انهم رحلـــوا
وخلفـــوني على الاثـــار عجـــلانـــا(٨٠)

وكتب إليه الصالح بن رزيك قصيدة يعزيه عن أهله منها:
بـــأبـــى شخصـــك الـــذي لا يغيـــب
عـــن عيـــانـــى فهـــو البعيـــد القـــريـــب
يـــا أخـــلاي بـــالشـــام إن غبـــ
ـــتم فشـــوقـــي إليكـــم لا يغيـــب
غصبتنـــا الايـــام قـــربكـــم منـــ
ـــا ولا بـــد أن تـــردّ الغصـــوب

كـــــره الشـــــام أهلـــــه فهـــــو محقـــــو
ق بـــــأن لا يقيـــــم فيـــــه لبيـــــب

إن تجلـــــت عنـــــه الحروب قليـــــلا
خلفتهـــــا زلازل وخطـــــوب
رقصـــــت أرضـــــه عشيـــــة غنـــــى الـــــ
ـــــرعد في الجوّ والكـــــريـــــم طـــــروب
وتثنـــــت حيطـــــانـــــه إذا مـــــالتـــــ
ـــــها شمال بـــــزمـــــرهـــــا وجنـــــوب
لا هبـــــوب لنـــــائم مـــــن أمـــــانيـــــ
ـــــه وللعـــــاصفـــــات فيهـــــا هبـــــوب
وأرى البرق شـــــامتـــــا ضـــــاحـــــك السـ
ـــــن وللجـــــوّ بـــــالغمام قطـــــوب
ذكـــــروا أنـــــه يـــــذوب بـــــه السحـ
ـــــب فما للصخـــــور أيضـــــا تـــــذوب
أبـــــذنـــــب أصـــــابها قـــــدر اللـ
ـــــه فلـــــلأرض كـــــالأنـــــام ذنـــــوب
إن ظنـــــي والظـــــن مثـــــل سهـــــام الـ
ـــــرمي منهـــــا المخطـــــى ومنهـــــا المصيـــــب
إن هـــــذا الآن غـــــدت ســـــاحـــــة القـــــد
س ومـــــا الـــــلاســـــلام فيهـــــا نصيـــــب
منـــــزل الـــــوحـــــي قبـــــل بعـــــث رســـــول اللـ
ـــــه فهـــــو المحجـــــوج والمحجـــــوب
نـــــزلـــــت وسطـــــه الخنـــــازيـــــر والخمـ
ـــــر وبـــــارى النـــــاقـــــوس فيـــــه الصليـــــب
لـــــو رآه المسيـــــح لم يـــــرض فعـــــلا
ذكـــــروا أنـــــه لـــــه منســـــوب
لهف نفسي على ديـــــار مـــــن السكـ
ـــــان أقـــــوت فليـــــس فيهـــــا مجيـــــب

أن تخصيصكم نوائب مازا ... لت لكم دون من سواكم تنوب

أبعد الناس عن عبادة رب النـ ... ـاس قوم إلههم مصلوب

فاحتسب ما أصاب قومك مجد ... الدين واصبر فالحادثات ضروب

فكذاك القناة يكسر يوم الـ ... ـروع منها صدر وتبقي الكعوب

وقرأت في ديوان العرقلة كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مع عبيد غلام المولى، وكان عبيد هذا موصوفا بالثقل في بيت بمدينة حماه يوم الزلزلة فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هما فيه، فقال العرقلة:

قل لصلاح الدين رب الندى ... بلغ عبيدا كل ما أمله

بثقله لما تصاحبتما ... سلمك الله من الزلزلة

قرأت في بعض كتب أبي الحسين الرازي عن شيوخه أنه وقع بدمشق في ذي القعدة سنة خمس وأربعين ومائتين زلازل عظيمة، حكى عنها نحو مما مضى ذكره، وأكثر، نسأل الله تعالى تمام العافية.

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأوّل توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها، وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار من ناحية حمص وحماه باغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال،

وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها، أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس، وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كمناء من شجعان الأتراك ، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال ، وظهر عليهم الكمناء فأنزل اللّه نصره على المسلمين، بحيث لم ينج منهم إلا القليل ، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لايحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الأفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوما مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت ، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به،

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدّمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياما يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل، وفي

سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الاعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب، بأنّ الافرنج خذلهم اللّه تعالى أنهضوا سرّية من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظنا منهم بأنهم في قل، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلاّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقنطاريات إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الإثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهرا على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه وبذل السيف في قتل من فيه ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة اللّه تعالى لايبطىء، واللّه يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وماحوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوافيه، فلما وصل ملك الأفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازل على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستخلصوا من كان فيها،

وحين شاهدوا ماعم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى سقطت الاطيار بالكتب من المعسكر النوري تتضمن الاعلام بأنّ الملك العادل نور الدين أعز الله نصره لما عرف أنّ معسكر الكفرة الأفرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس، نهض في عسكره المنصور، من الاتراك و العرب، وجدّ في السير فلما شارفهم وهم غارون وشاهدوا راياته قد اظلتهم بادروا بلبس السلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين فعند ذلك ترجل الملك العادل نور الدين فترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهام وخرصان الرماح حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحمام، فأنزل اللّه نصره على المسلمين وتمكنوا من فرسانهم قتلا وأسرا، واستأصلت السيوف الرجالة ، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم لعنه اللّه فيهم، وقيل إنه في جملة القتلى، ولم يعرف له خبر، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين، وقتل عند حضور أجله إلى رحمة الله، والآخر غريب لايعرف، وكل منهما مضى شهيدا مثابا مأجورا رحمهما الله، وقتل أربعة من شجعان الكفرة، وامتلأت أيدى العساكر من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحا مبينا ونصراً عزيزاً، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رتبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة ، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدّة، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة، وفي يده راية، والرجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لايحصى لهم من عدد:الشيوخ والشبان والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المبين وأكثروا شكر الله تعالى والدعاء لنور الدين المحامي

عنهم المرامي دونهم، والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنة ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

مارأينا فيما تقدّم يوما
كامل الحسن غاية في البهاء

مثل يوم الفرنج حين علتهم
ذلة الاسر والبلا والفناء

وبراياتهم على العيس زفوا
بين ذلّ وحسرة وعناء

بعد عزلهم وهيبة ذكر
في مصاف الحروب والهيجاء

هكذا هكذا هلاك الأعادي
عند شنّ الاغارة الشعواء

شؤم أخذ الجشار كان وبالا
عمهم في صباحهم والمساء

نقضوا هدنة الصلاح بجهل
بعد تأكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بغيهم بما كان منهم
من فساد بجهلهم واعتداء

لاحمى اللّه شملهم من شتات
بمواض تفوق حدّا المضاء

فجزاء الكفور قتل وأسر
وجزاء الشكور خير الجزاء

ولرب العباد حمد وشكر
دائم مع تواصل النعماء

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملكها وتدويخها، والله المعين والموفق.

وقـال ابن أبي طـي: في سنـة اثنتين وخمسين أغـارت الفرنـج على بلـد حمص وحماة، وأفسدوا وأكثـروا العيث، واتصل ذلـك بنور الديـن فأنهض إليهـم عسكرا كثيفـا فأوقـع بهم وهزمهـم إلى أرض بانيـاس، وخرج نـور الديـن حتى نـزل على بانيـاس وحاصرهـا أشدّ حصـار حتى افتتحهـا في الثامن والعشرين من ربيع الأوّل، وأخذ جميـع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمـة والأسارى مـع أسد الـدين إلى دمشـق، وأنفذ معـه مقدار ألـف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معـارضة أسد الدين قطعة من خيالتها ، واتصل هذا بأسد الديـن وقد دهمته الفرنج فلبس لأمته، وتقدّم في جماعـة من ممـاليكه بين يـدي العسكر، وأمـر الـرجال بلقـاء الفرنـج وناجـزهم الحرب فلم يتماسكـوا بين يديـه ورجعوا على أدبارهـم، وتبعـهم مقـدار فـرسخين يقتـل ويـأسر، وغنـم منهـم غنيمـة حسنـة ، وعـاد إلى أصحابه ظافراً، وتـوجه في وجهته مؤيدا.

فصل

قال الـرئيس أبـو يعلى: وفي الثاني عشر مـن جمادى الآخرة، تـواصلت الأخبار بوصـول ولد السلطان مسعود في خلق كثير للنـزول على أنطاكية، وأوجبت الصورة تقـرير المهادنة بين نـور الدين وملك الأفـرنج، وتكرّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشـاجرات بحيث فسد الأمـر، ولم يستقرّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرّ عزه في بعض عسكره، وأقر باقيه ومقدّميه مع العرب بازاء أعمال المشركين.

قـال: وفي ثالـث رجب تـوجه نـور الـدين إلى نـاحية حلـب وأعمالها، لتجديد مشاهدتها، وإمعان النظر في حمايتهـا عندما عاث المشركون فيها، وقربت عسـاكر الملك ابن مسعود منهـا ثم قال بعد ذلك: قـد تقدّم من ذكر نور الديـن ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بـلاد الشأم عند إنتهاء الخبر إليـه بتجمع أحـزاب الفرنـج خـذلهم الله وقصـدهم لها وطمعهـم

بحكم ما حدث من الزلازل والرجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها لحمايتها والذب عنها، وايناس من سلم من أهل حمص وشيزر وكفر طاب وحماه وغيرها، بحيث اجتمع إليه، العدد الكثير والجم الغفير من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخيم بهم بازاء جمع الفرنج بالقرب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارس منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد، فلما اشتد به وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شيركوه، وأعيان الأمراء والمقدّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده، والساد لثلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة ، وشدّة البأس، ويكون مقيما بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة، فلما تقرّرت اشتدّ به المرض فتوجه في محفة إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها، من فساد الأفرنج، وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وازعجت القلوب فتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شيزر وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الاسماعيلة وغيرهم وظهروا عليهم ، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شيزر، واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب، فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا : هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه،فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والانكار والوعيد واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل ، محمد وعلي خير البشر، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسن القول لهم والوعد ونزل في داره، وأنفذ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حيّ في نفسه، وما

كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة من شاهد نور الدين حيا يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للاحداث عن هذا الخطل ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلاّ صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصرفت الهمم إلى مكاتبات المقدّمين بالعود إلى جهاد الملاعين، وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حران وما أضيف إليها وتوجه نحوها، ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الاسلامية للجهاد سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب ووصل إليها في خيله، فاجتمع بنور الدين، فأكرم لقياه وشكر مسعاه وشرعوا في حماية الأعمال من شرّ عصب الكفر والضلال.

قال: ونظمت هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حسنت صفاتك يا زماني
وفزت بما رجوت من الأماني

فكم أصبحت مرتاع الخوف
فبدلت المخافة بالأمان

وجاءتنا أراجيف بملك
عظيم الشأن مسعود الزمان

فروّعت القلوب من البرايا
وصار شجاعها مثل الجبان

وثارت فتنة تخشى أذاها
على الاسلام في قاص ودان

ووافى بعد ذاك بشير صدق
بعافية المليك مع التهاني

فولى الخوف منهدم المباني
وعاد الأمن معمور المغاني

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شيزر، فخرج نور الدين وأخذها من بني منقذ، وسلمها إلى مجد الدين بن الداية، وسار إلى سرمين، لأنه بلغه حركة الفرنج فاعترضه هناك مرض أشفى منه ، فأحضر شيركوه وأوصاه بالعساكر وأن يكون الأمر بعده لأخيه نصرة الدين أمير ميران، ، فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصفرخوفا أن يتحرك الفرنج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين، فعاد إلى خدمته مهنئا بالعافية، وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مدّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سيره إلى حران، وجعل ولي عهده أخاه قطب الدين صاحب الموصل.

قال: وكان مجد الدين طمع في الملك لنفسه فتحزم لامره وتقرب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار ، وشحن الطرقات والسبل بالرجال بتفتيش الخارجين من خلب وغيرها، والداخلين إليها.

قلت: ولابن منير تهنئة لنور الدين من مرض غير هذا:

يا شمس لاكسف ولا تكدار ... ولاخلت من نورك الانوار
البدر منقوص وأنت كامل ... لك السرايا وله السرار
برؤك للاسلام من أدوائه ... برو في اعدائه بوار
ما أنت إلاّ السيف صد صدأ ... عن متنه مضربه البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس ... لحملته دونك الابصار
ولو فدت أرض السماء ساقت الـ ... ـملوك في فدائك الامصار

أنــت غيــاث محلهـــم إن أجــدبـــوا
وخيرهـــــم إن ذكـــــر الخيــــــار
وفي سريـــــر الملـــك منهـــا ملــك
للّـــــــــــــــــــــه في سرائه اسرار
خير ملـــــوك الأرض جـــــداً وأبـــــا
إن هــــز عطفـــي مـــا جـــد نجـــار
مـــــد على الـــــديـــــن رواق دولـــــة
تنـــازعـــــت أسارهـــــا السمار
علـــت بنـــا يـــاه وحلـــت في يـــده
فهـــني عليـــه الســـور والســـوار
محمــــود المحمــــود عصر ملكـــه
فللحيـــا مـــــن مــــزنــــه اعتصـــار
يـــا نـــور ديـــن أظلمـــت آفـــاقـــه
لـــو لم تبلــــج هــــذه الاثـــار
للّـــه أيـــامـــك مـــا تخطـــه
بـــالمسـك مـــن اسفـــارهـــا الاسفـــار
سلمـــت لـــلاســلام تـــرعـــى سرحـــه
إذا ونـــى رعـــاتـــه وجـــاروا
شكـــوت فـــالـــدنيـــا على سكـــانها
قـــرارة جـــانبهـــا القـــرار
كـــادت تموت الأرض مـــن اشفـــاقهـــا
لـــولا شفـــاء ردّهـــا تمار
زرّت عليـــك الترك حبيـــب نســـب
يحســـدهـــا بـــزيـــه نـــزار
لا عـــدمـــت منـــك الأمـــاني ريها
معطـــى مـــن الاقبـــال مـــا تختـــار
مـــا سمـــح الـــدهـــر بـــان تبقـــى لنـــا
فكـــل جـــرح مسنـــا جبـــار

ولـه من قصيدة أخرى

لا نــــؤدي لانعـــم اللّـــه شكـــرا
بـــك يـــا أعظـــم البريـــة قـــدرا
زور عشر وافى لاقـــــــــلاع ذا
جعـــــلا المنـــــة الممنـــــاة عشرا
أم مغنــــــاك ضـــــامنـــــا أن أيـــا
مـــك تفنـــي الأحقـــاب عصرا فعصرا
في محل لـــــه السماكـــــان سمـــك
وجـــــــدود لها المجـــــــرة مجرى
أيها العـــــادل المظفـــــر لاقــــــ
ـــصت شبا الـدهـر مـن شبـاتـك ظفـرا
جعــل اللّـــه مـــا استهـــل مـــن الأشـــ
ـــــهر ينهـــل في مغـــازيـــك نصرا
أبـــــدا ينشر التهـــــاني على ســـا
حتـــك الـــزهـــر في المواســـم نشرا
أنـــت أسرى الملـــوك نفســـا وقنســـا(٨١)
وإلى أسرهـــم مـــن الطيـــف اسرى
ملـــك عنـــده المشـــارب تستمــــــ
ـــــري واخـــلاف الجود تمرى فتفـــرى
فلـــك اللّـــه مـــن مثمـــر بـــذر
يصطفـــي صـــالحا ويحصـــد أجـــرا
عـــش لملـــك أصبحـــت في الـدســـت منـــه
فـــوق كسرى عـــدلا وشعبـــا وكسرا
تفطـــر الطيبـــات للفطـــر فطـــرا
وتعـــم الاعـــداء في النحـــر نحـــرا
يقتنـــي مـــن كســـاك أنفـــس ملبـــو
س ويقنيـــك منــــه أطـــول عمـــرا

أنــــت تملي ونحــــن ننظـــــم مـــــا تنـــــــ
ـــــشره الغـــــر مـــــن مســــاعيـــك نثـــرا
صرف اللّـــــــه عنـــــك عين زمـــــان
بـــك صـــارت بعـــد الاصـــابـــة عبرى
وتـــــوالـــــت لـــــك الفتــــوح إلى أن
تملا الخافقين نهيــــــــــا وأمـــــــــــرا
كلما انهجـــــت مـــــلابـــس نعمـــــى
وتمليتهـــــن جـــــدّدت أخـــــرى

وقال القيسراني من قصيدة:
أشرق البـــــدر يـــــاجبين الهلال
فجـــلاه لـــــوجهـــــك المتـــــلالي
عـــن ليـــال حجبـــن عنـــا سنـــاهـــا
إنما غيبـــــــة الهلال ليـــــــالي
لم يكـــن مـــا ألم يـــانجـــم شكـــوى
فتهنـــــى لـــــوافـــــد الاقبـــــال
لا ولا كـــــان زائرا مـــــن سقـــــام
إنما كـــان طـــائفـــا مـــن خيـــال
وعكـــة أقلعـــت وأنـــت صحيـــح
ويصـــح النسيـــم بـــالاعتـــلال
أو مـــا هـــــذه السماء سرار الــــــ
ـــــبدر فيهـــا على طـــريـــق الكمال
نعمـــــة اللّـــــه لايخص بها الخا
لـــق الا مـــن كـــان منـــه ببـــال
ولبـــاس مـــن المثـــوبـــة والغفـــ
ــــران ألبســـت صـــافي الاذيـــال
فهنيئـــا لـــك البقـــاء وإن كـــا
ن هنـــاء يخص فيـــه المعـــالي

والتقـــى والنـــدى ومعـــربـــة الخيـــ
ـــل وبيـــض الظبـــى وسمـــر العـــوالي

والخلال التـــي إذا مـــا تحلـــت
صـــدرت منـــك عـــن كـــريـــم الخلال
إن وقتـــك النفـــوس مـــا تتـــوقـــى
فحقيـــق فـــدى الموالي الموالي
أو تحصنـــت في شعـــار مـــن التقـــ
ـــوى فما زلـــت منـــه في سربـــال
فشفـــى اللّـــه مـــن أجـــل دوائـ
ـــيه صريـــح الـــدعـــاء والابتهـــال
ملكـــا أبـــدل المخـــافـــة بـــالامـــ
ـــن وأضحـــى يعـــدّ في الابـــدال
وهـــو تـــاج الملـــوك فـــالملـــك العـــا
طـــل حـــال بـــه على كـــل حـــال
وإذا النيران غـــابـــا فنـــور الـــديـــ
ـــن شمـــس فجـــرتـــه الاصـــال
قـــد أرت وجهـــك العلى مـــا يـــريها
وهـــي مـــرآة صـــالـــح الأعمال
وقضـــى اللّـــه أن نجمـــك في الأنجـــ
ـــم ســـام وأن جـــدّك عـــال
كـــل يـــوم هـــذا المحيـــا محيـــى
بـــالتهـــاني على يـــد الاقبـــال

فصل

في ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير: وهو حصن قريب من حماه بينهما نحو من نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب، فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه، وكان لآل منقذ الكنانيين يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبى المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وكان شجاعا كريما صواما قواما، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي وهو والد أسامة، فقال: واللّه لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، وكان عالما بالقرآن والأدب ، كثير الصلاح، فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي، وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسادوا منهم: عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد ، فحسد أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صغر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلا منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبيات جيدة في معناها، وكلهم كان أديبا شاعراً فمنها:

ظلوم أبت في الظلم إلاّ تماديا
وفي الصدّ والهجران إلاّ تناهيا
شكت هجرنا في ذاك والذنب ذنبها
فياعجبا من ظالم جاء شاكيا

وطـــاوعـــت الـــواشين في وطـــالما
عصيـــت عـــذولاً في هـــواهـــا وواشيـــا
ومـــال بهاتيـــه الجمال إلى القـــلا
وهيهـــات أن أمسي لها الـــدهـــر قـــاليـــا
ولا نـــاسيـــامـــا أودعـــت مـــن عهـــودهـــا
وإن هـــي أبـــدت جفـــوة وتنـــاسيـــا
ولما أتـــاني مـــن قـــريضـــك جـــوهـــر
جمعـــت المعـــالي فيـــه لي والمعـــانيـــا
وكنـــت هجـــرت الشعـــر حينـــا لأنـــه
تـــولى بـــرغمـــي حين ولى شبـــابيـــا
وأيـــن مـــن الستين لفـــظ مفـــوف
إذا رمـــت أدنـــى القـــول منـــه عصـــانيـــا
وقلـــت أخـــي يـــرعـــى بنـــي واسرتي
ويحفـــظ عهـــدي فيهـــم وذمـــاميـــا
ويجزيهم مـــالم أكلفـــه فعلـــه
لنفسي فقـــد أعـــددتـــه مـــن تـــراثيـــا
فمالـــك لما أن حنـــى الـــدهـــر صعـــدتـــى
وثلـــم منـــي صـــارمـــا كـــان مـــاضيـــا
تنكـــرت حتـــى صـــار بـــرك قســـوة
وقـــربـــك منـــي جفـــوة وتنـــائيـــا
فـــأصبحـــت صفـــر الكـــف مما رجـــوتـــه
كـــذا اليـــأس قـــد عفـــى سبيـــل رجـــائيـــا
على أننـــى مـــا حلـــت عما عهـــدتـــه
ولا غيرت هـــذي السنـــون ودادیـــا
فـــلا غـــرو عنـــد الحادثـــات فـــإننـــي
أراك يمينـــى والانـــام شماليـــا
تهن بها عـــذراء لـــو قـــرنـــت بها
نجـــوم سماء لم تعـــد دراريـــا

تجلت بـدر مـن صفـاتـك زانها
كما زان منظـوم الـلآلي الغـوانيـا
وعـش بـانيـا للجـود مـا كـان واهنـا
مشيـداً مـن الاحسـان مـا كـان واهيـا

قـال: وكان الأمـر فيه في حيـاة الأمير مرشـد، بعض الستر فلما مـات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخـوه لأولاده ظهر المجن وباداهم بما يسوءهم ، وتمادت الأيـام بينهم إلى أن قوي عليهم، فأخرجهـم من شيزر، وكان أعظم الاسباب في إخراجهـم ما حدثت به عن مؤيد الـدولة أسامة ابن مرشد، قـال: كنت من الشجاعة والاقدام على مـا علمه الناس، فبينا أنا بشيـزر، وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بـدحلة بغار بها أسد ضـاريا، فركبـت فرسي وأخـذت سيفي وسرت إليـه لأقتله، ولم أعلـم أحداً مـن الناس لئلا أمنع من ذلك، فلما قربت مـن الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيـت نحـوه، فلما رآني قصـدني، ووثب فضربتـه بـالسيـف على رأسـه فانفلق، ثـم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاه فـرسي وعدت إلى شيزر، ودخلت على والـدتي وألقيت الرأس بين يـديها وحدثتها الحال، فقـالت : يابنـي تجهز للخـروج من شيـزر، فواللّـه لايمكنك عمـك من المقـام ولا أحداً مـن أخوتـك وأنتم على هـذه الحال من الاقـدام والجرأة ، فلما كان الغد أمر عمي باخراجنا من عنده وألـزمنا به إلزاما لامهلة فيه، فتفرّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الديـن وشكوا إليه ما لقوا من عمهم ، فلـم يمكنه قصـده ولا الأخـذ بثأرهـم وإعـادتهم إلى أوطـانهم لاشتغالـه بجهاد الفـرنج ولخوفه مـن أن تسلم شيـزر إلى الفرنج، وبقـي في نفسه، وتوفي الأمير سلطـان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الـدين عنهـم مراسلـة الفـرنج، فـاشتدّ مـا في نفسه، وهـو ينتظر الفـرصة، فلما خـربت القلعـة بالـزلزلة ولم يسلم منهـا أحد كان بالحصـن، فبادر إليها وملكها وأضـافها إلى بلاده وعمـرها وأسـوارها وأعادهـا كأن لم تخرب، وكـذلك أيضـا فعل

بمدينة حماه وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة ، فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

قلت: وسيأتي ذكر اسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين، وهي السنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شيزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أنر أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدة أوّلها:

ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا ... فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكري ما يريبهم ... ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ولا أطلعت ... على ودائعهم في صدري التهم
فليت شعري بم استوجبت هجرهم ... ملوا فصدّهم عن وصلي السأم
حفظت ما ضيعوا أغضيت حين جنوا ... وفيت إذ غدروا واصلت إذ صرموا
حرمت ما كنت أرجو من ودادهم ... ما الرزق إلا الذي يجري به القسم
وبعد لو قيل لي ماذا تحب وما ... تختار من زينة الدنيا لقلت هم
لهم مجال الكرى من مقلتي ومن ... قلبي محل المنى جاروا أو اجترموا
تبدّلوا بي ولا ابغي بهم بدلا ... حسبي هم انصفوا في الحكم أو ظلموا
بلغ أميري معين الدين مألكة ... من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له أنت خير الترك فضلك الـ ... ـحياء والدين والاقدام والكرم

هـــلاّ انفـــت حيـــاء أو محافظـــة
مـــن فعـــل مـــا انكـــرتـــه العـــرب والعجـــم
اسلمتنـــا وسيـــوف الهنـــد مغمـــدة
ولم يـــروّ سنـــان السمهـــري دم
وكنـــت أحســـب مـــن والاك في حـــرم
لا يعتريـــه بـــه شيـــب ولاهـــرم
ومـــا طُهان بـــأولى مـــن أســـامـــة بـــالـــ
ـــوفاء لكـــن جـــرى ا بالكائن القلـــم
هبنـــا جنينـــا ذنـــوبـــاً لا يكفـــرهـــا
عـــذر فما اذا جنـــى الأطفـــال والحرم
القيتهـــم في رضـــى الأفـــرنـــج متبعـــا
رضـــى عـــدى يسخـــط الـــرحمن فعلهـــم
جـــرّبهم مثـــل تجريبـــي لتخبرهـــم
فللـــرجـــال إذا مـــا جـــربـــوا قيـــم(٨٢)

وهي طـويلة، وطُمان المذكـور خادم تركـي كان لأتـابك ملـك الأمراء زنكي بن أق سنقر، هرب من خدمتـه إلى دمشق فطلبه ولج فيه، فاشتمل عليه معين الدين للجنسية وحماه، فلما لـج فيه سيره إلى العرب وقام له بما يحتاج إلى أن ردّه لخدمتـه بدمشق، وبقـي أسامة بمصر إلى أن خـرج منها مع عبـاس كما سبق ذكـره، وأسر الفر نـج أخاه نجـم الدولـة محمد بـن مرشد، وطلب من ابن عمه ناصر الـدين محمد بن سلطان صاحب شيزر الاعانـة في فكاكه، فلـم يفعل ، قال: وادّخـر الله سبحـانه أجر خـلاصه وحسن ذكره للملك العادل نور الدين رحمه اللّـه فوهبه فارساً من مقدمي الـداويـة يقال لـه المشطـوب، قـد بـذل الافـرنج فيـه عشرة آلاف دينـار فاستخلـص به أخاه مـن الأسر، وبلغ أسامـة أن القاضي كمال الديـن بن الشهزوري أنشد نور الدين:

ملـــك بنـــي منقـــذ تـــولى
وكـــان فـــوق السماك سمكـــه

-٧٨١٢-

فاعتبروا وانظروا وقولوا
سبحان من لا يزول ملكه

والمعروف ملك بني برمك فغيره المنشد لما تمثل به في غرضه فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكل ملك إلى زوال
لا يعتري ذا اليقين شكه
إن لم يزل بانتقال حال
أزال ذا الملك عنه هلكه
والله رب العباد باق
وهالك نده وشركه
فقل لمن يظلم البرايا
غرك امهاله وتركه
تنسى ذنوبا عليك تحصى
يحصرها نقده وحكمه
كم ناسك نسكه رياء
أو بقه في المعاد نسكه
فاحذر فما يختفي عليه
من عنده صدقه وافكه

وما أحسن ما قال أسامة في كبره:

مع الثمانين عاث الضعف في جلدي
وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي
إذا كتبت فخطي خط مضطرب
كخط مرتعش الكفين مرتعد
فاعجب لضعف يدي عن حملها قلما
من بعد حطم القنا في لبة الأسد
وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت
رجلي كأني أخوض الوحل في الجلد

فقـــل لمن يتمنـــى طـــول مـــدتـــه
هــذي عــواقـــب طـول العمـــر والمدد[٨٣]

فصل

في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الـرئيس أبـو يعلى: تناصرت الأخبـار بظهور أمير المؤمنين المقتفـي على عسكر السلطان المخـالف لأمره ومن انضم إليه مـن عسكر الموصل وغيره بحيـث قتـل العـدد الكثير، ورحلـوا عـن بغـداد مفـرقين مفلـولين خاسرين بعد المضايقة والتناهي في المحاصرة والمصابرة.

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجـب بوفاة السلطان غيـاث الدين أبي الحارث سنجر بن أبي الفتـح بن ألب أرسلان، سلطان خـراسان، عقيب خلاصه مـن الشدة التي وقع فيها، والأسر الذي حصـل فيه، وكان يحب العدل والانصـاف للرعايا وحسـن السيرة ، جميل الفعل، وقد علـت سنة وطال عمـره، وكان قد ورد كتـابه في أواخر صفـر من هذه السنـة إلى نور الديـن بالتشـوق إليه والإحماد لخلالـه، وما ينتهـي إليه مـن جميل أفعـاله، وإعلامـه ما مـنّ الله عليـه به مـن خلاصـه من الشـدة التي وقـع فيها، والأسر الذي بلي به في أيـدي الأعداء الكفرة من ملـوك التركمان، ، بحيلة دبـرها وسيـاسة أحكمهـا وقررهـا، بحيـث عاد إلى منصبـه من السلطنـة المشهورة واجتماع العساكر المتفرقة عنه إليه.

قال: وفيهـا في شهر رمضان ورد الخبر مـن ناحيـة حلب بوفـاة الشيخ مخلص الدين أبى البركات عبد القـاهر بن أبي جرادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مـال نور الديـن، وكان كاتبا بليغـا حسن البلاغـة نظما ونثرا مستحسن الفنون مـن التذهيب البديع وحسـن الخط المحرر على الأصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن، وتوقد الفطنة والذكاء.

قال: وفي رابع عشر شوال ورد الخبر من نـاحية بصرى بأن واليها فخر الدين سرخـاك قتل غيلة بموافقة مـن أعيان خاصته، وكـان فيه إفراط في التحرز واستعمال التيقظ، ولكن القضاء لايغالب ولايدافع.

قـال: وفيهـا في أوائل ذي القعـدة ورد الخبر مـن حمص بـوفـاة واليهـا الأمير الملقب بصـلاح الدين، وكـان في أيام شبيبتـه قد حظي في خـدمة عماد الـديـن زنكـي وتقـدم عنـده بالمنـاصحـة وسـداد التـدبير، وحسـن السفارة، وصواب الرأي، ولما علت سنة ضعـف عن ركوب الخيل وألجأته الضرورة إلى الحمـل في المـحفـة لتقريـر الأحـوال، والنظـر في الأعمال ولم ينقص مـن حسه وفهمه مـا ينكر عليه إلى حين وفـاته، وخلفه مـن بعده أولاده في منصبه وولايته.

قـال: وورد إلى دمشق إمـام مـن أئمة فقهـاء بلـخ في عنفـوان شبابـه وغضارة عـوده، ما رأيت أفصح مـن لسانه ببـلاغتيه العربية والفـارسية، والإسراع في جوابه ببراعتـه، ولا أطيش منه قلما في كتابته أبـو الحياة محمد ابـن أبي القاسـم بـن عمر السلمـي،ووعـظ في جامـع دمشـق عدة أيـام والناس يستحسنون وعظه ويستظـرفون فنه وسلاطة لسانـه وسرعة جوابه، وحدة خاطره، وصفاء حسه.

قال ابـن الأثير: وفيها في ذي الحجـة توفي الأمير عـز الديـن أبى بكـر الدبيسي، صـاحب جزيرة ابـن عمر، وكان من أكـابر الأمراء يأخـذ نفسه مـأخذ الملـوك، وكان عـاقلا حـازمـا ذا رأي وكيد ومكـر، وملك الجزيـرة قطب الدين مودود بن زنكي، صاحب الموصل أخو نور الدين.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنج المقيمين بالشام، خذلهم اللّه تعالى بمضايقتهم لحصن حارم، ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق إلى أن ضعف، وملك بالسيف، وتزايد طمعهم في شن الغارات في الأعمال الشامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرق العساكر الاسلامية، والخلف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، وللّه المشيئة التي لاتدافع، والأقضية التي لاتمانع.

قال: وفي صفر ورد الخبر والمبشر بنزول نور الدين من حلب للتوجه إلى دمشق ، واتفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شن الغارات على أعمال حوران والاقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والاخراب في الضياع، والنهب والسبي والأسر، وقصدوا داريا للنزول عليها في انسلاخ صفر، واحراق منازلها وجوامعها والتناهي في إخرابها ، وظهر إليهم العسكرية والأحداث، وهموا بقصدهم والاسراع إلى لقائهم وكفهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكفار، خذلهم اللّه تعالى كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الاقليم، ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول سالماً في نفسه وجملته، ولقي بأحسن زي وترتيب وتجمل، واستبشر العالم بمقدمه المسعود وابتهجوا وبالغوا في شكر اللّه تعالى على سلامته وعافيته والدعاء له بدوام أيامه، وشرع في تدبير أمر الأجناد والتأهب للجهاد.

قال: وفي أوائل ربيع الأوّل ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق وافر من عسكرها إلى غزة وعسقلان وأغاروا على أعمالها، وخرج إليهم من كان بها من الفرنج الملاعين، فأظهر اللّه تعالى المسلمين عليهم قتلا وأسراً

بحيث لم يفلت منهم إلاّ اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين، وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنج، فقتل وأسر منهم العدد الكثير، وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لايكاد يحصى، وعاد ظافرا غانما.

قلت : وأرسل إلى مؤيد الدولة أسامة بن منقذ من مصر وزيرها الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك قصيدة، يشرح فيها حال هذه الغزاة، ويحرض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما منّ اللّه تعالى عليه به من العافية والسلامة من تلك المرضة المقدم ذكرها، وكان كثيرا ما يكاتبه طالباً منه إعلام نور الدين بالغزاة لحثه عليها وأول هذه القصيدة:

ألاهكذا في اللّه تمضي العزائم
وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها
ويوطى حماها والأنوف رواغم
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما
مضى نصفه حتى انثنى وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
مفاوز وخد العيس فيهن دائم
فما هاله بعد الديار ولا ثنى
عزيمته جهد الظما والسمائم
يهجر والعصفور في قعر وكره
ويسري إلى الاعداء والليل نائم

يبـــاري خيـــولا مـــا تـــزال كـــأنها
إذا مـــاهـــي انقضـــت نســـور قشـــاعـــم
يسير بها ضرغـــام في كـــل مـــارق
ومـــا يصحـــب الضرغـــام إلاّ الضراغـــم
ورفقتـــه عين الـــزمـــان وحـــاتـــم
ويحيـــى وإن لاقـــى المنيـــة حـــاتـــم
وواجههـــم جمع الفـــرنـــج بجملـــة
تهون على الشجعـــان فيهـــا الهزائم
فلقـــوهـــم زرق الاسنـــة وانطـــووا
عليهـــم فلـــم يـــرجـــع مـــن الكفـــر نـــاجـــم
ومـــا زالـــت الحرب العـــوان أشـــدّهـــا
إذا مـــا تـــلاقـــى العسكـــر المتضـــاجـــم
يشبههـــم مـــن لاح جمعهـــم لـــه
بلجـــة بحـــر مـــوجهـــا متـــلاطـــم
وعـــادوا إلى ســـل السيـــوف فقطعـــت
رؤوس وحـــزت للفـــرنـــج غـــلاصـــم
فلـــم ينـــج منهـــم يـــوم ذاك مخبر
ولا قيـــل هـــذا وحـــده اليـــوم ســـالم
نقتلهـــم بـــالـــرأي طـــورا وتـــارة
تـــبـــدوسهـــم منـــا المذاكـــي الصـــلادم
فقـــولـــوا النـــور الـــديـــن لافـــل حـــدّه
ولا حكمـــت فيـــه الليـــالي الغـــواشـــم
تجهـــز إلى أرض العـــدوّ ولا تهن
وتظهـــر فتـــورا ان مضـــت منـــك حـــازم
فما مثلهـــا تبـــدي احتفـــالأ بـــه ولا
يعـــض عليهـــا للملـــوك الاباهـــم
فعنـــدك مـــن ألطـــاف ربـــك مـــا بـــه
علمنـــا يقينـــا أنـــه بـــك راحـــم

أعــــادك حيــــا بعـــد أن زعـــم الـــورى
بـــأنـك قـــد لاقيـت مــا اللّــه حـاتــم
بـــوقــت أصــاب الارض مــا قـــد أصــابها
وحلـــت بها تلـــك الـــدواهـــي العظـــائم
وخيـــم جيـــش الكفـــر في أرض شيـــزر
فسيقـــت سبـــا يـــا واستحلـــت محارم
وقـــد كـــان تـــاريـــخ الشـــام وهلكـــه
ومـــن يحتـــويـــه أنـــه لـــك عـــادم
فقـــم واشكـــر اللّـــه الكـــريـــم بنهضـــه
إليهـــم فشكـــر اللّـــه للخلـــق لازم
فنحـــن على مـــا قـــد عهـــدت نـــروعهـــم
ونحلـــف جهـــدا أننـــا الانســـالم
وغـــاراتنـــا ليســـت تفتر عنهـــم
وليـــس ينجـــي القـــوم منـــا الهزائم
فـــاسطـــولنـــا أضعـــاف مـــا كـــان ســـائرا
إليهـــم فـــلا حصـــن لهم منـــه عـــاصـــم
ونـــرجـــو بـــأن يجتـــاح بـــاقيهـــم بـــه
وتحوى الأســـارى منهـــم والغنـــائم

وكتب إليه أيضا:

يـــــا سيـــــدا يسمـــــو بهمـــــ
ـــــته إلى الـــــرتـــــب العليـــــه
فينـــــال منهـــــا حين يحر
م غيره أوفى مـــــزيـــــه
أنـــــت الصـــــديـــــق و إن بعـــــد
ت وصـــــاحـــــب الشيـــــم الـــــرضيـــــه
ننبيـــــك إن جيـــــوشنـــــا
فعلـــــت فعـــــال الجاهليـــــة

سـارت إلى الأعـداء مـن
أبطـالها مـائتـا سريـه
فتغير هـذي بكـرة
وتعـاود الأخـرى عشيـه
فـالـويـل منهـا للفـرنـ
ـج فقـد لقـوا جهـد البليـة
جـاءت رؤوسهـم تلـو
ح على رؤوس السمهـريـة
وقـلائع قـد قسمـت
بين الجنـود على السـويـه
وخـلائق كثرت مـن الـ
ـلأسرى تقـاد إلى المنيـة
فـانهض فقـد أنبيـت مجـ
ـد الـديـن بـالحال الجليـه
وألم بنـور الـديـن واعـ
ـلمه بها تيـك القضيـة
فهـو الـذي مـازال تخـ
ـلص منـه أفعـالا ونيـه
ويبيـد جمع الكفـر بـالـ
ـبيض الـرقـاق المشرفيـه
فعسـاه ينهـض نهضـة
يفنـي بها تلـك البقيـة
إمـا النصرة دينـه
أو ملكـه أو للحميـه

وكتب إليه أيضا يقول:

أيها المنقـذي أنـت على البعـ
ـد صـديـق لنـا ونعـم الصـديـق



ليس فيما تأتيه من بر أفعا
لك للطالب الحقوق عقوق

فلهذا نرى مواصلة الكتـ
ـب تباعا إليك مما يليق

ونناجيك بالمهمات إذ أنـ
ـت بالقائها إليك خليق

وأهم المهم أمر جهاد الـ
ـكفر فاسمع فعندنا التحقيق

واصلتهم منا السرايا فأشجا
هم بكور منا لهم وطروق

وأباحت ديارهم فأباد الـ
ـقوم قتل ملازم وحريق

وانتظرنا بزحفنا برء نور الديـ
ـن علما منا بأن سيفيق

وهو الآن في أمان من اللّـ
ـه وما يعتريه أمر يعوق

ما لهذا المهم مثلك مجد الديـ
ـن فانهض به فأنت حقيق

قل له لا عداه رأي ولا زا
ل لديه لكل خير طريق

أنت في حسم داء طاغية الكـ
ـفار ذاك المرجوّ والمرموق

فاغتنم بالجهاد أجرك كي يلـ
ـقى رفيقاً له ونعم الرفيق

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أمير الجيوش ما زال للاسـ
ـلام والدين منك ركن وثيق

أسمعت دعوة الجهاد فلبا
ها مليك بالمكرمات خليق

ملـــك عـــادل أنـــار بـــه الـــديـــ
ــــن فعــــم الاســـلام منـــه الشروق
مـــالــــه عـــن جهـــاده الكفـــر والعـــد
ل وفعــــل الخيرات شغــــل يعــــوق
هـــو مثـــل الحســام صـــدر صقيـــل
لين مســــــه وحـــــدزليـــــق
ذو أنـــــــاة يخالها الغـــــــراهما
لا وفيهـــا حتـــف الأعـــادي المحيـــق
فـــاسلها الـــلاســـلام كهفين مـــاطـــ
ــــرز ثــوب الظـــلام بـــرق خفـــوق (٨٤)

وكتب إليه أيضا:
قـــل لابـــن منقـــذ الـــذي
قـــد حـــاز في الفضـــل الكمالا
فلـــذاك قـــد أضحـــى الأنـــا
م على مكـــارمـــــه عيـــالا
كـــم قـــد بعثنـــا نحـــوك الـــ
ــــلأشعار مسرعـــة عجـــالا
وصـــــــددت عنهـــــا حين را
مـــت مـــن محاسنـــك الـــوصـــالا
هـــلا بـــذلـــت لنـــا مقـــا
لا حين لم تبـــــذل فعـــــالا
مـــع أننـــانـــوليـــك صبـــ
ــــــــــرا في المودّة واحتمالا
ونبثـــــــك الأخبــــــار إن
أضحـــت قصـــارا أو طـــوالا
ســـارت سرايـــانـــا القصـــ
ـــد الشـــام تعتســـف الـــرمـــالا
تـــزجـــي إلى الأعـــداء جـــر
د الخيـــل اتبـــاعـــاتـــوالا

تمضي خُفــــافــــا للمغــــا
ر بها وتــــأتينــــا ثقــــالا
حتــــى لقــــد رام الأعــــا
دي مــــن ديــــارهــــم ارتحالا
وعلى الــــوعيرة معشر
لم يعهــــدوا فيهــــا القتــــالا
لما نــــأت عمــــن يحـ
ـــف بها يمينــــا أو شمالا
نهضــــت إليهــــا خيلنــــا
مــــن مصر تحتمــــل الــــرجــــالا
والبيــــض لامعــــة وبيــ
ــض الهنــــد والاســــل النهــــالا
فغــــدت كــــأن لم يعهــــدوا
في أرضهــــا حيــــا حــــلالا
هــــذا وفي تــــل العجــــو
ل مــــلأن بــــالقتلى التــــلالا
إذ مــــر مــــري ليــــس يلــ
ــوي نحــــور رفقتــــه اشتغــــالا
واستــــاق عسكــــرنــــا لــــه
أهــــلا يحبهــــم ومــــالا
وسريــــة ابــــن فــــرنــــج الطــــا
ئي طــــال بهم وصــــالا
ســــارت إلى أرض الخليــ
ــل فلــــم تــــدع فيهــــا خــــلالا
فلــــو أن نــــور الــــديــــن يجـ
ـعل فعلنــــا فيهــــم مثــــالا
ويسير الاجنــــاد جهــ
ــرا كــــي ينــــازلهم نــــزالا
ووفى لنــــا ولأهــــل دولــ
ــته بما قــــد كــــان قــــالا

لــــــرأيــــت لــــلافـــرنـــج طـــــ
ـــــرأي في معـــاقلهـــا اعتقــــالا
وتجهـــــــــــزوا للسير نحـــــــــ
ـــــو الغـــرب أو قصـــــدوا الشمالا
و إذا أبـــــــــــــى الا اطــــــــرا
حـــــاً للنصيحـــــــة واعتـــــزالا
عـــــدنـــــا بتسليـــــم الأمـــــو
ر لحكـــــم خــــالقنـــا تعـــالى

فأجابه ابن منقذ بقصيدة منها:

يــــــا أشرف الــــــوزراء أخـــــــ
ــــــلاقا وأكــــرمهــــم فعــــالا
نبهـــــــت عبـــــــدا طـــــــالما
نبهتـــــــه قـــــــدرا وحـــــالا
وعتبتـــــــه فـــــــانلتـــــــه
فخــــــرا ومجدا الــــــن ينـــــالا
لكــــــن ذاك العتــــــب يشــــــ
ــــعل في جــــوانبـــه اشتعــــالا
أسفـــــا الجد حـــــال عنـــــ
ـــــه إلى مســــاءتـــه ومـــــالا
أمــــــا السرايـــــا حين تـــــر
جـــع بعـــد خفتهـــا ثقـــــالا
فكــــــذاك عــــــادوفـــود بـــا
بـــك مثقلين ثنـــا ومـــــالا
ومسيرهـــــــــا في كــــــل أر
ض تبتغـــــي فيهـــا المجـــــالا
فكــــــذاك فضلــــك مثــــل عــــد
لـــك في الـــدنـــا ســـارا وجـــالا
فــــاسلـــم لنـــا حتـــى نـــرى
لـــك في بنـــي الـــدنيـــا مثـــالا

واشـــددي ـــديـــك بـــودنـــو
رالـــديـــن والـــق بـــه الـــرجـــالا
فهـــو المحـــامـــي عـــن بـــلا
دالشـــام جمعـــا أن يـــذالا
ومبيد املاك الفرنـ
ـــج وجمعهـــم حـــالا فحـــالا
ملـــك يتيـــه الـــدهـــر والـــدنـــ
ـــيا بـــدولتـــه اختيـــالا
جمع الخلال الصـــــــالحا
ت فلـــم يـــدع منهـــا خـــلالا
فـــإذا بـــدا للنـــاظـــريـــ
ـــن رأت عيـــونهم الكمالا
فبقيتها للمسلمـــــــــــ
ـــين حما ولـــلـــدنيـــا جمالا (٨٥)

وكتب إليه الصالح من قصيدة تقدّم ذكرها في الزلازل:
ولعمـــري إن المنـــاصـــح في الـــديـــ
ـــن على اللّـــه أجـــره محســـوب
وجهـــاد العـــدّو بـــالفعـــل والقـــو
ل على كـــل مسلـــم مكتـــوب
ولـــك الـــرتبـــة العليـــة في الامـــ
ـــرين مـــذ كنـــت إذ تشـــب الحروب
أنـــت فيهـــا الشجـــاع مـــالـــك في الطعـــ
ـــن ولا في الضراب يـــومـــا ضريـــب
وإذا مـــا قـــرضـــت فـــالشـــاعـــر المفـــ
ـــلق فيما يقـــولـــه والخطيـــب
وإذا مـــا أشرت فـــالحزم لا ينـــ
ـــكر إن التـــدبير منـــك مصيـــب

لـك رأي بقظـان إن ضعـف الـرأ
ي على حـاملي الصليـب صليـب
فـانهض الآن مسرعـا فبـأمثـا
لـك مـازال يـدرك المطلـوب
ألـق منـا رسـالـة عنـد نـور الـديـ
ـن مـا في القـائهـا مـا يـريـب
قـل لـه دام ملكـه وعليـه
مـن لبـاس الاقبـال بـرد قشيـب
أيها العـادل الـذي هـو للـديـ
ـن شبـاب وللحـروب شبيـب
والـذي لم يـزل قـديما عـن الاسـ
ـلام بـالعـزم منـه تجلى الكـروب
وغـدا منـه للفـرنـج إذا لا
قـوه يـوم مـن الـزمـان عصيـب
إن يـرم نـزف حقـدهـم فـلا شطـا
ن قنـاه في كـل قلـب قليـب
غيرنـا مـن يقـول مـا ليـس يمضيـ
ـه بفعـل وغيرك المكـذوب
قـد كتبنـا إليـك مـا وضـح الآ
ن بها ذا عـن الكتـاب تجيـب
قصـدنـا أن يكـون منـا ومنكـم
أجـل في مسيرنـا مضروب
فلـدينـا مـن العسـاكـر مـا ضـا
ق بـأدنـاهـم الفضـاء الـرحيـب
وعلينـا أن يستهـل على الشـا
م مكـان الغيـوث مـال صبيـب
أوتـراهـا مثـل العـروس ثـراهـا
كلـه مـن دم العـدا مخضـوب

لطنين السيـــوف في فلـــق الصبـــ
ـــح على هـــام أهلهـــا تطـــريـــب
وبجمـــع الحشـــود مـــن كـــل حصـــن
سلـــب مهمـــل لهم ونهوب
وبحـــول الالـــه ذاك ومـــن غـــا
لـــب ربي فـــانـــه مغلـــوب

وكتب إليه أيضا:

أيها الســائر المجـــدّ إلى الشـــا
م تبـــاري ركـــابـــه والخيـــول
خـــذ على بلـــدة بها دار مجد الـــديـــ
ـــن لاريـــع ربعهـــا المأهـــول
وتعـــرف أخبـــاره واقـــرة منـــ
ـــا ســلامـــا فيـــه العتـــاب يجول
قـــل لـــه أنـــت نعـــم ذخـــر الصـــديـــق الـــ
ـــيوم لكنـــك الصـــديـــق الملـــول
مـــا ظننـــا بـــأن حـــالـــك في القـــر
ب ولا البعـــد بـــا الملال يحول
لا كتـــاب ولا جـــواب ولا قـــو
ل بـــه لليقين منـــه حصـــول
غير أنـــا نـــواصـــل الكتـــب إذ قصـــ
ـــر منـــك البر الكـــريـــم الـــوصـــول
ذاكـــريـــن الفتـــح الـــذي فتـــح اللّـــ
ـــه علينـــا فـــالفضـــل منـــه جميـــل
جـــاء نـــا بعـــد مـــا ذكـــرنـــاه في كتـــ
ـــب أتـــاكـــم بهن منـــا رســـول
أن بعـــض الاسطـــول نـــال مـــن الأفـــ
ـــرنج مـــالا ينـــالـــه التـــأميـــل

ســــار في قلـــة ومــــازال بـــاللّـــــ
ـــــه وصـــدق النيـــات تنمـــى القليـــل
ويقـــايـــا الاسطـــول ليـــس لــه بعـــــ
ـــــد إلى جـــانـــب الشـــآم وصـــول
فحـــوى مـــن عكـــا وانطـــرســـوس
عـــــدّة لم يحط بها التحصيـــــل
جمع ديـــويـــة بهم كـــانـــت الافـــــ
ـــرنج تسطـــو على الـــورى وتصـــول
قيـــد في وسطهـــم مقـــدّمهـــم يهـ
ـــدى إلينـــا وجيـــده مغلـــول
بعـــد مثـــوى جماعـــة هلكـــوا بـــالـــ
ـــسيف منهـــا الغـــريـــق والمفلـــول
هـــذه نعمـــة الالــــه وتعـــديـــــ
ـــد أيـــادي الالـــه شيء يطـــول
أبلغـــن قـــولنـــا إلى الملـــك العـــا
دل فهـــو المرجـــوّ والمأمـــول
قـــل لـــه كـــم تماطـــل الـــديـــن في الكفـــــ
ـــار فـــاحـــذر أن يغضـــب المطـــول
سر إلى القـــدس واحتســـب ذاك في اللّـــــ
ـــه فبـــالسير منـــك يشفـــى الغليـــل
وإذا مـــا أبطـــا مسيرك فـــاللّـــــ
ـــه إذا حسبنـــا ونعـــم الـــوكيـــل

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يـــا أمير الجيـــوش يـــا أعـــدل الحـ
ـــكام في فعلـــه وفيما يقـــول
أنـــت حليـــت بـــالمكـــارم أهـــل الـــ
ـــعصر حتـــى تعـــرف المجهـــول

وقسمت الفرنج بالغزو شطريـ
ـن فهذا عان وهذا قتيل
بالغ العبد في النيابة والتحـ
ـريض وهو المفوّه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا
دت له الأرض والجبال تميل
وإذا عاقت المقادير فاللّـ
ـه إذا حسبنا ونعم الوكيل (٨٦)

وكتب الصالح إليه جوابا قصيدته الطائية التي أوّلها:

هي البدر لكن الثريا لها قرط
ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ثم قال بعد وصف السيوف:

ذخرنا سطاها للفرنج لأنها
بهم دون أهل الأرض أجدر أن تسطو
وقد كاتبوا في الصلح لكن جوابهم
بحضرتنا ما ينبب الخط الا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم
لها بالمواضي والقنا الشكل والنقط
إذا أرسلت فرعا من النقع فاحما
أثيثا فأسنان الرماح لها مشط
رددناه ابن الفنش عنا وإنما
يثبته في سرجه الشدّ والربط
فقولوا النور الدين ليس لجائف الـ
ـجراحات إلا الكي في الطب والبط (٨٧)
وحسم أصول الداء أولى بعاقل
لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة
بها أبدا يحظى سواهم ولم يحظوا

تـــأمــــل فكـــم شرط شرطـــت عليهـــم
قـــديما وكـــم غـــدر بـــه نقـــض الشرط
وشمـــر فـــانـــاقـــداعنـــا بكـــل مـــا
ســـألـت وجهــزنـا الجيــوش ولـن يبطـــو(٨٨)

قال العماد في كتاب الخريدة: الصالح أبـو الغارات طلائع بن رزيك سلطان مصر في زمـان الفائز، وأوّل زمـان العاضـد، ملك مصر، واستـولى على أمر صـاحب القصر، ونفـق في زمانه النظـم والنثر، وقـرب الفضلاء، واتخذهم جلسـاء، ورحل إليـه ذوو الرجـاء، وأفاض على الـداني والقاصي العطاء، وله قصـائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشـام يذكر فيها قيـامه بنصر الاسلام، ومـا يصدق أحـد أن ذلك شعـره لجودته، وإحكـام معاني حكمته، وأقسام معاني بلاغته، فيقال إن المهـذب ابن الزبير كان ينظم له وأن الجليس بـن الحباب كان يعينـه، وله ديـوان كبير وإحسان كثير، ولما جلس في دست الوزارة نظم هذه الأبيات بديهة:
انظـــــر إلى ذي الـــــــدار كـــــم
قـــد حـــل ســـاحتهـــا وزيـــر
ولكـــــــم تبختر آمنـــــــا
وســـــــط الصفـــــــوف بها أمير
ذهبـــــوا فـــــلا واللّـــــه مـــــا
يبقـــــــــى الصغير ولا الكبير
ولمثـــــل مـــــا صـــــاروا إليـــــ
ـــــه مـــن الفنـــاء غـــداً نصير (٨٩)

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيـع الأوّل من ناحية حلب بحـدوث زلزلـة هائلـة روّعت أهلهـا وأزعجتهم، وزعـزعت مـواضع مـن

مساكنها، ثم سكنت بقدرة محركها سبحانه وتعالى، وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة في دمشق روعت واقلقت ثم سكنت.

وفي التاسع من ربيع الآخر برز نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفر، وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قرب منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها، وقد كمنوا لهم، فغنموهم، وقتل أكثرهم، وأسر الباقون، وفيهم ولد المقدّم المتولي حصن حارم، وعادوا سالمين بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارس واحد.

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأوّل جمادى الآخرة من السنة وافى البقاع مطر هطال بحيث حدث منه سيل أحمر، كما جرت به العادة في تنبوك الشتاء، ووصل إلى بردى، ووصل إلى دمشق، وكثر التعجب من أثار قدرة اللّه تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت.

قال: وفي الليلة الثالثة والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغداة ، وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الاسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتا في مكانه في عدّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفا من كمين يظهر عليهم من عسكر الاسلام، ونجى اللّه وله الحمد نور الدين من بأسهم بمعونة اللّه تعالى،

وشدّة بـأسه وثبـات جاشه ومشهـور شجاعتـه، وعاد إلى مخيمـه سالماً في جماعته، ولام مـن كان السبب في انـدفاعـه بين يدى الفرنـج، وتفرق جمع الفـرنـج إلى أعمالهم، وراسـل ملكهـم لنــور الـديـن في طلـب الصلـح والمهادنة، وحـرص على ذلك، وتردّدت بين الفريقين مـراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالما.

قلت: وذكـر أبو الفتح بحـر بن أبـى الحسن بن بحـر الاشتري المعيد كان بالمدرسـة النظامية في سيرة مختصرة جمعها لنور الديـن وقد تقدّم شيء منها رحمهما اللّه قـال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهـاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة، فقضـى اللّـه بـانهزام عسكـر المسلمين وبقـي الملـك العادل مع شرذمـة قليلة وطائفة يسيرة واقفـا على تل يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار، فـوقف الملـك العادل بحـذائهم مـولياً وجهـه إلى قبلة الـدعاء، حـاضراً بجميع قلبه مناجيـاً ربه يقول: يارب العباد، أنا العبـد الضعيف ملكتني هـذه الولايـة، واعطيتني هـذه النيابـة، وعمرت بـلادك ونصحت عبـادك وأمـرتهم بما أمرتنـي به، ونهيتهـم عما نهيتني عنـه، فرفعـت المنكرات مـن بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهـم، وقد إنهزم المسلمون وأنا لاأقدر على دفع هـؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيـك محمد صلى اللّه عليـه وسلم، ولا أملـك إلاّ نفسي هـذه وقـد سلمتهـا إليهم ذابـا عـن دينـك ونـاصراً لنبيـك، فاستجـاب الله دعـاءه وأوقع في قلـوبهم الرعـب وأرسل عليهـم الخذلان، فوقفوا مواضعهم ومـا جسروا على الاقدام عليه، وظنوا أن الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكـر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكـر المسلين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فـوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله تعـالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كـان ينفلت واحـد من المسلمين، فـوقف عسكـر الكفار وبـرز اثنان

منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدثنا الشيخ داود المقدسي خادم قبر شعيب على نبينا وعليه السلام قال: كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت راكبا عليها، يعني في ذلك اليوم واقفا مع الملك العادل، فلما وصل الكفار، وقربوا منا شمت البغلة رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة، فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الاقليم فإن جرى والعياذ بالله وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلف هذ الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرها ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة ، قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسر الملك العادل الكفار وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم خلقا كثيراً، على ما حكي عن صلاح الدين صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصل في الجريدة ألف أسير مع التركمان، هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القدس، ودخل إلى قلعته فلما جن عليه الليل خرج من القلعة ومضى.

فصل

قال أبـو يعلى: وفي رجب تجمـع قوم من السفهـاء العوام وعـزموا على التحريـض لنور الدين على إعـادة ما كان أبطـل وسامح به أهـل دمشق من رسـوم دار البطيخ، وعرصـة البقل والأنهار، وصانهم مـن اعنات شرار الضمان، وحـوالة الاجنـاد، وكرروا لسخـف عقولهم الخطـاب، وضمنـوا القيام بعشرة آلاف دينـار بيض، وكتبـوا بذلك حتـى أجيبوا إلى مـا راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك مـن المقدمين والأعيان والرعايا، فما اهتـدوا إلى صواب ولا نجـح لهم قصد في خطـاب ولا جواب، وعسفـوا الناس بجهلهم بحيـث تألموا وأكثروا الضجيج والاستغاثة إلى نـور الدين، فصرف همه إلى النظر في هذا الأمـر، فنتجت له السعادة وإيثـار العدل في الرعيـة لاعادة على مـا كان عليـه،فأمر في عـاشر رمضان بـاعادة الـرسوم المعتادة إلى مـا كانت عليـه من إمـاتتها، وتعفية أثـر ضمانها، وأضاف إلى ذلك تبرعاً مـن نفسه إبطال ضمان الهريسة والجبن واللبـن ، ورسم بكتب منشور يقـرأ على كافة الناس بـإبطال هذه الـرسوم جميعها وتعفية ذكـرها، فبالغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثناء عليه والنشرلمحاسنة .

قـال: وفي الحادي والعشريـن مـن رمضـان وصـل الحاجـب محمـود المسترشدي مـن ناحية مصر بجواب مـا تحمله من المراسلات مـن الملك الصالح متولي أمـرها، ومعه رسول من مقدمي أمـرائها ، ومعه المال المنفذ برسـم الخزانة النوريـة، وأنواع الثياب المصرية، والجيـاد العربية، وكـانت فرقـة من الفرنج خـذلهم الله قد ضربـوا لهم في المعابر ، فأظفـر الله بهم فلم يفلـت منهم إلاّ القليل النزر، ثـم تلا ذلك ورود الخبر مـن العسكر المصري بظفرة بجملـة وافرة من الفرنـج تناهز أربعمائة فارس وتـزيد على ذلك في نـاحية العريـش من الكفـار بحيث استولى عليهـم القتل والأسر والسلب.

قال: وقد كانت الاخبار تناصرت من ناحية القسطنطينية في ذي الحجة ببروز ملك الروم منها في العدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الاسلامية، ووصوله إلى مروج الديباج وتخييمه فيها، وبث سراياه للأغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوما من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن أفتتح من أعمال لاوين ملك الأرمن عدّة من حصونه ومعاقله، ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة الولاة بالأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدث من الروم، وبعثهم على استعمال التيقظ والتأهب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر اللّه ، ومعه وزيره عون الدين بن هبيرة، فكاتب أصحاب الأطراف فتحركوا ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه ملك شاه قصد همذان ودخلها في عسكر كبير ونهب، وأخذ نساء الأمراء الذين معه واولادهم، فاختلط العسكر وتفرقوا. وعاد محمد نحو همذان وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعثوا دار السلطان.

قلت: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوّل المحدّث المنفرد بعلو رواية كتاب الجامع الصحيح للبخاري، رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين

قال أبو يعلى: في أوّل يوم منها وافت زلزلة عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها، وكان قد عرض لنور الدين مرض تزايد به بحيث أضعف قوّته، ووقع الإرجاف به من حساد دولته والمفسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرعايا وأعيان الأجناد، وضاقت صدور قطان الثغور والبلاد، خوفا عليه، وإشفاقا من سوء يصل إليه، لاسيما مع أخبار الروم والفرنج، ولما أحس من نفسه بالضعف تقدّم إلى خواص أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمت على وصية إليكم بما وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين، إني مشفق على الرعايا وكافة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين والظلمة الجائرين، وإن أخي نصرة الدين أعرف من أخلاقه وسوء أفعاله ما لاأرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي قطب الدين مودود متولي الموصل، لما يرجع إليه من عقل وسداد ودين وصحة اعتقاد، فحلفوا له وانفذ رسله إلى أخيه باعلامه صورة الحال، ليكون لها مستعدا، ثم تفضل اللّه تعالى بابلاله من المرض وتزايد القوّة في النفس والحس، وجلس للدخول إليه والسلام عليه، وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رتب في الطرقات من يحفظ السالكين فيها، فظفر المقيم في منبج برجل حمال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحملها ، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حجابه إلى أخيه نصرة الدين أمير أميران صاحب حران بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والاسراع إلى دمشق لتسلم إليه، فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين، وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جعبر يخبر بقطع نصرة

الدين الفراة مجداً إلى دمشق فانهض أسـد الدين في العسكر المنصور لردّه ومنعه مـن الوصـول، فاتصـل به خبر عوده إلى مقـرّه عند معـرفته بعـافية أخيـه، فعاد أسـد الديـن إلى دمشق، ووصلـت رسل الملـك العادل مـن ناحية الموصل بجـواب ما تحملوه إلى أخيه قطب الدين، وفـارقوه وقد برز في عسكره متـوجها إلى نـاحية دمشـق، فلما فصل عـن الموصل اتصـل به خبر عافيته، فأقـام بحيث هو ، وأنفذ وزيره جمال الديـن أبا جعفر محمد ابن علي لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يـوم السبت الثامن من صفر في أحسن زي وأبهى تجمل، وخرج إلى لقائه الخلق الكثير.

قـال: وهذ الـوزير قـد ألهمه اللّـه تعـالى من جميـل الأفعال وحميـد الخلال وكـرم النفـس، وإنفـاق أمـوالـه في أبـواب البر والصـدقـات والصـلات، ومستحسن الآثار في مـدينة الـرسول عليـه السلام، ومكـة ذات الحرم والبيت المعظـم شرفه الله تعـالى، ما قـد شاع ذكره وتضـاعف عليه حمده وشكره، واجتمـع مع نور الدين، وجرى بينهما مـن المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعـد الاكرام له، وتوفيته حقه من الاحترام، وأصحبه بـرسم قطـب الديـن أخيه وخـواصه مـن الملاطفة مـا اقتضته الحال الحاضرة، وتوجه معه الأمير أسد الدين.

وقـال ابن أبي طـي: لما وصـل الوزيـر جمال الـديـن إلى حلب تلقـاه موكـب نور الـدين وفيـه وجوه الـدولة وكبراء المدينـة، وأنزل في دار ابـن الصوفي وأكـرم غايـة الإكرام، وأعيـد إلى صاحبه شـاكراً عـن نور الـدين وسير معه الأمير أسـد الدين شيركـوه رسولا إلى قطب الـدين بالشكـر له والثناء عليـه، وأنفذت معـه هدايـا سنية، فسـار وعاد إلى حلـب مكرمـا فوجد نور الـدين عازما على الخروج إلى دمشق لما بلغه مـن إفساد الفرنج في بلد حـوران ، فسار في صحـابته، ووصل نـور الديـن إلى دمشق فـأمر الناس بالتجهز لقتال الفرنج، ثم أنهض أسد الدين في قطعة من العسكر لـلاغارة على بلـد صيـدا ، فسـار وسار معـه أخـوه نجـم الديـن أيـوب

وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلاّ وهو قد عـاث في بلد صيدا وقتل وأسر عالماً عظيماً، وغنم غنيمة جليلة ، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلت: وهـذا هو ما تقـدم ذكره بعـد المرضة الأولى، وكأن ابـن أبي طي جعل المرضتين واحـدة بحلب، وأبو يعلى ذكـر أن الأولى بحلب والثـانية بدمشق، وهو أصح، واللّه أعلم

فصل

قال أبو يعلى: وكان قـد وصل من ملك الروم رسول مـن معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثـواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعـال ، وقوبل بمثـل ذلـك، وحكي عـن ملـك الفرنـج خـذله اللّـه أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرّرت، والمهـادنة انعقدت، واللّه يردِ بأس كل واحد منهما إلى نحره ، ويذيقه عاقبة غدره ومكره.

قـال ووردت أخبار مـن ناحـة ملك الـروم بـاعتزامـه على أنطاكيـة ، وقصد المعـاقل الاسلاميـة، فبادر نور الـدين بالتـوجه إلى البلاد الشـامية لايناس أهلها من استيحاشهم من شر الـروم والأفرنج خذلهم اللّه تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماه وشيزر.

قال: وفي ثالث ربيع الأوّل وافت زلزلة هـائلة ما جت أربع موجات ، وأيقظت النيام، وأزعجت اليقظى، وخـاف كل ذي مسكن مضطرب على نفسه وعلى مسكنه.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هبت ريح عاصفـة شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثمار صيفيهـا وشتويها، وأفسدت بعض الأشجار ، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت.

قال: وتجدّدت المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم بعد تكرّر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمي الأفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم، وقابل ملك الروم هذا الفضل بما يضاهيه،من الاتحاف بأثواب الديباج الفاخرة المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الديباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية، ثم رحل عقيب ذلك في عساكره من منزله عائدا إلى بلاده مشكوراً محموداً، ولم يؤذ أحداً من المسلمين في العشر الأوسط من جمادى الأولى، فاطمانت القلوب بعد انزعاجها وقلقها.

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قطب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والأفرنج سماطاً عظيماً هائلا، تناهى فيه، وفرّق من الحصن العربية والخيول والبغال العدد الكثير، ومن الخلع من أنواع الديباج المختلفة وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهودا في الحسن والتجمل، واتفق أن جماعة من غرباء التركمان وجدوا من الناس غفلة باشتغالهم بالسماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني اسامة وغيرهم واستاقوا مواشيهم ، فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في إثرهم فريقا وافرا من العسكر فأدركوهم، ثم إنهم استخلصوا منهم جميع ما أخذوه وأعيد إلى أربابه .

قال: وتقرّر الرأي النوري على التوجه إلى مدينة حران لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نصرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصلاح، فرحل في عسكره أوّل جمادى الآخرة، فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرر الحال على أمان من بها، وسلمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقررت أحوالها، وأحسن النظر في

أحوال أهلهـا، وسلمها لـلأمير زين الديـن على سبيل الإقطـاع ، وفوض إليه تدبير أمورها.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين أحد مقدمي أمراء الاكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوف بالشجاعة والبسالة والسماحة مواظب على بث الصلات والصدقات في المساكين والضعفاء والفقراء مع الزمان في كل عصر ينقضي وأوان، جميل المحيا حسن البشر في اللقاء، وحمل من داره بباب الفراديس إلى الجامع للصلاة عليه، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه، فدفن فيها في اليوم، ولم يخل من باك عليه ومؤبن له ومتأسف على فقده لجميل أفعاله وحميد خلاله.

قلت: وله أوقاف على أبواب البرّ منها: المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدّد، والأخرى قبالة باب دار سيف الغربي في صف مدرسة نور الدين رحمه الله، وله وقف على من يقرأ السبع كل يوم بمقصورة الخضر بجامع دمشق وغير ذلك، وقد مدحه العرقلة وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهل صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق إلى الملك العادل نور الدين رقعة يسأله فيها الإعفاء من القضاء والاستبدال به، فأجاب سؤاله وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وهو المشهور بالتقدّم ووفور العلم وصفاء الفهم والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الانصاف والعدل والنزاهة، وتجنب الهوى والظلم، واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه على أن القضاء، من بعض أدواته، واستقرّ أن يكون النائب عنه عند اشتغاله ولده.

قلت: ولكمال الدين رحمه اللّه تعالى الصدقة الجارية بعده على الفقراء

كل جمعة، وإليه ينسب الشباك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مدّة، ويصلون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى هاهنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التميمي، فإنه أخر كتابه، وفي هذه السنة توفي رحمه الله.

قال ابن الأثير: وفيها توفي أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله، ومولده سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المظفر يوسف، ولقب بالمستنجد بالله، فأقرّ ابن هبيرة على وزارته،

قال: وفيها حج زين الدين علي، وأحسن إلى الناس في طريق مكة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالّله، فلما لبس الخلعة كانت طويلة وكان قصيرا جدا، فمدّ يده إلى كمرانه وأخرج ما شدّ به وسطه وقصر الجبة، فنظر المستنجد بالّله إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الامير والجندي لامثلكم.

قلت: وفيها توفي المستخلف بمصر الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ، وهو آخر خلفاء مصر، ووصل من الصالح بن رزيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه.

هناء عن نعمى قل عن قدرها الشكر
وصبراً لرزء لا يقوم به الصبر
مضى الفائز الطهر الامام وقام بالـ
ـلإمامة فينا بعده العاضد الطهر
امام هدى للّه في نقل ذا إلى
كرامته وفي إقامة ذا سر

فعـــش أبـــدا واسلـــم لهم يـــا كفيلهـــم
تـــدافـــع عنهـــم كـــل حـــادثـــة تعـــرو (٩٠)

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

قال ابن أبي طي: في هذه السنة حج أسد الدين من الشام ، وخرج في تجمل عظيم وشارة رائعة واستصحب معه من الأزواد والكسى أشياء عظيمة ، ويقال إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب، وحج على كوجك المعروف بزين الدين من العراق ، وحج ملهم أخو ضرغام وزير مصر، فكان الموسم بهؤلاء الثلاثة كثير الخير، واستغنى بسببهم أهل الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً وخرج نور الدين إلى لقائه وكان يوم وروده يوما عظيما

وقال أيضا: وفيها قتل الصالح بن رزيك بمصر، وكان سبب قتله أن عمة العاضد عملت على قتله وأنفذت الأموال إلى الأمراء، فبلغ ذلك الصالح فاستعاد الأموال واحتاط على عمة العاضد.

قال. وإنما كرهته عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحفظه للأموال، وقتل الصالح بسببها جماعة من الأمراء ونكبهم ، وتمكن من الدولة تمكنا حسناً، ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقوم من السودان مالاً جزيلا حتى أوقعوا به الفعل، جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر، ودخله وسلم على العاضد، وخرج من عنده فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصيحة فعثر الصالح بأذياله فطعنه أحدهم بالسيف في ظاهر رقبته فقطع أحد عمودي الرقبة، وحمل إلى باب القصر، وأصيب ولده رزيك في كتفه،ولما حصل الصالح في داره أوصى ولده رزيك ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل ، ورخص سعر الشعر، وانخفض علم العلم، وضاق فضاء الفضل، وعم رزء ابن رزيك، وملك

صرف الدهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ منحوسة الجدّ، منكوسة الراية معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسفها الثاني، وجعلها معان المعاني وأنشر رميمها، وعطر نسيمها، وتسلم قصرها والتزم خصرها(٩١).

قال زين الدين الواعظ: عمل فارس المسلمين أخو الصالح دعوة في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلمها إليّ:

انست بكم دهراً فلما ظعنتم اسـ ... ـتقرت بقلبي وحشة للتفرق
وأعجب شيء أنني يوم بينكم ... بقيت وقلبي بين جنبي ما بقي
أرى البعد ما بيني وبين أحبتي ... كبعد المدى ما بين غرب ومشرق
ألا جدّ دي يا نفس وجداً وحسرة ... فهذا فراق بعده ليس نلتقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرة، وقتل في شهر رمضان(٩٢).

قلت: ولعمارة اليمني ولغيره مدائح في الصالح ومراث جليلة، وقد أثنى عليه كثيرا في كتاب الوزراء المصرية، ولم يكن مجلس أنسه ينقطع إلاّ بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته.

قال: وكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، يكرم جليسه ويبسط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبية في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفا قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

قال: ودخلت عليه قبل أن يموت بثلاث ليال وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة:

نحن في غفلة ونوم وللمو
ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا
ليت شعري متى يكون الحمام

قال: ومن عجيب الاتفاق أني أنشدت ابنه مجد الاسلام في دار سعيد السعداء ليلة السادس عشر من شهر رمضان، أو السابع عشر قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدّه
وأنت يمين إن سطا وشمال
لرتبته العظمى وإن طال عمره
إليك مصير واجب ومآل
تخالسك اللحظ المصون ودونها
حجاب شريف لا انقضى وحجال

قال: فانتقل الملك بعد ثلاث إليه(٩٣)

قال: ومما رثيته به قولي:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فقد رابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوباً وما فيه كافله
وأني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

دعـوني فما هـذا بـوقـت بكـائه
سيـأتيكـم طـل البكـاء ووابلـه
ولم لا نبكيـه ونـنـدب فقـده
وأولادنـا أيتـامـه وأراملـه
فيـاليـت شعـري بعـد حسـن فعـالـه
وقـد غـاب عنـا مـا بنـا الـدهـر فـاعلـه
ايكـرم مثـوى ضيفكـم وغـريبكـم
فيسكـن أم تطـوى ببين مـراحلـه

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:
طمـع المرء في الحيـاة غـرور
وطـويـل الآمـال فيهـا قصير

ومنها:
ولكـم قـدّر الفتـى فـأتتـه
نـوب لم يحط بها التقـديـر

ومنها:
فـض ختـم الحيـاة عنـك حمام
لا يـراعـي أذنـا ولا يستشير
مـا يخطـى إلى جـلالـك اليـوم إلا
قـدر أمـره علينـا قـديـر
يـا أمير الجيـوش هـل لـك علـم
أن حـر الاسـى علينـا أمير
إنّ قبراً حللتـه لغنـي
إن دهـرا فـارقتـه لفقير
انطـوى ذلـك البسـاط وعهـدي
وهـو بـالعلـم والنـدى مغمـور
لا تظـن الأيـام أنـك ميـت
لم يمـت مـن ثنـاؤه منشـور

إن مضى كافل فهذا كفيل
أو وزير يغب فهذا وزير
دولة صالحية خلفتها
دولة عادلية لا تجور
ما شكونا كسر النوائب حتى
قيل في الحال كسركم مجبور
نصر الناصر العُلى بالعوالي
ولنعم المولى ونعم النصير

قال أيضا يرثيه ويذكر الظفر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقرافة، قصيدة طويلة منها:

قد كنت أشرق من ثماد مدامعي
أسفا فكيف وقد طمى التيار
عم الورى يوم الخميس وخصني
خطب بأنف الدهر منه صغار
ما أوحش الدنيا غدية فارقت
قطبا رحى الدنيا عليه تدار
خربت ربوع المكرمات لواحد
عمرت به الاجداث وهي قفار
نعش الجدود العاثرات مشيع
عشيت برؤية نعشه الابصار
نعش يودّ بنات نعش لو غدت
ونظامها أسفا عليه نثار
شخص الأنام إليه تحت جنازة
خفضت لرفعة قدرها الاقدار
سار الامام أمامها فعلمت أن
قد شيعتها الخمسة الأبرار
ومشى الملوك بها حفاة بعدما
حفت ملائكة بها أطهار

فكأنها تابوت موسى أودعت
في جانبيه سكينة ووقار
لكنه ما ضم غير بقية الاسـ
ـلام وهو الصالح المختار
اقطنته دار الوزارة ريثما
بنيت لنقلته الكريمة دار
وتغاير الهرمان والحرمان في
تابوته وعلى الكريم يغار
آثرت مصراً منه بالشرف الذي
حسدت قرافتها له الأمصار
وجعلتها أمناً به ومثابة
ترجو مثابة قصدها الزوّار
قد قلت إن نقلوه نقلة ظاعن
نزحت به دار وشط مزار
ما كان إلاّ السيف جدّد غمده
بسواه وهو الصارم البتار
والبدر فارق برجه متبدّلا
برجابه تتشعشع الأنوار
والغيث روّى بلدة ثم انتحى
أخرى فنوء سحابه مدرار
يا مسبل الأستار دون جلاله
ماذا الذي رفعت له الاستار
مالي أرى الزوّار بعد مهابة
فوضى ولا أذن ولا استئذار
غضب الاله على رجال أقدموا
جهلاً عليك وآخرين أشاروا
لاتعجبا لقذار ناقة صالح
فلكل دهر ناقة وقذار

واخجلتا للبيض كيف تطاولت
سفهاً بأيدي السود وهي قصار
واحسرتا كيف انفردت لأعبد
وعبيدك السادات والأحرار
رصدوك في ضيق المجال بحيث لا الـ
ـخطي متسع ولا الخطار
ما كان أقصر باعهم عن مثلها
لو كنت متروكاً وما تختار
ولقد ثبت ثبات مقتدر على
خذلانهم لو ساعد المقدار
وتعثرت أقدامهم بك هيبة
لو لم يكن لك بالذيول عثار
أحللت دار كرامة لا تنقضي
أبداً وحل بقاتليك بوار
ياليت عينك شاهدت أحوالهم
من بعدها ورأت إلى ما صاروا
وقع القصاص بهم وليسوا مقنعاً
يرضي وأين من السماء غبار
ضاقت بهم سعة الفجاج وربما
نام العدوّ ولا ينام الثار
وتوهموا أن الفرار مطية
تنجي وأين من القضاء فرار
طاروا فمدّ أبو الشجاع لصيدهم
شرك الردى فكأنهم ما طاروا
فتهنّ بالأجر الجزيل وميتة
درجت عليها قبلك الأخيار
مات الوصي بها وحمزة عمه
وابن البتول وجعفر الطيار

نلـــــت السعـــــادة والشهـــــادة والعلى
حيـــــا وميتـــــا إن ذا الفخـــــار
ولقـــــد أقـــــر العين بعـــــدك أروع
لـــــولاه لم يـــــك للعلى استقـــــرار
النـــــاصر الهادي الـــــذي حسنـــــاتـــــه
عـــــن سيئـــــات زمـــــاننـــــا أعـــــذار
ولما استقـــــام لحفـــــظ أمـــــة أحمد
عمـــــرت بـــــه الأوطـــــان والأوطـــــار

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين العساكر، وسار إلى قلعة حارم وجصرها، وجدّ في قتالها، فامتنعت عليه لحصانتها وكثرة من بها من الفرسان الفرنج وشجعانهم ، واجتمع الفرنج من سائر البلاد وساروا نحوه ليرحلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصاف فلم يجيبوه إلى ذلك وراسلوه وتلطفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده، وممن كان معه في هذه الغزاة الأمير مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن منقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لامزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد شيرين وكان قد دخله العام الماضي سائرا إلى الحج، فلما دخله عامئذ كتب على حائطه:

لك الحمد يا مولاي كم لك منة
علىّ وفضل لايحيط به شكري
نزلت بهذا المسجد العام قافلا
من الغزو موفور النصيب من الأجر
ومنه رحلت العيس في عامي الذي
مضى نحو بيت اللّه ذي الركن والحجر
فأدّيت مفروضي وأسقطت ثقل ما
تحملت من وزر الشبيبة عن ظهري

قلت: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضا بمدينة صور وقد دخل دار ابن عقيل فرآها وقد تهدمت وتغيرت زخرفتها فكتب على لوح من رخام هذه الأبيات:

احذر من الدنيا ولا
تغتر بالعمر القصير
وانظر إلى آثار من
صرعته منا بالغرور

عمروا وشادوا ماترا ... من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكناها إلى سكنى القبور(٩٤)

قلت : قال ابن أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل، صاحب صور، ويلقب عين الدولة ، مات سنة خمس وستين وأربعمائة، واستولى على صور ابنه النفيس. والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد، وهو للفرنج عازما على دخول بلادهم، ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم في وسط النهار، لم يرعهم إلاّ ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن، فكبسوهم،فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج عن ظهر خيمته عجلا بغير قباء، فركب فرساهناك للنوبة،ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحه فنزل إنسان من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين، وقتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثر القتلة في السوقة والغلمان، وسار نور الدين إلى مدينة حمص، وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لايقف دون حلب، وكان رحمه اللّه أشجع من ذلك وأقوى عزما، ولما نزل على بحيرة قدس اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه : ليس من الرأي أن نقيم هاهنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلوا أو كثروا، وواللّه لاأستظل بجدار حتى أخذ بثار الإسلام وثأري، ثم إنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند، فأكثر وفرق ذلك جميعه على من سلم، وأما من قتل فإنه أقر اقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يفقد منه أحد، وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا إنه لم يفعل هذا، إلاّ وعنده من القوّة أن يمنعنا، وكان نور الدين رحمه اللّه قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدم إلى ديوانه أن يحضروا الجند

ويسألو كل واحد منهم عن الذي أخذ منه ، فكل من ذكر شيئا أعطوه عوضه فحضر بعض الجند وادّعى شيئا كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادّعاه ، لمعرفتهم بحالهم، فأرسلوا إلى نور الدين ينهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما إدّعاه، فأعاد الجواب لاتكدروا عطاءنا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره، وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدارارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا، وقال: واللّه إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم ، فسكتوا.

ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة ، فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه،وعادوا إلى بلادهم، وتفرقوا.

قلت: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد يقول أبو الفرج عبيد اللّه ابن سعد الموصلي نزيل حمص من جملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه اللّه أوّلها:

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل
ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله
عمرو وعزم وبأس غير منتقل
وما يعيبك ما حازوه من سلب
بالختل قد تؤسر الآساد بالحيل
وإنما أخلدوا جبنا إلى خدع
إذا لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد اللّه غفلتكم
لينفذ القدر المحتوم في الأزل

حتى أتوكم ولا الماذي من أمم
ولا الظبى كثب من مرهق عجل

قنا ألقى وقسيّ غير موترة
والخيل عازبة ترعى مع الهمل

ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر
بما حواليه من عفر ومن وعل

هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد
سلوا الظبى تحت غابات من الاسل

وإن هم أضاعوا حزمهم ثقة
بجمعهم ولكم من واثق خجل

وبني الأصافر ما نلتم بمكركم
والمكر في كل إنسان أخو الفشل

وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم
غير الأراذل والأتباع والسفل

سلبتم الجرد معراة بلا لجم
والسمر مركوزة والبيض في الخلل

هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها
مثال آخذها في الشكل والطول

أم سالب الرمح مركوزا كسالبه
والحرب دائرة من كف معتقل

جيش أصابتهم عين الكمال وما
يخلو من العين إلاّ غير مكتمل

لهم بيوم حنين أسوة وهم
خير الأنام وفيهم خاتم الرسل

سيقتضيكم بضرب عند أهونه
البيض كالبيض والأدراع كالحلل

ملك بعيد من الإدناس ذو كلف
بالصدق في القول والإخلاص في العمل

ومنها:

فـالسمر مـا أصبحت والشمس مـا أفلت
والسيـف مـا فـل والأطـواد لم تـزل

وكـم تجلت بنـور الـديـن مـن ظلـم
وانجـاب مـا كـان لـلاضـلال مـن ظلـل

قـل للمـولين: كفـوا الطـرف مـن جبـن
عنـد اللقـاء وغضـوا الطـرف مـن خجـل

طلبتـم السهـل تبغـون النجـاة ولـو
لـذتـم بملككـم لـذتـم إلى الجبـل

أسلمتمـوه ووليتـم فـأسلمكـم
بثبتـة لـو بغـاهـا الطـود لم ينـل

فقـام فـرداً وقـد ولـت جحـافلـه
فكـان مـن نفسـه في جحفـل زجـل

في مشهـد لـو ليـوث الغيـل تشهـده
خـرّت لأذقـانها مـن شـدّة الـوهـل

وسـط العـدى وحـده ثبـت الجنـان وقـد
طـارت قلـوب على بعـد مـن الـوجـل

يعـود عنهـم رويـداً غير مكترث
بهم وقـد كـرّ فيهـم غير محتفـل

يـزداد قـدمـاً إليهـم مـن تيقنـه
أن التـأخـر لا يحمـى مـن الأجـل

مـا كـان أقـربهم مـن أسر أبعـدكـم
لـو أنهم لـو يكـونـوا منـه في شغـل

ثبـاتـه في صـدور الخيـل أنقـذكـم
لا تحسبـوا وثبـات الضمـر الـذلـل

مـا كـل حين تصـاب الأسـد غـافلـة
ولا يصيـب الشـديـد البطـش ذو الشلـل

واللّـه عـونـك فيما أنـت مـزمعـه
كما أعـانـك في أيـامـك الأول

كم قد ملكت لهم ملكاً بلا عوض
وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالي من طلى ملك
وكم قريت العوافي من قرا بطل
لا انكبت سهمك الأقدار عن غرض
ولا ثنت يدك الأيام عن أمل

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:(غيري بأكثر هذا الناس ينخدع) القصيدة، فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم، وهم المنهزمون، وقد أحسنا معا عفا الله عنهما، وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل وشاعر مفلق، كان مدرساً بحمص يعرف بابن الدهان، وله ترجمة في تاريخ دمشق، وقد ذكره العماد الكاتب في خريدته فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضا في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين وست وسبعين وثمان وسبعين إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة ، أعني سنة ثمان وخمسين وخمسمائة توفي عبد المؤمن ابن علي خليفة المهدي محمد بن تومرت ، صاحب المغرب، وولي بعده ابنه يوسف.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركوه بن شاذي إلى مصر المرّة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية، عازما على ملك الديار المصرية، واستضافتها إلى المملكة النورية، وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب، وهو أكبر ابناء شاذي من بلد دوين ، وهي بلدة من آخر بلاد أذربيجان مما يلي الروم، وأصلهما من الأكراد الرّواذية، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد، وقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروزا الخادم وهو شحنة العراق، فرأى في نجم الدين عقلاً ورأيا وحسن سيرة فجعله دزداراً بتكريت ، وهي له فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين ، فلما انهزم أتابك زنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق من قراجة الساقي وهو أتابك داود بن السلطان محمود، وذلك زمن المسترشد بالله سنة ست وعشرين وخمسمائة، وصل إلى تكريت فخدمه نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دجلة وتبعه اصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيرهم ،ثم إن أسد الدين قتل انسانا نصرانيا بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأرسل مجاهد الدين اليه والى اخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت ، وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصا من مماليك بهروز بسهم فقتله، فخشي على نفسه، فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي، وقيل لما قتل أسد الدين شيركوه النصراني وكان عزيزا عند بهروز هرب إلى الموصل، والتحق أيوب به وسنوضح هذه القضية إن شاء اللّه تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمان وستين.

ثم إن أيوب وشيركوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعا حسنا، وصارا من جملة جنده ، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دزداراً فيه، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين ، فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده ينهي الحال إليه فلم يتفرغ لبعلبك، وضاق الأمر على

من بها، وخاف نجم الدين آن تؤخـذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعا ذكره، فأجيـب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلـم القلعة ووفى له بها حلف عليـه من الإقطاع والتقـدّم، وصار عنده من أكابر الأمراء، واتصل أخوه أسـد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتـل الشهيد، وكان يخدمـه في أيام والده ، فقربـه نور الديـن وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشـاهده آثاراً يعجز عنها غيره ، لشجاعتـه وجرأته، فزاده إقطـاعاً،وقربـاً حتى صار له حمص والـرحبةوغيرهما، وجعلـه مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النـورية، بملك دمشق أمر أسد الـدين فراسل أخـاه نجم الـدين وهـو بها في ذلك،فطلـب منه المسـاعدة على فتحهـا، فأجاب إلى مـايراد منه، وطلب هو وأسـد الدين من نور الـدين كثيرا من الاقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبـذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنـازل لاسيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كـانوا لايقعدون عند نور الدين الا أن يأمـرهم أو أحدهم بذلـك إلا نجم الـدين، فـإنه كان إذا دخـل إليه قعـد من غير أن يـؤمر بذلك.

فلما كان سنـة تسع وخمسين عـزم نور الديـن على إرسال العسـاكر إلى مصر، ولم يـر لهذا الأمر الكبير أقـوم ولا أشجـع مـن أسد الـديـن، فسيره وكان سبب ذلك أن شاور بن مجير أبـا شجاع السعدي، وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجـر الحديـد مـن الحديـد وشـاور
في نصر آل محمـد لم يضجـر
حلـف الـزمـان ليـأتين بمثلـه
حنثـت يمينـك يـا زمـان فكفـر

وهو وزير الملقب بالعاضد لـدين اللّه آخر المستخلفين بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنـة ثمان وخمسين سادس ربيع الأول إلى نور الـدين،

مستنجدا بـه، على من أخذ منه منصبـه قهراً، وكانت عـادة المصريين أنه إذا غلب شخـص صاحب المنصب، وعجـز صاحب المنصب عـن دفعه وعرفـوا عجزه وقعوا للقـاهر منهم، ورتبوه ومكنـوه، فإن قوّتهم إنما كـانت تكون بعسكـر وزيرهم وهـو الملقب عندهـم بالسلطـان، وما كانـوا يرون المكاشفـة وأغراضهم مستقيمـة، وقواعـدهم مستقرة مـن أوّل زمانهم على هذا المثـال، وكان شارو قـد غلب على الوزارة وانتـزعها من بنـي رزيك، وقتل العادل بن الصـالح بن رزيك الذي وزر بعد أبيـه، واسمه رزيك، ويلقب بالناصر أيضا، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم ابـن علي من الاسكنـدريـة واستخدمـه بحضرته وبين يـديـه في ديـوان الجيش على ما ذكره عمارة اليمني في كتـاب الوزراء المصرية، وقال: غرس منه للدولـة، بل للملة، شجرة مباركـة متزايدة النماء أصلها ثابـت وفرعها في السماء .

ثم خرج على شـاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضرغـام بن سوار، ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاكثيرة لم يكـن له بها قبل فغلبه وأخرجه، من القاهرة وقتـل ولده طيئا، واستولى على الوزارة، فرحـل شاور إلى الشام قاصداً خـدمة نور الديـن، مستصرخا به ومستنصرا، فأحسـن لقائه وأكرم مثواه، فطلـب منه إرسال العساكـر إلى مصر ليعود إليها، ويكون لـه فيها حصة ذكرهـا له، ويتصرف على أمره ونهيه، واختياره، ونور الـدين يقدّم في ذلك رجلاً ويـؤخر أخرى، تارة يحمله رعـاية قصد شاور وطلـب الزيادة في الملك والتقوى على الفرنـج، وتارة يمنعه خطر الطريق، وكـون الفرنج فيه إلاّ أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مـع الخوف من الفرنج أيضا، ثم استخار اللـه تعالى وأمـر أسد الـدين بـالتجهز للمسير معـه قضاءاً لحق الوافـد المستصرخ، وحبسا للبلاد، وتطلعـا على أحوالها، وكان هـوى أسد الديـن في ذلك، وكـان عنده مـن الشجاعـة وقوّة النفـس مالا يبـالي معه بمخافة، فتجهز وسار مع شـاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين. هكذا ذكر ابن الأثير والعماد الكاتب.

وقال القاضي ابن شداد: كان ذلك سنة ثمان وخمسين ، والقول في ذلك قولها، فقد بينا أن قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين ، وإرسال نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين، .

قالوا: وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه، والانتقام ممن ناوعه في الوزارة ، وساروا جميعا، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الاسلام ممايلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين ، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه ، فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً، وتمكن من منصبه، وكان عمارة قد مدح ضرغاما بقصيدة منها:

وأحق من وزر الخلافة من نشا
في حضرة الإكرام والإجلال
واختص بالخلفاء وانكشفت له
أسرارها بقرائن الأحوال
وتصرف الوزراء عن آرائه
كتصرف الأسماء بالافعال

قال عمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالا:

أرى حنك الوزارة صار سيفا
يجذ بحدّه صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا
بشير بالمنية والمصاب

ولعمارة اليمني من قصيدة مدح بها شاور وذكر وزارتيه قوله:

فنصرت في الأولى بضرب زلزل الـ
أقدام وهي شديدة الإقدام

ونصرت في الأخـــرى بضرب صـــادق
أضحـــى يطير بـــه غـــراب الهام
أدركـــت ثـــارا وارتجعـــت وزارة
نـــزعـــا بسيفـــك مـــن يـــدي ضرغـــام

وكان ضرغـام أوّلا من أصحـاب شاور واتبـاعه، وقـد أشار إلى ذلـك عمارة في قوله من قصيدة له:

كـــانـــت وزارتـــك القـــديمـــة مشرعـــا
صفـــواً ولكـــن كـــدّرت غـــدرانها
غصبـــت رجـــال تـــاجـــه وسريـــره
مـــن بعـــد مـــا سجـــدت لـــه تيجـــانها

وله من قصيدة أخرى في شاور:

وزيـــر تمنتـــه الـــوزارة أوّلا
وثـــانيـــة عفـــواً بغير طـــلاب
فخـــانتـــه في الأولى بطـــانـــة ودّه
ورب حبيـــب في قميـــص حبـــاب
وجـــاءتـــه تبغـــي الصلـــح ثـــاني مـــرة
فلـــم يـــرض إلاّ بعـــد ضرب رقـــاب

ولم يغلب وزيـر لهم وعاد غير شاور، وكـان مدّة أخـذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهـي مدّة الحمل نص عمارة على ذلك، وقال قتـل ولده طـيء يوم الجمعة الثـامن والعشريـن من رمضـان، وجاز رأسـه على رمـح تحت الطيقان والنسـاء يـولـولـن بالصراخ، وكـان فيهـن واحدة تحفظ قولي في الصالح:

أينســـى وفي العينين صـــورة وجهـــه الـــ
ـــكريم وعهـــد الانتقـــال قـــريـــب

فما زالت تكرره حتى رأت رأس ضرغام

قـال: وأدرك شاور ثـأره في يوم الجمعـة الثامـن والعشرين مـن جمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر.

قال: وقلت في ذلك:

ونـزعـت ملكـك مـن رجـال نـازعـوا
فيـه وكنـت بـه أحـق وأقعـدا
جـذبـوا رداءك غـاصبين فلـم تـزل
حتـى كسـوت القـوم أرديـة الـردى
وبـردت قلبـك مـن حـرارة حـرقـة
أمـرت نسيـم الليـل أن لا يبردا
تـاريـخ هـذا نلتـه في مثلـه
يـومـا بيـوم عبرة لمن اهتـدى
حملـت بـه الأيـام تسعـة أشهـر
حتـى جعلـن لـه جمادى مـولـدا

وله فيه أيضا:

للّـه درك مـوتـورا أقـضّ بـه
دسـت وسرج وأجفـان ومضطجـع
مـا غبـت إلاّ يسيرا ثـم لحت لنـا
والثـار مستـدرك والملـك مـرتجع
قضيـة لم ينـل منهـا ابـن ذي يـزن
إلاّ كما نلـت والآثـار تتبـع

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهـر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الـدين من البلاد المصرية، ولأسد الديـن أيضا، فأرسل إليه يـأمره بـالعود إلى الشـام، فأنف أسـد الديـن من هـذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كـان استقر، فلم يجبه شاور إليـه، فلما رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكـم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الفرنج يستمدهـم،ويخوفهم من نور الدين ان ملك مصر، وكـان الفرنج قد

أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم، ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته، وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهزوا وساروا، فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير، سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الأفرنج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشدّ من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدس، فاستعان بهم ملك الفرنج، فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعض في البلاد يحفظها ، فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين، وقصد مدينة بلبيس وأقام بها هو وعسكره، وجعلها ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية، ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر ، وقد امتنع أسد الدين بها وسوّرها من طين قصير جدّاً، وليس له خندق ولامعقل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئا فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سقط في أيديهم وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلاّ وقد ملكها على ما سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى، وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام، ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

قال ابن الأثير: فحدثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم وبيده لت من حديد يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: فأتاه فرنجي من

الفرنج الغربـاء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هـؤلاء المسلمون والفرنج قد أحـاطوا بك وبـأصحابك فـلا يبقى لـك معهم بقية، فقـال شيركوه: يـاليتهم فعلـوا حتى كنـت تـرى ما لم تـر مثلـه كنت واللّـه أضع فيهـم السيف فلا أقتـل حتى أقتل رجالا، وحينئـذ يقصدهم الملك العـادل نور الدين وقد ضعفـوا وفني أبطالهم، فيملك بلادهم ويفنـي من بقي منهم، ووالله لو أطاعنـي هؤلاء، يعني أصحابه لخرجت إليكـم أوّل يوم، لكنهم امتنعوا فصلـب الفرنجـي على وجهه وقـال: كنا نعجـب من فـرنج هـذه الديـار ومبالغتهـم في صفتك وخـوفهم منـك، والآن فقد عـذرناهـم، ثم رجع عنه، وسار شيركوه إلى الشام، وعاد سالما.

وقال العماد الكـاتب: وصل شـاور إلى نور الـدين ملتجئا فـألفاه على عدوّه معـديا مشكيا، وسير مـعـه أسد الديـن على قرار عينه، وأمـر بينه، وبغية يـدركها وخطة يملكها، ومحجـة واضحة في الملك يسلكهـا فمضى معه ونصره، وأصفى لـه مشرعه، واسترد له موضعه، وأظهـره بعلوه، وأظفره بعـدوّه، فلما باد خصمـه بـدا وصمه، وغـدر بعهـده، وأخلف في وعـده، وكان قـد راسل الفـرنج وهـاداهم في حـرب الاسلام، فـوصلوا فتحصـن شيركوه ومـن معه بمدينـة بلبيس، فحـاصره شاور بجنود مصر، والفـرنج، ثلاثة أشهر من مستهل رمضان إلى ذي الحجـة، فبذلوا له قطيعة فانصرف عنهم، وعاد إلى الشام، وفي قلبه مـن شرّ شاور الإحن، وكيف تمت بغدره تلك المحن.

قلت: وقـد أشار إلى ذلك عمارة في قولـه في مدح شاور وذكر الأفـرنج فقال:

وأنفـذت مـن مصر عـدوا بمثلـه ... فللّـه مـن ظفـر فللـت ونـاب

صـدمـت جموع الكفـر والشـام صـدمـة ... أقمـت بها للقـوم سـوق ضراب

قـــد جـــردت أجنـــاد مصر عـــزائما
مضـــاربها في الصخـــر غير نـــوابي
تـــولـــوا عـــن الافـــرنـــج فـــادح ثقلهـــا
ودارت رحـــاهـــا منهـــم بهضـــاب
أقـــامـــت دروع الجنـــد تسعين ليلـــة
ثيـــابـــا لهم مـــا بـــدلـــت بثيـــاب
وهـــم بين مطـــروح هنـــاك وطـــارح
وبين مصيـــب خصمـــه ومصـــاب

وقال القـاضي ابن شداد: سار أسـد الدين إلى مصر واستصحـب معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بـن أيوب وجعله مقدّم عسكره، وصاحب رأيه، وكان لايفصـل أمراً ولايقرّر حالا إلاّ بمشورته ورأيـه، لما لاح له منه من آثـار الإقبال والسعادة ، والفكـرة الصحيحة، واقتران النصر بحركـاته وسكناتـه، فساروا حتـى وصلوا مصر، وشاور معهـم، وكان لـوصولهم إلى مصر وقع عظيـم، وخافـه أهل مصر، ونصر شاورا على خصمه، وأعـاده إلى منصبه ومرتبته، وقـرر قواعده، وشاهد البلاد وعـرف أحوالها، وعلى أنها بلاد بغير رجـال، تمشي الأمور فيها بمجـرد الإيهام والمحال، وكـان ابتداء رحيله عنها، متـوجهاً إلى الشام في السابـع من ذي الحجة، فأقـام بالشام مدبـراً لأمره، مفكـراً في كيفية رجـوعه إلى البـلاد المصرية، محدّثـا بذلـك نفسه، مقرراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين.

قلت: ولفعـل شاور مـا فعل مع أسـد الدين وصفـه الشعراء بـالغدر، ووقعـوا فيه قبـل قتله وبعـده على ما سنـذكره، وبقـي متخوفـا من أسـد الدين، فقال عرقلة الكلبي من جملة قصيدة له:
وهـــل هـــمّ يـــومـــا شيركـــوه بجلـــق
إلى الصيـــد إلاّ ارتـــاع في مصر شـــاور
هـــو الملـــك المنصـــور والاســـد الـــذي
شـــذا ذكـــره في الشرق والغـــرب ســـائر

وفيها في ذي الحجة احترقت جيرون بعد رجوع أسد الدين إلى دمشق، فقال العرقلة يمدحه ويذكر ذلك:

جـــــار صرف الـــــردى على جيرون
وسقـــــى أهلهــــا كــــؤوس المنـــون
أصبحـــــت جنـــــة وامســـــت جحيما
تتلظـــى بكـــــل قلـــب حـــزيـــن
كيـــف لا تـــذرف الـــدمـــوع عليهـــا
وهـــي في الشـــام نـــزهـــة للعيـــون
حبـــذا حصنهـــا الحصين لقـــد كـــا
ن جمالا لكـــــــل حصــــــن حصين
أي سيـــــف سطـــا على دار سيـــــف
وزبـــون أتـــى بحـــرب زبـــون
خلـــــت نيرانها وكـــــل ظـــــلام
نـــــار ليلى تلـــــوح للمجنـــــون
كـــم غنـــي اليمين أمســـى فقيرا
وفقير أمســـــى غنـــــي اليمين
كـــل حين لها حـــريـــق جـــديـــد
ليـــت شعـــري مـــا ذا لها بعـــد حين
كـــل هـــذا البـــلاء عـــاقبـــة الفســـ
ـــق وشرب الخمـــــور والتلحين
ولقـــــد ردّهـــــا بعـــــزم وحـــــزم
أســـد الـــديـــن غـــايـــة المسكين
وحمى الجامـــــع المقـــــدس والمشـــ
ـــهد مـــــن جمرهـــــا بماء معين
ملـــــك فعلـــــه بـــــدلجة والبـــــا
ب فعـــــال الامـــــام في صفين

فصل

في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ، يعني تسع وخمسين ، اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج ،وقصدهم واجتمعوا على حارم، فضرب معهم المصاف فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم وقتلهم، ووقع في الاسار برنس أنطاكية وقومص طرابلس، وابن لجوسلين، ودوك الروم، وذلك في رمضان(٩٥).

وقال في الخريدة: كانت نوبة البقعية نوبة عظيمة على المسلمين، وأفلت نور الدين في أقل من عشرة من عسكره، ثم كسر الفرنج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقتل في معركة واحدة منهم عشرين ألفا، وأسر من نجا، وأخذ القومص والابرنس والدوقس وجميع ملوكهم، وكان منحا عظيما وفتحا مبينا.

قال ابن الأثير: والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزما على ما سبق من غزوة ناحية حصن الأكراد، أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدوّ في عقر داره، وليرتق ذلك الفتق ويمحو سمة الوهن ويعيد رونق الملك، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين، وغيرهم من أصحاب الأطراف، أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجدا وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة، فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك، وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة ، فقال له أولئك: ما

عدا مما بدا فارقناك بالأمس على حال، ونرى الآن ضدّها ؟ فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقا إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، واخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر والنهب، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضا، وسار إلى نور الدين بنفسه، وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا ومقدّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين ، وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها والدوك، وهو رئيس الروم ومقدّمها ، وجمعوا معهم من الراجل ما لايقع عليه الإحصاء قد ملأوا الارض وحجبوا بقسطلهم السماء، فحرض نور الدين أصحابه، وفرّق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرتاح ، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم، وهو في الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغم، ثم تيقنوا أنهم لاطاقة لهم بقتاله، ولاقدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين، فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة ، وكانت على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب وفخر الدين، ، فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار، وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفرة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف ، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلا يلجؤون.

إليه، ويعـود المنهزمون في اثـارهم، وتأخذهـم سيوف اللّه مـن بين أيديهم ومن خلفهـم، فكان الأمر على مـا دبروا، فـإن الفرنج لما تبعـوا المنهزمين، عطف زين الـدين في عسكر الموصل على راجلهم، فأفنـاهم قتلا وأسراً، وعادت خيـالتهم ولم يمعنوا في الطلب خـوفاً على راجلهم، مـن العطب، فصادفـوا راجلهم على الصعيـد معفرين وبـدمائهـم مضرجين، فسقط في أيديهم ورأوا أنهم قـد ضلوا، وخضعت رقـابهم وذلوا، فلما رجعـوا عطف المنهـزمـون أعنتهم وعـادوا، فبقـي العـدوّ في الـوسط، وقـد أحـدق بهم المسلمون من كل جانـب ، فحينئذ حمي الوطيس، وباشر الحرب المرؤوس والرئيس ، وقاتلوا الفـرنج قتال من يرجو باقدامـه النجاة، وحاربوا حرب مـن أيس مـن الحياة، وانقضـت العساكـر الإسلاميـة، عليهم انقضـاض الصقور على بغاث الطيور، فمـزقوهم بدداً وجعلوهم قدداً فـألقى الفرنج بأيـديهم إلى الاسار، وعجـزوا عن الهزيمـة والفرار، وأكثـر المسلمون فيهـم القتـل، وزادت عـدة القتلى على عشرة آلاف، وأمـا الاسرى فلـم يحصـوا كثرة، ويكفيك دليـلا على كثرتهم أن ملوكهم أسروا، وهم الذيـن من قبل ذكروا.

وسار نور الـدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكهـا في الحادي والعشرين مـن شهر رمضـان، وأشار أصحـابه عليـه بالمسير إلى أنطـاكية، ليملكهـا لخلوهـا ممن يحميها ويـدفع عنها، فلـم يفعل ، وقال: أمـا المدينة فأمـرها سهل وأمـا القلعة التـي لها فهي منيعـة، لاتؤخـذ إلاّ بعد طـول حصار، وإذا ضيقنـا عليهـم أرسلوا إلى صـاحـب القسطنطينيـة وسلموهـا إليـه، ومجاورة بيمنـد أحب إليّ مـن مجاورة ملـك الـروم،وبث سرايـاه في تلـك الاعمال والولايـات فنهبوا وسبـوا ، وأوغلوا في البلاد حتـى بلغوا الـلاذقية والسويدا وغير ذلك ، وعادوا سالمين.

ثم إن نور الديـن أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جـزيل أخذه منه وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم.

وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفا.

قال: ووقع بيمند في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه اللّه لما التقى الجمعان أو قبيله إنفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل ، ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يارب هؤلاء عبيدك، وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك فانصر أولياءك على أعدائك، ايش فضول محمود في الوسط،يشير إلى أنك يارب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر، وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك، ولاتنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى ينصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم اللّه به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شيركوه، كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

- ٧٨٧٢ -

فصل

في ذكر وزير الموصل جمال الدين الجواد الممدح ووفاته في هذه السنة رحمه الله

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنفاته، وأثنى عليه ثناء عظيما حسنا،فمما ذكرله في كتابه الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة في أخبار الوزراء السلجوقية، أن قال: ذكر جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور، كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي، وهو صاحب الوزير شمس الملك بن نظام الملك، وكان أبوه أبو منصور فهادا في عهد السلطان ملكشاه بن الب أرسلان، وابنه الكامل أديب لبيب وزادت أيامه في السمو وأيامنه في النموّ، حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء وقد كان زوج بنتا له ببعض أولاد أخوال العزيز، يعني عم العماد الكاتب.

قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله على ولده جمال الدين أبي جعفر محمد، وخرجه في الادب، ودرّجه في الرتب، فأوّل مارتبه في ديوان العرض السلطاني المحمودي، وغلب في تحليته ذكر الأبلج، فنعته الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج، واتفق أنه لما تولى زنكي بن آق سنقر الشام تزوّج بامرأة الأمير كيدغدي وولدها خاص بك بن كيذ غدي من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها فرتبه العزيز لخاصبك وزيرا، فسار في الصحبة وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الحشاشة، بهي البشاشة، فتوفرت منى زنكي على منادمته، وقصر صباحه ومساءه على مساهمته، وعوّل عليه آخر عمره في إشراق ديوانه، وزاد المال وزان الحال، بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زنكي جود، ولاعرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يحصل له إلى خزانة زنكي استبقاء لجاهه، واستعلاء به

على أشباهه، فمكنه زنكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرّ باساءته ومنهم من انتفع بإحسانه، ولما قتل زنكي صار للدولة الاتابكية ملاذا، وللبيت الأقسنقري معاذا، واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته، وجرى بين جمال الدين وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي، التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة الموصل واستولى فعاش بنداه الجواد، وغشا إلى ناديه الوفود، وعادت به الموصل قبلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعمر الحرمين الشريفين، وشمل بالبر أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، و أجرى بحر السماح، ونادى حي على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظ الفصاح، وأتوا إليه من كل فج عميق، وقصد من كل بلد سحيق، فقصده العظماء، ومدحه الشعراء، وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد الصفي المعروف بحيص بيص، قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أوّلها:

يا للصوارم والرماح الذبل
نصراً ومن أنجد تما لم يخذل

لوشتها ومشيئة بمشيئة
جاد الزمان وبالعلى لم يبخل

فأقنى فخارك يا مجاشع واعلمي
أني لكم من همتي في جحفل

أنا فارس اليومين يوم مقالة
ووغى أصول بصارمي وبمقولي

ظلمت فضائلي المقاول مثل ما
ظلمت جمال الدين مأوى العيل

مدحوه كي يحووا مناقب نفسه
فطمت فسالت بالمدائح من عل

فأتيت ابذل ما استطعت ومن يرد
نقل الخضم إلى المزادة يخجل

شمس من الاحسان عم ضياؤها
بل آية جاءت بحجة مرسل
يعطي الجزيل لسائلي معروفه
ويجود بالنعمى إذا لم يسئل
وتزيده شوس الخطوب طلاقة
فيكون أبسم ما يرى في المعضل
ثقلت به الأعناق من منن الندى
فالهام مطرقة لذاك المثقل
فإذا تلاقى الناس كان حديثهم
عن كل جفن بالخجالة مسدل
أسراء معروف الوزير فكلهم
عاف تراه مطلقا كمكبل
من سمرقند إلى تهامة شاهد
فضل الجمال على الحيا المتهلل
السحب تمطر ما تظل وجوده
يسري ودار مقامه بالموصل
وتقرّ عين محمد بمحمد
محيي دريسي علمه والمنزل
معمار مرقده وحافظ دينه
ومعين أمته بجود مسبل
جعل المدينة مصر ربعا آهلا
نشوان يمرح بالنعيم المحصل
فكأنها بالخصب من قرباته
بلد على شط الفرات السلسل
فلو أنه في عصره نزلت له
في مدحه سور الكتاب المنزل
عبد أخ في ضيفه ووداده
لا يستحيل وسيد في المحفل

خـــــرّق نيـــــاط قميصـــــه ورداؤه
بعبـــاب زخـــار وهضبـــة يـــذبـــل

قـال العماد: وكنـت أنـا في ذلـك العهـد متفقهـا في بغـداد، واتفـق حضـوري بـالموصل، سنـة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فحضرت عنـد جمال الديـن بالجامع في جمعتين، وتكلمت عنـده مع الفقهاء في مسـألتين، ومما مدحته به قصيدة أوّلها:

أظنهـــم وقـــد عـــزمـــوا ارتحالا
ثنـــــوا عنـــــا جمالا لا جمالا
سروا والصبـــح مبيـــــض الحواشي
فلما حـــال عهـــد الـــوصـــل حـــالا
هـــم اعتـــادوا الملال فكيـــف ملـــوا
وصـــالهم ومـــا ملـــوا الملالا
أحـــادي عيسهـــم بـــاللّـــه رفقـــا
فـــإن السير أورثهـــا الكـــلالا
وعـــج نحـــو الأراك بها فـــإني
أراه لاجتماع الشمـــل فـــالا
سقـــى صـــوب الحيـــا تلعـــات نجـــد
وحيـــا بـــالحمـــى تلـــك التـــلالا
أخـــلائي وهـــل في النـــاس خـــل
بـــه أخلـــو مـــن الأحـــزان بـــالا
لئـــن لم أشـــف صـــدري مـــن حسـودي
ولم أذق العـــدى داء عضـــالا
فـــلا أدركـــت مـــن أدبي مـــرادا
ولا صـــادفـــت مـــن حسبـــي منـــالا
ولا وخـــدت إليكـــم بي جمال
ولا واليـــت مـــولانـــا الجمالا
هـــو المغنـــي إذا مـــا المرء أقـــوى
هـــو المنجـــي إذا مـــا الخطـــب هـــالا

وقـــائلـــة أفي الـــدنيـــا كـــريـــم
ســـــواه فقلـــــت: لا وأبي العـــــلالا
أطلـــت على الـــورى كـــرمـــاً وفخـــراً
كـــذلـــك مـــن حـــوى هـــذيـــن طـــالا
وخـــرت المجـــد عـــن كســـب وارث
فيـــاصـــدر الـــورى خـــرت الكمالا
خصصـــت بكـــل منقبـــة وفضـــل
تعـــالى مـــن حبـــاك بـــه تعـــالى

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه منهم العرقلة له قصيدة منها:
يهوى تجنيـــه والصـــدور كما
يهوى المعـــالي محمـــد بـــن علي
جمال ديـــن الإلـــه خير فتـــى
للـــرزق أقـــلامـــه وللـــأجـــل
معطـــي القـــرى والقـــرى لقـــاصـــده
مـــن غير مـــنّ والخيـــل والخول
مثـــل فتـــوح الفـــاروق نـــائلـــه
شرقـــاوغـــربـــافي السهـــل والجبـــل
مـــن قـــال لم يحوذا ويسكـــن ذا
أصبـــح ممـــا يقـــول في خجـــل
محمـــد خـــاتـــم الكـــرام كما
سميـــه كـــان خـــاتـــم الـــرســـل

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدة:
كســـى الحرمين لبســـة عبـــد شمـــس
وهـــاشـــم غـــرّتي نســـل الخليـــل
وللبلـــد الأمين أجـــدّ أمنـــا
تكنـــف مثلـــه جـــدث الـــرســـول

عشيتم يا ولاة الأمر عما
أتيح له من الأثر الجميل
وطار لها وأشفقتم فشد الـ
ـسيدين على عرى المجد الأثيل
بيوت بالحجاز مقدّسات
رماها الدهر بالخطب الجليل
وكان إذا الهنّ فصاب صونا
لمن آوته من ولد البتول
مآثر باقيات يوم يجنى الـ
ـمقال ويجتنى طيب المقيل
وكم للموصل الحدباء مما
تنيل يداه من ريف ونيل
برود الصفح ملتهب الحواشي
مهيب البطش فراس الدخول

ولأبي المجد قسيم الحموي فيه من قصيدة:
أغر يبصر منه الناس في رجل
والليث في بشر والبدر في غصن
سما بهمته في المكرمات إلى
علياء يقصر عنها همة الزمن
يلقاك واضح ليل الفكر راجح نيـ
ـل الكف طاهر ذيل السر والعلن
ماضي العزيمة ميمون النقيبة ريـ
ـبال الكتيبة عين القائل اللسن
إذا تكلم واستحليت غرته
في محفل رحت حالي العين والأذن
كأن في الدست منه حين تنظره
شمس النهار وصوب العارض الهتن

قال ابن الاثير: وفيها في شعبان من هذه السنة وهي سنة تسع

وخمسين وخمسمائة توفي الـوزير جمال الديـن محمد بن علي بـن أبي منصور الأصفهاني، كان قد خدم الشهيد فـولاه نصيبين، وظهرت كفايته فأضاف إليه الـرحبة، فأبـان عن كفايـة وعفة، وكـان من خواصـه، فجعله مشرف مملكته كلها، وحكمه تحكيما لامزيد عليه حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضيـاء الدين بـن الكفرتوثـي يحكي عـن جمال الدين قـال: كان يدخل إلى أتـابك قبلي، ويخرج بعدي،ولم يزل كذلـك إلى أن قتل الشهيد، ثم وزر لولـدي الشهيد سيف الديـن، ثم قطب الديـن، وكان بينه وبين زين الـدين علي كـوجك عهـود ومواثيـق على المصافـاة والاتفاق، وكـان أصحاب زيـن الديـن يكرهونـه، ويقعون فيـه عند زين الـدين فنهـاهم، وكانت الموصل في أيـامه ملجأ لكل ملهوف، ومأمنـا لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الـدين حتى أوغروا صدره عليه، وقالوا لـه: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها، فلم يمكنه أن يغير عليه شيئا بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع عليـه زين الدين من غيره عن مصافاتـه ومواخاته، فقبض عليه قطب الدين وأصحابه كـانوا يخافون جمال الدين، فلما قبض تبسطوا في الأمر والنهـي، على خلاف غـرض زين الديـن، فبقي جمال الـدين في الحبـس نحواً مـن سنة، ثـم مرض ومضـى لسبيله عظيـم القدر والخطـر، كريم الـورد والصدر، عديم النظير في سعة نفـس، لم يرو في كتب الأوّلين أن أحدا مـن الوزراء اتسعـت نفسه، ومروءتـه لما اتسعت لـه نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة، كامل المروّة.

قال ابن الأثير : حكى لي جماعة عن الشيـخ أبي القاسم الصوفي، وهو رجل من الصالحين، كان يتولى خدمـة جمال الدين في محبسه، قال: لم يزل الجمال مشغـولا بأمـر آخرتـه مدّة حبسـه، وكان يقـول: كنت أخشـى أن أنقل مـن الدست إلى القبر، قال: فلما مـرض قال لي بعض الأيام: يـا أبا القـاسم إذا جـاء طـائر أبيض إلى الـدار فعـرفنـي، فقلت في نفسي: قـد اختلط الرجـل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلـك الطائر وإذا طائر أبيض لم ير مثلـه قد سقط، فقلت لـه: قد جاء الطائر، فـاستبشر، ثم قال،

جـاء الحق، وأقبل على الشهـادة، وذكر اللّـه تعالى، وتـوفي فلما توفي طـار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئـا في معناه، ودفن في الموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسـم: إن بيني وبين أسد الدين شيركوه عهداً من مات منا قبل صاحبـه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضـل الصلاة والسـلام فدفنـه بها في التربة التـي عملها، فـإن أنا مـت فامـض إليه وذكره، فلما تـوفي سار الشيخ أبو القـاسم إلى أسد الـدين في هذا المعنـى، فأعطـاه مالاً صـالحاً ليحمله بـه إلى مكة والمدينـة، وأمر أن يحج معـه جماعة مـن الصوفيـة، ومـن يقرأ بين يـدي تـابوتـه عند النـزول والرحيل، وقدوم مـدينة تكون في الطريق، وينادون في البـلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يصلى عليه في كـل مدينة خلق كثير، فلما كان في الحلة اجتمع النـاس للصلاة عليه، فإذا شـاب قد ارتفع إلى موضـع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشـــه فــــوق الـــرقـــاب وطـــالما
سرى بـــره فـــوق الـــركـــاب ونـــائلـــه
يمـــرّ على الــــوادي فتثنـــي رمـــالـــه
عليـــه وفي النــــادي فتبكـــي أراملـــه

فلم يـر باكيا أكثـر من ذلك اليـوم ، ثم وصلوا بـه إلى مكة فطافـوا به حـول الكعبة وصلـوا عليـه بالحرم،وحملـوه إلى المدينـةفصلـوا عليه أيضـا ودفنـوه بالـرباط الـذي أنشـأه بها، وبينه وبين قبر النبـي صلى الله عليـه وسلم خمس عشرة ذ راعا.

قلـت: كـذا قـال ابن الاثير، ولقـد رأيـت المكـان، ولعلـه أراد الحائط الشرقي مـن مسجد النبي صلى اللـه عليه وسلم، لانفـس القبر الشريف زاده اللّه شرفا وصلى على ساكنه.

ثـم قال: كـان جمال الديـن رحمه الله أسخـى الناس وأكثـرهم عطـاء وبـذلا للمال، رحيما بالنـاس ومتعطفـا عليهم عـادلاً فيهـم، فمن أعمالـه

الحسنة أنـه جدد بنـاء مسجد الخيـف بمنى، وغـرم عليه أمـوالا عظيمة، وبنى الحجر بجـانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثـم غير وبني غيره سنة ست وسبعين وخمسمائة، وزخـرف الكعبة بالذهـب والنقرة، فكل مـا فيها من ذلك فهو عمله إلى سنـة تسع وستمائة، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر اللّه هدية جليلـة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى ابن هاشم خلعـاً سنية وهدية كثيرة حتى مكنه منـه، وعمر أيضا المسجد الـذي على جبل عـرفات، وعمـل الدرج الـذي يصعد فيهـا إليه، وكـان الناس يلقـون شدة في صعودهـم، وعمل بعـرفات مصانـع للماء، وأجرى الماء إليها مـن نعمان في طريق معمولـة تحت الجبل مبنية بالكلـس ، فغرم على ذلك مـالاً كثيراً، وكان يعطي أهـل نعمان كل سنة مـالا كثيرا ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعـرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

قال: ومـن أعظم الأعمال التي عملهـا نفعا أنـه بنى سورا على مـدينة النبـي صلى اللّه عليـه وسلم ، فـإنها كـانت بغير سـور ينهبها الأعـراب، وكان أهلهـا في ضنك وضر معهم، رأيت بـالمدينة إنسانـا يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا لـه ، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل مـن بالمدينـة أن يدعـو له، لأننـا كنا في ضر وضيـق ونكد عيش مـع العرب، لايتركـون لأحد منـا ما يـواريه ويشبـع جوعتـه، فبنى علينا سورا احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا فكيف لاندعوله.

قال: وكـان الخطيب في المدينة يقول في خطبتـه: اللهم صن حـرم من صان حرم نبيـك بالسور محمد بـن علي بن أبي منصور، قال: فلـو لم يكن له إلاّ هذه المكرمـة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانـت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها.

وسمعت عن متولي ديوان صدقـاته التي يخرجها على باب داره للفقراء

سـوى الإدرارات والتعهدات قـال: كـان له كـل يـوم مـائة دينار أميريـة يتصدّق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم يـر الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلـة عنـد جزيـرة ابـن عمـر بـالحجـر المنحوت والحديـد والـرصـاص والكلس، إلاّ أنـه لم يفرغ لأنـه قبض قبل فـراغه، وبنـى أيضا جسرا على نهر البـاريـا عند الجزيـرة أيضا، وبنـى الربـط بالموصـل وسنجار ونصيبين وغيرهـا، وقصـده النـاس مـن أقطار الأرض، ويكفيـه أن صـدر الـديـن الخجنـدي رئيس أصحـاب الشـافعي رضي اللّـه عنـه بـأصبهان ، وابـن الكافي قـاضي قضاة همذان قصداه، فـأخرج عليهما مـالاً جزيلا وكـذلك غيرهما مـن الصدور والعلماء ومشـايـخ الصـوفية ، وصـارت الموصـل في أيـامـه مقصـداً وملجـأ، وكـان أحـب الاشيـاء إليــه إخـراج المال مـن الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدق.

حكـى لي والدي قـال: كنت يـوما عنـده وقد أحضر بين يـديه قنـدز ليعمل على وبـر ليلبسه بخمسة دنـانير، فقال: هـذا الثمن كثير اشتروا لي قندز بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة، فلم يفعل.

قـال: وحكـى لي من اثـق إليـه مـن العـدول بالموصـل: أن الأقـوات تعذرت في بعـض السنين بها، وغلت الأسعـار، وكان بـالموصل رجـل من الصالحين يقال له الشيخ عمر الملاء فـأحضره جمال الدين وسلم إليه مالا وقال لـه:تخرج هذا على مستحقيه، وكلما فـرغ أرسل إلي لأنفـذ غيره، فلم يمض إلاّ أيـام يسيرة حتى فـرغ ذلك المال لكثـرة المحتاجين، فـأنفذ لـه شيئا آخـر ففني، ثم أرسـل يطلب ما يخرجه فقـال جمال الدين للـرسول: واللّـه ما عنـدي شيء ولكـن خذ هـذه المحـافير التـي في داري فبيعوهـا وتصدّقوا بثمنهـا إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيـخ عمر، فبيعت المحافير وتصدقـوا بثمنها، وعرّفوه ذلك فلـم يكن عنده ما يرسلـه فأعطاه

ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع وقال للرسول: قل للشيخ لايمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

قال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائي شيخ الشيوخ بالموصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فأحفظه إلى أن أحضر عندك ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمالين يحملون أحمالا من النصافي والخام، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثيرة من الجمال فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرحبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا احضر لك فلانا العربي ، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب وهكذا إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قال: فسرنا كذلك إلى وادي القرى فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة أصع بدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه، قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئا وتردّد إليه عدة أيام، ثم انقطع فسأل عنه فقيل إنه سافر فشق ذلك عليه، ثم قال: هكذا ينصرف الأحرار عن دور الكلاب ، وردّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه.فقيل إنه سار نحو ماردين ، فأرسل إليه خلعة ونفقة إلى ماردين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لاتحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها.

وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب الإعتبار فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة، وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في الموصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نينوى، وأتابك قد ركب إلى الميدان وينفذ إليّ يقول: أركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوما منه خلوة من أصحابي فقلت له: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا اشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة، وقد خلونا الساعة، قال: قل ، قلت :أقول ما قاله الشريف الرضي:

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد
ما لم يصبك بمكروه من العذل
مودّتي لك تأبى أن تسامحني
بأن أراك على شيء من الزلل (٩٦)

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولاتصبر نفوسهم عليه، ولو أن الانسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة، وقال: جزاك اللّه خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه،ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشاتاني في هذا الوزير الجواد لما نكب:

مــا حــط قــدرك مــن أوج العلى القــدر
كــلا ولا غيرت أفعــالــك الغير

أنــت الــذي عــم أهــل الأرض نــائلــه
ولم ينــل شــأوه في ســؤدد بشر

ســارت صفــاتــك في الآفــاق واتضحــت
وصــدّق السمــع عنهــا مــا رأى البصر

فــاصبر لصرف زمــان قــد منيــت بــه
فــآخــر الصبر يــاطــود النهــى الظفــر

فما تــرى أحــدا في الخلــق يسلــم مــن
صروف دهــر لــه في أهلــه غير

سعــوا بقصــدك سرا واستتــب لهم
ولــو سعــوا نحــوه جهــراً لما قــدروا

لــولا الأمــاني التــي تحيــى النفــوس بها
لمت مــن لــوعــة في القلــب تستعــر

ومنها في ذكر الشيخ عمر الملاء:

وأصــدق النــاس في حفــظ العهــود إذا
ميــزت بــالفكــر أحــوال الــورى عمــر

الــزاهــد العــابــد البرّ التقــي ومــن
يــزوره ويقــوّي أزره الخضر

وقال العرقلة يرثي جمال الدين الوزير والصالح بن رزيك:

لا خير في الــدنيــا ولا أهلهــا
بعــد جمال الــديــن والصــالــح

بحــران لــولا دمــع بــاكيهما
مــا كــان مــاء البحــر بــالمالــح

قال ابنِ الأثير: قال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها والمحاقة فيها ما

يـدل على تمكنه مـن الكفايـة ، فلما وصل الأمـر إلى الملك قطـب الديـن مودود بن أتابك الشهيد وجمال الدين وزيـره حينئذ،وقد تمكن زين الدين علي بن بكتكين في الـدولة تمكنا عظيما ، وتقدم عنـد قطب الديـن جماعة من أصحابه فكان جمال الدين مـع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور ، قال: فقلـت له يـوما:أيـن تلك الكفـاية التـي كنا نـراها منـك في الأيام الشهيـدية، مـا أرى الآن منها شيئـا؟ فقـال لي: والآن ما عنـدي كفايـة؟ فقلـت: ما هـذا العمل مـن ذلك بشيء، فقـال: أنت صبـي غرّ ليسـت الكفـاية عبـارة عـن فعـل واحد في كـل زمـان، إنما الكفـاية أن يسلـك الانسان في كـل زمان ما يناسبـه ، ذلك الوقـت كان لنا صاحـب متمكن قـوي العـزم لايتجـاسر أحـد على الاعتراض عليــه، ولا يتلـوّن بـأقـوال أصحابـه، فحفظناه فكان مـا أفعله هو الكفـاية ، وأما الآن فلنـا سلطان غير متمكن ، وهو محكوم عليه، فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

قال ابن الأثير : فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم، وأذن لعسكر الموصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس، لعلمه بقلة من فيها من الحماة، المانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها، وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران، فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لوكشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى، وجدّ في حصارها، وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا فلم تتكامل عدّتهم حتى فتحه اللّه تعالى، على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعدّة ورجالا عدّة، وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده في شعراء بانياس وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع، فعادوا إليه فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشاميين وأظنه، أحمد بن منير من جملة قصيدة يمدحه بها ويهنيه بهذه الغزاة وعود الفص الياقوت:

إن يمتر الشكاك فيك فإنك الـ ... ـمهدي مطفي جمرة الدجال
فلعودة الجبل الذي أضللته ... بالامس بين غياطل وجبال
مسترجعا لك بالسعادة آية ... ردت مطال الفال غير مطال
لم يعطها إلا سليمان وقد ... نلت الوفاء بموشك الاعجال

زجـــرجـــرى لسريـــر ملكـــك إنـــه
كسريـــره عـــن كـــل جـــدر عـــال
فلـــو البحـــار السبعـــة استهـــوينـــه
وأمـــــرتهنّ قـــــذفنـــــه في الحال

قلت: هذه الابيات لابن منير بلاشك، ولكن في غير هذه الغزاة، فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين، وفتح بانياس كما تراه في سنة ستين، وقد قرأت في ديوان ابن منير وقال: يمدحه ، يعني نور الدين ويهنيه بالعود من غزاة وضياع فص ياقوت جبل من يده، لاشتغاله بالصيد، شراه ألف ومائة دينار، وفي نسخة : ووجد أن خاتم ضاع منه في الصيد قيمته ألف ومائة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص فذكر القصيدة أوّلها :(يوماك يوم ندى ويوم نزال)

يقول فيها:
أخـــرســـت شقشقـــة الضـــلال وقـــدتـــه
قـــود الـــذلـــول أطـــاع بعـــد صيـــال
ورميـــــــت دار المشركين بصيلـــــــم
القحـــت فيهـــا الحرب بعـــد حيـــال
وسعـــرت بين تـــريبهـــم وتـــرابهم
ذعـــرا يشيـــب نـــواصي الاطفـــال
فـــوق الخطيـــم وقـــد خطمـــت زعيمهـــم
ضربـــا ســـوابقـــه بغير تـــوالي
ضربـــا مـــلأت فـــرنجـــة مـــن جـــرّه
رهبـــاً بـــه سيـــف الصقـــالـــب صـــالي
وبفـــج حـــارم أحـــرمـــت لقـــراعهـــم
هيـــم أحلـــن النـــوم غير حـــلال
عجمـــوا على جسر الحديـــد حـــديـــدهـــا
نبعـــا يعـــاذمـــه أديـــر دصـــال

زلـــزلــت أرضهـــم بـــوقـــع صـــواعـــق
أعطيتنـــا أمنـــا مـــن الـــزلـــزال
في مـــأزق شمـــرت ذيلـــك تحتـــه
والنصر فـــوقـــك مسبـــل الاذيـــال
في دولـــة غـــراء محمـــوديـــة
سحبـــت رداء الحمـــد غير مـــذال
تنسي الفتـــوح وتجتنـــي
زهـــر المقـــال ببـــاهـــر الأفعـــال
لبســت بنـــور الـــديـــن نـــور حـــدائق
ثمـــراتهن غـــرائب الافضـــال
ملـــك تحجـــب في السريـــر بـــزأرة
زرّت حـــواشيهـــا على ريبـــال
تنجـــاب عـــن ذي لبـــدتين شـــذاتـــه
في بـــردتي بـــدل مـــن الأبـــدال
رفـــع الـــرواق بـــروق أنطـــاكيـــة
فـــرمـــى الخليـــج بمـــرهـــق البلبـــال
بـــدر لأربـــع عشرة أقتبـــس السنـــا
مـــن خمس عشرة ســـورة الأنفـــال
فـــوز المآل أخـــاضـــه مـــاء الطلى
وســـواه يقعـــده احتيـــاز المال
متقســـم بين القسيمين العلى
عـــن عـــمّ عـــم أو مخايـــل خـــال
لازلـــت تطلـــع مـــن ثنـــايـــا جحفـــل
يقفـــو لـــواءك كـــاللـــوى المنهـــال
لـــك أن تطـــل على الكـــواكـــب راقيـــا
ولحاســـديـــك بكـــا على الأطـــلال

ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتم عظيم

القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة ، فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى إلى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه، ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعدّ ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الأفرنج قائما على رأسه فالتفت إليه وقال له : للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

وفيها توفي وزير بغداد عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، من بني ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن الحصن، وكان عالما دينا مدبراً، حنبلي المذهب وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده ، وله عدّة مصنفات منها الافصاح في شرح الأحاديث الصحاح، وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة، ثم توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث عشر جمادى الأوّل سنة ستين وخمسمائة، ورؤيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء، ومولده في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وأربعمائة بقرية من أعمال دجيل تعرف بالدور، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق، وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره، ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: واجتهد أن تستر العصاة فإن ظهور معاصيهم عيب في الاسلام، وأولى الأمور ستر العيوب.

- ٧٨٩٠ -

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

ففيها توفي فتح الدين بن أسد شيركوه، أخو ناصر الدين وقبره بالمقبرة النجمية إلى جانب قبر ابن عمه شاهنشاه بن أيوب في قبة فيها أربع قبور هما الأوسطان منها، وفي هذين الأخوين ناصر الدين وفتح الدين يقول العرقلة حسان:

للّه شبلا أسد خادر … ما فيهما جبن ولا شح

ما أقبلا إلاّ وقال الورى … قد جاء نصر اللّه والفتح

وفيها سار نور الدين أيضا إلى حصن المنيطرة، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولاجمع عساكره إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا ، فانتهز الفرصة وسار إلى المنيطرة وحصرها، وجدّ في قتالها وأخذها عنوة وقهرا، وقتل من بها وسبى، وغنم غنيمة كثيرة لأمن من به فأخذتهم خيل الله (بغتة وهم لايشعرون[٩٧])، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلاّ وقد ملكه، ولو علموا أنه جرد جريدة لأسرعوا ، وإنما ظنوا أن نورالدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرّقوا وايسوا منه، وهذا قول ابن الأثير.

وذكر القاضي ابن شداد أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين ، كما سيأتي والله أعلم.

وفيها توفي الجليس بن الحباب بمصر

قال العماد في الخريدة: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن

الحسين بن الحباب الأغلبي السعدي التميمي، جليس صاحب مصر، وفضله مشهور، وشعره مأثور، وكان أوحد عصره في مصره نظما ونثرا وترسلا وشعرا، ومات بها في سنة إحدى وستين وقد أناف على السبعين ، وأنشدني له الأمير نجم الدين بن مصال من قصيدة يقول فيها:

ومن عجب أن السيوف لديهم
تحيض دماء والسيوف ذكور
واعجب من ذا أنها في أكفهم
تأجج ناراً والاكف بحور

قال: وأنشدني له الشريف ادريس الادريسي قصيدة سيرها إلى الصالح رزيك قبل وزارته يحرضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتله وقتل أخوته يوسف وجبريل يقول فيها:

أصادفهم قولا وغيبا ومشهدا
نحوهم على عمد بفعل أعادي
فأين بنو رزيك عنها ونصرهم
وما لهم من منعة وذياد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم
ومصرعهم لم تكتحل برقاد
فمزق جموع المارقين فانها
بقايا زروع أذنت بحصاد

وله فيه من أخرى في هذه الحادثة:

ولما ترامى البربري بجهله
إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمتك التي
بأمثالها تلقى الخطوب العظائم
أعدت إليهم ملكهم بعد ما لوى
به غاصب حق الامامة ظالم

وأنفذ إليه في المعنى يقول:

أعـــدت إلى جســـم الـــوزارة روحهـــا
ومـــا كـــان يـــرجـــى بعثهـــا ونشـــورهـــا

أقـــامـــت زمـــانـــا عنـــد غيرك طـــامثـــا
فهـــذا الأوان قـــرؤهـــا وطهـــورهـــا

مـــن العـــدل أن يحظـــى بها مستحقهـــا
ويخلعهـــا مـــردودة مستعيرهـــا

إذا ملـــك الحسنـــاء مـــن ليـــس كفـــؤهـــا
أشـــار عليـــه بـــالطـــلاق مشيرهـــا

وله يشكو طبيبا:

وأصـــل بليتـــي مـــن قـــد غـــزاني
مـــن السقـــم الملـــح بعسكـــريـــن

طبيـــب طبـــه كغـــراب بين
يفـــرق بين عـــافيتـــي وبينـــي

أتـــى الحمـــى وقـــد شـــاخـــت وبـــاخـــت
فـــردّ لها الشبـــاب بنسختين

ودبـــرهـــا بتـــدبير لطيـــف
حكـــاه عـــن سنـــان أو حنين

وكـــانـــت نـــوبـــة في كـــل يـــوم
فصيرهـــا بحـــذق نـــوبتين (٩٨)

قلت: الأبيات الرائية تمثل بها الجليس وهي لصردر قرأتها في ديوانه، وهي من قصيدة يمدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جهير ويهنيه بعوده إلى الوزارة وأوّل القصيدة:

لحاجـــة قلـــب مـــا يفيـــق غـــرورهـــا
وحـــاجـــة نفـــس ليـــس يقضـــى يسيرهـــا

وهي طويلة يقول في غزلها:

وقفنـــا صفـــوفـــا في الــــديــــار كـــأنها
صحـــائف ملقـــاة ونحـــن سطـــورهـــا
يقـــول خليلي والظبــــاء ســــوانـــح
أهـــذي التـــي تهوى فقلـــت نظيرهـــا
وقـــد قلتها لي ليــــس في الأرض جنـــة
أمـــا هـــذه فـــوق الــــركـــائب حـــورهـــا
أراك الحمـــى قـــل لي بـــأي وسيلـــة
وصلـــت إلى أن صـــادفتـــك ثغـــورهـــا
ومـــالي بها علـــم فهـــل أنـــت عـــالم
أأفـــواههـــا أولى بها أم نحـــورهـــا
على رسلكـــم في الهجـــر إنـــا عصـــابـــة
إذا ظفـــرت في الحب عـــف ضميرهـــا

ويقول في مديحها:

فقـــل لليـــالي كيـــف شئـــت تقلبـــي
ففـــي يـــد عبـــل الســـاعـــديـــن أمـــورهـــا
أمـــاني في نفـــس الــــوزارة بلغـــت
بـــه كنههـــا حتـــى استحقـــت نـــذورهـــا
لـــوت وجههـــا عـــن كـــل طـــالـــب متعـــة
إلى خـــاطـــب حـــل عليـــه سفـــورهـــا
إذا مثـــل الأقـــوام دون عـــرينـــه
تســـاوى بـــه ذو طيشهـــا ووقـــورهـــا
تكـــاد لما قـــد ألبســـت مـــن سكينـــة
تـــرف على تلـــك الـــرؤوس طيـــورهـــا

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لايزال يحدّث نفسه بقصدها ومعاودتها ، حريصا على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاور وما عمل معه، فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وفي ذلك يقول العرقلة :

أقول والأتراك قد أزمعت
مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكتها يوسف الـ
ـصدّيق من أولاد يعقوب
ملكها في عصرنا يوسف الـ
ـصادق من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدى
حقا وضرّاب العراقيب

ثم أن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الافرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية، وقصد أطفيح، وعبر النيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وتصرف في البلاد الغربية، وأقام بها أربعا وخمسين يوما، وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصعب والذلول، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدّ والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوري على الاسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم، فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي، وكان أسد الدين والعسكر النوري قد ساروا إلى الصعيد، فبلغوا مكانا يعرف بالبابين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم فأدركوهم به في الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم

جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعـددهم وجدهم في طلبه، فعزم على قتالهم وبقـائهم، وأن تحكم السيوف بينـه وبينهم، إلاّ أنه خـاف من أصحـابـه أن تضعف نفـوسهـم في الثبـات في هذا المقـام الخطير الـذي عطبهـم فيه أقـرب من السـلامة لقلـة عـددهم وبعـدهم عـن بلادهـم، فاستشارهم فكلهم أشار عليـه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالـوا له:إن نحن إنهزمنا وهـو الذي لاشك فيه فـإلى أين نلتجي وبمن نحتمـي، وكل من في هـذه الديار من جنـدي وعامي وفـلاح عدو لنا ويودون لو شربـوا دماءنا، وحق لعسكر عدّتهم ألـف فارس قد بعدوا عن ديارهـم، وقل ناصرهم أن يـرتاع من لقاء عشرات ألـوف، مع أن كل البلاد عدو لهم، فلما قـالوا ذلك قام إنسـان من المماليك النوريـة يقال له شرف الديـن بزغـش، وكان مـن الشجاعـة بالمكـان المشهور، وقـال: من يخاف القتـل والجراح والأسر فلا يخدم الملـوك، بـل يكـون فلاحـا أو مـع النساء في بيتـه، والله لئـن عدتـم إلى الملك العـادل من غير غلبـة وبلاء تعذرون فيه ليأخـذن إقطاعاتكم، وليعودن عليكم بجميـع ما أخذتموه إلى يومنـا هذا ويقول لكـم: أتأخذون أمـوال المسلمين وتفرّون عن عـدوهم، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيهـا الكفار، قال أسد الدين: هذا رأيـي وبه أعمـل ووافقهما صلاح الديـن يوسف بـن أيوب، ثـم كثر الموافقون لهم على القتـال فاجتمعـت الكلمة على اللقـاء، فأقـام بمكانـه حتـى أدركه المصريـون والفرنـج وهـو على تعبية، وقـد جعل الأثقـال في القلـب يتكثـر بها، ولأنه لم يمكنـه أن يتركهـا بمكـان آخر فينهبهـا أهـل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الديـن ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنـج والمصريين يظنون أننـي في القلب فهـم يجعلون جمرتهم بـإزائه وحملتهـم عليـه، فـإذا حملـوا عليكـم فلا تصـدقـوهـم القتـال ولاتهلكـوا نفـوسكم وانـدفعوا بين أيـديهم،فإذا عـادوا عنكم فـارجعوا في أعقـابهم، واختـار مـن شجعـان أصحـابـه جمعـا يثـق إليهـم ويعـرف صبرهـم وشجاعتهـم، ووقف بهم في الميمنـة ، فلما تقابـل الطائفتـان فعل الفـرنج

ماذكره أسـد الدبن، وحملوا على القلب ظنـا منهم أنه فيه فقاتلهـم من به قتـالا يسيرا ثم انهزمـوا بين أيـديهم فتبعوهـم، فحينئـذ حمل أسـد الديـن فيمـن معه على مـن تخلـف عـن الفرنـج الـذيـن حملوا على القلـب مـن المسلمين فهزمـوهم، ووضـع السيف فيهم ، فـأثخن وأكثـر القتل والأسر، وانهزم الباقـون، فلما عاد الفرنـج من أثرالمنهزمين الـذين كانـوا في القلب رأوا مكـان المعركـة من أصحـابهم بلقعاً ليـس بها منهم ديـار، فانهزمـوا أيضا، وكان هـذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فـارس تهزم عساكر مصر وفرنـج الساحل، ثـم سار أسد الـدين إلى ثغـر الاسكندرية وجبـى ما في طريقها من القرايا والسواد مـن الأموال، ووصل إلى الاسكندرية فتسلمها من غير قتال سلمهـا إليه أهلها، فاستنـاب بها صلاح الدين ابـن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكـه وجبى أمواله وأقـام به حتى صام رمضـان، وأما المصريـون والفرنـج، فإنهم عـادوا إلى القاهـرة وجمعوا أصحـابهم وأقامـوا عـوض من قتـل منهم واستكثـروا وحشدوا وسـاروا إلى الاسكندريـة وبها صلاح الـدين في عسكـر يمنعونها منهـم، وقد أعـانهم أهلها خـوفاً مـن الفرنج، فاشتدّ الحصار، وقل الطعـام بالبلد فصبر أهلها على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسـول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبـذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه مـن البلاد، فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنـج لايقيمون بمصر ولايتسلمون منها قـرية واحدة، وأن الاسكنـدرية تعـاد إلى المصريين ، فـأجـابوا إلى ذلـك واصطلحـوا ، وعـاد إلى الشـام، فوصـل دمشق ثـامن عشر ذي القعدة وتسلـم المصريون الاسكنـدرية في النصـف من شـوال، وأما الفـرنج فـإنهم استقر بينهـم وبين المصريين أن يكون لهم بـالقاهـرة شحنة، ويكـون أبوابها بيـد فرسـانهم، ليمتنع الملـك العادل مـن إنفاذ عسكر إليهـم ويكون للفرنـج من دخل مصر كـل سنة مائة ألـف دينار، وهـذا كله يجري بين الفـرنج وبين شـاور، وأما العـاضد صاحـب مصر فليس إليـه من الأمر شيء، ولايعلـم بشيء من ذلـك، قد

حكم عليه شاور وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف، ينهي محبته وولاءه ويسأله أن يأمر باصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الاسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة ، فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالا جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها ، فكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى في أخبار سنة أربع وستين.

قال القاضي أبو المحاسن: ذكر عود أسد الدين إلى مصر في المرة الثانية وهي المعروفة بوقعة البابين.لم يزل أسد الدين يتحدث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لابد له من قصدها، فكاتب الفرنج وقرّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكينا كليا ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها، وبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين فاشتدّ خوفهما على مصر، أن يملكها الكفار فيستولون على البلاد كلها، فتجهز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالسير معه على كراهة منه لذلك،وذلك في أثناء ربيع الأول وكان وصولهم البلاد المصرية مقاربا لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروب كثيرة، ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية ، وانفصل أسد الدين، وكان سبب عود الفرنج أن نور الدين قدّس الله روحه جرد العساكر إلى بلاد الأفرنج، وأخذ المنيطرة، وعلم الفرنج ذلك فخافوا على بلادهم، وعادوا وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب مواقعة الفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد، وعاينوه من الأهوال، وما عاد حتى صالح الفرنج

على أن ينصرفـوا كلهـم عـن مصر، وعاد إلى الشـام في بقيـة السنـة، وقـد انضم إلى قوة الطمع في البلاد شدة الخوف عليهـا من الفرنج لعلمه بأنهم قد كشفوهـا كما كشفها ، وعرفوها من الـوجه الذي عرفها، فأقـام بالشام على مضـض وقلبـه مقلقـل، والقضاء يجره إلى شيء قـد قـدّر لغيره وهـو لايشعر بذلك.

قال: وفي أثنـاء سنة اثنتين وستين ملـك نور الديـن قلعة المنيطـرة بعد مسير أسد الدين في رجب، وخرّب قلعـة أكاف بالبرية، وفي رمضان منها اجتمـع نور الـديـن وأخواه قطـب الـدين وزيـن الـدين بحماة للغـزاة ، وساروا إلى بـلاد الفرنج ، فخربـوا هونين في شوال منهـا، وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين إلى مصر، وفيه مات قرا أرسلان بديار بكر.

فصل

وفي شعبان من هذه السنة قدم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأصفهـاني مصنف كتابي الفتح والبرق فـأنزله قـاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد اللـه بن القاسم بن الشهرزوري بالمدرسة النـورية الشـافعية، عنـد حمام القصير بباب الفـرج المنسوبـة الـى العماد وإنما نسبت إليـه لأن نور الدين رحمه اللّـه ولاه إياها في رجب سنـة سبع وستين ، بعد الشيـخ الفقيه ابن عبـد، وكان العماد له معـرفة بنجم الـدين أيـوب وأسد الـدين شيركـوه، ابني شـاذي مـن تكريـت بسبب أن عمـه العزيز أحمد بن حامد اعتقله السلطـان محمود بن محمد بن ملكشاه بقلعة تكريت ، ونجـم الدين أيوب آنـذاك واليها، فانتسجت المودّة بينهـم من هناك، فلما سمع نجم الدين بوصولـه بكر إلى منزله لتبجيله، وكان صلاح الدين وشيركوه حينئذ بمصر فمدح العماد نجم الدين أيوب بقصيدة أوّلها

يـوم النـوى ليـس مـن عمـري بمحسـوب
ولا الفـــراق إلى عيشي بمنســـوب

مـــا اخترت بعـــدك لكـــن الـــزمـــان أتـــى
كـــرهـــا بها ليـــس يـــا محبـــوب محبـــوبي
أرجـــو إيـــابي إليكـــم ظـــافـــرا عجـــلا
فقـــد ظفـــرت بنجـــم الـــديـــن أيـــوب
مـــوفـــق الـــرأي مـــاضي العـــزم مـــرتفـــع
على الأعـــاجـــم مجداً والأعـــاريـــب
أحبـــك اللّـــه إذ لازمـــت نجـــدتـــه
على جبين بتـــاج الملـــك معصـــوب
أخـــوك وابنـــك صـــدقـــا منهما اعتصما
بـــاللّـــه والنصر وعـــد غير مكـــذوب
هما همامـــان في يـــومـــي وغـــى وقـــرى
تعـــودا ضرب هـــام أو عـــراقيـــب
غـــدا يشبـــان في الكفـــار نـــار وغـــى
بلفحهـــا يصبـــح الشبـــان كـــالشيـــب
بملـــــك مصر ونصر المؤمنين غـــــدا
تحظـــى النفـــوس بتـــأنيـــس وتطييـــب
ويستقـــرّ بمصر يـــوســـف وبـــه
تقـــرّ بعـــد التنـــائي عين يعقـــوب
ويلتقـــي يـــوســـف فيهـــا بـــأخـــوتـــه
واللّـــه يجمعهـــم مـــن غير تثـــريـــب

وكان أنشده هذه القصيـدة في آخر شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وتم ملكهم مصر بعد سنتين.

قال: فنظمت ما في الغيب تقديره.

قال: وكـان أسد الـدين قد جمع وسـار إلى مصر في الرمـل في النصف من ربيع الأوّل ووصـل في سادس ربيع الآخر إلى أطفيـح ، وعبر منها إلى الجانب الغربي، وأنـاخ بالجيزة محاذاة مصر فأقام عليها نيفـا وخمسين يوما

واستعان شاور بالفرنج ، ورتبوا لهم سوقا بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد الشرقية إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم فالتقوا بموضع يعرف بالبابين فكسرهم أسد الدين وأصحابه وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفا، وحصل منهم في الاسار سبعون فارسا من بارونيتهم، فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الاسكندرية ، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها، ثم قال أسد الدين: أنا لايمكنني أن أحصر نفسي فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصعيد، فاستولى عليها وجبى خراجها، وأقام صلاح الدين بالاسكندرية، فسار إليه شاور والفرنج فحاصروه أربعة أشهر، وصدق أهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بقوص ، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص، فسمع الفرنج أنه جاء يقصدهم فرحلوا عن الحصار، وكان شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين مع أسد الدين بالذهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عوض ما غرمه ، فبذلوا له خمسين ألف دينار ، فخرجوا من الاسكندرية في النصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وعادوا إلى الخدمة النورية، فاجتمع العماد بأسد الدين وأنشده هذه القصيدة:

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر
ونلت ما عجزت عن نيله القدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت له
ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بسراك الأرض قد طويت
فأنت اسكندر في السير أم خضر
أوردت خيل بأقصى النيل صادرة
من الفرات تقاضى وردها الصدر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها
إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته
وزاد فوق الذي جاءت به السير

لـــو في زمـــان رســـول اللّـــه كنـــت أتـــت
في هـــــذه السيرة المحمــــــودة الســـــور
أصبحـــت بـــالعـــدل والاقـــدام منفـــردا
فقـــل لنـــا أعليّ أنـــت أم عمـــر
اسكنـــدر ذكـــروا أخبـــار حكمتـــه
ونحـــن فيـــك رأينـــا كـــل مـــا ذكـــروا
ورستـــم خبرونـــا عـــن شجـــاعتـــه
وصـــار فيـــك عيـــانـــا ذلـــك الخبر
أفخـــر فـــإن ملـــوك الأرض أذهلهـــم
مـــا قـــد فعلـــت فكـــل فيـــك مفتكـــر
سهـــرت إذ رقـــدوا بـــل هجـــت إذ سكنـــوا
وصلـــت إذ جبنـــوا بـــل طلـــت إذ قصروا
يستعظمـــون الـــذي ادركتـــه عجبـــاً
وذاك في جنـــب مـــا نـــرجـــوه محتقـــر
قضـــى القضـــاء بما نـــرجـــوه عـــن كثـــب
حتما ووافقـــك التـــوفيـــق والقـــدر
شكـــت خيـــولـــك إدمـــان السرى وشكـــت
مـــن فلهـــا البيـــض بـــل مـــن حطمهـــا السمـــر
يسرت فتـــح بـــلاد كـــان أيسرهـــا
لغير رأيـــك قفـــلا فتحـــه عسر
قـــرنـــت بـــالحزم منـــك العـــزم فـــاتسقـــت
مـــآرب لـــك عنهـــا أسفـــر السفـــر
ومـــن يكـــون بنـــور الـــديـــن مهتـــديـــا
في أمـــره كيـــف لا يقـــوى لـــه المرر
يـــرى بـــرأيـــك مـــا في الملـــك يبرمـــه
فـــأنـــت منـــه بحيـــث السمـــع والبصر
لقـــد بغـــت فئـــة الأفـــرنـــج فـــانتصفـــت
منهـــا بـــاقـــدامـــك الهنـــديـــة البتر

غرست في أرض مصر من جسومهم
أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع في مقام وغى
به الحديد غمام والدم المطر
انهرت منهم دماء بالصعيد جرى
منها إلى النيل في واديهم نهر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا
نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
تحت الصوارم هام المشركين كما
تحت الصوالج يوما خفت الاكر
أفنت سيوفك من لاقت فإن تركت
قوما فهم نفر من قبلها نفروا
لم ينج إلاّ الذي عافته من خبث
وحش الفلا وهو للمحذور منتظر
والساكنون القصور القاهرية قد
نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاور شاوروه في مكايدهم
فكاده الكيد لما خانه الحذر
كانوا من الرعب موتى في جلودهم
وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
وإن من شيركوه الشرك منخزل
والكفر منخذل والدين منتصر
عوّل على فئة عند اللقاء وفت
وعدّ عن ترك ان قبله غدروا
وكيف يخذل جيش أنت مالكه
والقائدان له التأييد والظفر
أجاب فيك إله الخلق دعوة من
يطيب بالليل من أنفاسه السحر

- ٧٩٠٣ -

قال العماد: واتصلت بيني وبين صلاح الدين يوسف ابن أخيه مودّة، تمت لي بها على الزمان عدّة، ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميل إلى شعري ، فأوّل ما خدمته به هذه الكلمة:

كيف قلتم بمقلته فتور
وأراها بلا فتور تجور

ومنها:

مستجيز جوري وإني منه
بابن أيوب يوسف مستجير
فضله في يد الزمان سوار
مثلها رأيه على الملك سور
كرم سابغ وجود عميم
وندى سائغ وفضل غزير
أنت من لم يزل يحنّ إليه
وهو في المهد سرجه والسرير
من دم الغادرين غادرت بالأمـ
ـس صعيد الصعيد وهو غدير
ولكل مما تطاولت فيهم
أمل قاصر وعمر قصير
لاذ بالنيل شاور مثل فرعو
ن فذل اللاجي وعز العبور
شارك المشركين نعيا وقدما
شاركتها قريظة والنضير
والذي يدعي الامامة بالقا
هرة ارتاع أنه مقهور
وغدا الملك خائفا من سطاكم
ذا ارتعاد كأنه مقرور
وبنو الهنفري هانوا ففروا
ومن الاسد كل كلب فرور

إنما كـــــــان للكـــــــلاب عـــــواء
حيـــث مـــا كـــان لـــلأســـود زئير

وفليـــب عنـــد الفـــرار سليـــب
فهـــو بـــالـــرعـــب مطلـــق مـــأســـور

لم يبقـــوا ســـوى الأصـــاغـــر للسبـــ
ـــي فـــودوا لـــو أن الكبير صغير

وحميـــت الاسكنـــدريـــة عنهـــم
ورحـــى حـــربهم عليهـــم تـــدور

حـــاصروهـــا ومـــا الـــذي بـــان مـــن ذبـــ
ـــك عنهـــا وحفظهـــا محصـــور

كحصـــار الأحـــزاب طيبـــة قـــدمـــا
ونبـــــي الهدى بها منصـــــور

فـــاشكـــر اللّـــه حيـــث أولاك نصراً
فهـــو نعـــم المولى ونعـــم النصير

ولكـــم أرجـــف الأعـــادي فقلنـــا
مـــا لما تـــذكـــرونـــه تـــأثير

ورقبنـــا كـــالعيـــد عـــودك فـــاليـــو
م بـــه لـــلانـــام عيـــد كبير

عـــاد مـــن مصر يـــوســـف وإلى يعـــ
ـــقوب بـــالتهنيـــات جـــاء البشير

فـــلأيـــوب مـــن إيـــاب صـــلاح الـــ
ـــدين يـــوم بـــه تـــوفى النـــذور

ولكـــم عـــودة إلى مصر بـــالنصـــ
ـــر على ذكـــرهـــا تمر العصـــور

فـــاستردّوا حـــق الإمـــامـــة ممـــن
خـــان فيهـــا فـــإنـــه مستعير

وافترعهـــا بكـــرا الها بمـــدى الـــدهـــ
ـــر رواح في مـــدحكـــم وبكـــور

أنـــا سيرت طـــالـــع العـــزم منـــي
وإلى قصـــــدك انتهـــــى التسيير
وأرى خـــاطـــري لمدحـــك إلـــف
إنما يـــــألـــــف الخطير الخطير

وهـي والتي قبلهـا طـويلتان جـداً، فانتظمـت معـرفة العماد بصـلاح الدين، وكان لـه مساعدا عند نور الدين، وقرأت في ديـوان العرقلة، وقال يمدح أسد الديـن شيركوه، وقد أخذ الشقيف، ورحل طـالبا حصناً يقال له العراق:

رحلـــت مـــن الشقيـــف إلى العـــراق
بعـــزم كـــالمهنـــدة الـــرقـــاق
ونكســـت الأعـــادي منـــه قهـــراً
ومجدك في ذرى الجوزا بـــــاقـــــي
بجـــاشـــك لا بجيشـــك نلـــت هـــذا
وبـــالتـــوفيـــق لا بـــالإتفـــاق
فـــداؤك مـــن مضـــى بـــالحصـــن قبلي
إلى دار الخلـــود مـــن الـــرفـــاق
ومـــا نخشـــى على الإســـلام بـــؤســـا
إذا هلـــك الجميـــع وأنـــت بـــاقـــي
أشـــاوركـــم فشـــاور كـــل خـــب
وتنفـــق عنـــد مثلـــك بـــالنفـــاق
أتصبر إن أتتـــك بحـــار خيـــل
وقـــد مـــا صبرت على الســـواقـــي
متـــى رفعـــت لـــك الســـودان رأســـا
وقـــد خـــلاهـــم مثـــل الـــزقـــاق
وعيشـــك مـــالـــه مـــن مصر بـــد
ومـــن عنـــدي ثـــلاثـــاً بـــالطـــلاق
هـــو الأســـد الـــذي مـــازال حتـــى
بنـــا مجداً على السبـــع الطبـــاق

فصل

قال ابن الإثير : وفي هذه السنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلب أن يعبر الفرات إليه بعساكره ، فتجهز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلاد الفرنج، واجتاز على حصن الأكراد فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عرقة ونزلوا عليها وحصروها وحصروا جبلة وأخربوها، وتوجهت عساكر المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العريمة وصافيتا، وعاد إلى حمص فصام بها شهر رمضان، ثم سار إلى بانياس وقصد قلعة هونين، وهي للفرنج أيضاً من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنج عنها وأحرقوها فقصدها نورالدين فوصلها من الغد، وخرب سورها جميعة وأراد الدخول إلى بيروت فتجدد في العسكر خلل أوجب التفرق، فعاد وسار قطب الدين إلى الموصل وأقطعه مدينة الرقة فأخذها في طريقه.

قال: وفي هذه السنة عصى الأمير غازي بن حسان المنبجي صاحب منبج على نور الدين، وهو كان أقطعه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً حصره بها وأخذها منه وأقطعها أخاه قطب الدين ينال بن حسان وكان عاقلا خيراً حسن السيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة إثنتين وسبعين كما سيأتي.

وفيها توفي القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير، صاحب كتاب الجنان.

قال العماد في الخريدة: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاور صبراً في سنة إثنتين وستين، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده، وأخوه المهذب أبو علي الحسن بن علي بن الزبير أشعر منه، وتوفي

قبله بسنة، لم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير منه قصيدة غراء في مدح الصالح بن رزيك، وذكر فيها نور الدين أولها:

أعلمت حين تجاور الحيان
أن القلوب مواقد النيران

يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا
حتى تصير مكسر الصلبان

فالشام ملكك قد ورثت بلاده
عن قومك الماضين من غسان

وإذا شككت بأنها أوطانهم
قدما فسل عن حارث الجولان

أورمت أن تتلو محاسن ذكرهم
فاسند روايتها إلى حسان

ما زلزلت أرض العدى بل ذاك ما
بقلوب أهليها من الخفقان

وأقول إن حصونهم سجدت لما
أوتيت من ملك ومن سلطان

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائبا
كالأسد حين تصول في خفان

لبسوا الدروع ولم يخل من قبلهم
أن البحار تحلّ في غدران

عجلت في تل العجول قراهم
وهم لك الضيفان بالذيفان

وثللت في يوم العريش عروشهم
بشبا ضراب صادق وطعان

ألجأتهم للبحر لما أن جرى
منه ومن دمهم معا بحران

ولقد أتى الاسطول حين غزا بها
لم يأت في حين من الاحيان

وأعــدّت رســل ابــن القسيــم إليــه في
شعبـــان كـــي يتـــلاءمَ الشعبـــان
والفــا ل يشهــد في اسمــه أن ســوف يغــــ
ــــدو الشـــام وهـــو عليكما قسمان
وأراك مـــن بعـــد الشهيــد أبـــا ألــه
وجعلتـــه مـــن أقـــرب الاخـــوان
وهـــو الـــذي مـــا زال يفعـــل في العـــدى
مـــا لم يكـــن ليعـــدّ في الامكـــان
قتـــل البرنـــس ومـــن عســـاه أعـــانـه
لما عســـا في البغـــي والعـــدوان
وأرى البريـــة حين عـــاد بـــرأســـه
مـــرّ الجنـــى يبـــدو على المرّان
وتعجبـــوا مـــن زرقـــة في طـــرفـــه
وكـــأن فـــوق الـــرمـــح نصـــلا ثـــاني
عجبـــا لجود يـــديـــه إذ يبنـــي العـــلا
والسيـــل يهدم ثـــابـــت الأركـــان
قلـــدت أعنـــاق البريـــة كلهـــا
مننـــا تحمـــل ثقلهـــا الثقـــلان
حتـى تســاوى النـاس فيـك وأصبـح الــــ
ـــقاصي بمنـزلـة القـريـب الـداني

وفي هذه السنة ذكـر القاضي كمال الدين بن الشهـرزوري للسطان نور الدين رحمه الله حال العماد الكاتب، وعرّفـه به وعرض عليه قصيدة له في مدحه مطلعها:

ومنها :
لـــو حفظـت يـــوم النـــوى عهـــودهـــا
مـــا مطلـــت بـــوصلكـــم وعـــودهـــا
وإنما يحمـــــد عيـــــش بلـــــدة
مـــا لكهـــا بعـــدلـــه محمـــودهـــا

مؤيد أموره بعزمة
من السموات العلى تأييدها
آثاره حميدة وإنما
للمرء من آثاره حميدها
ان الورى بحبه وبغضه
يعرف من شقيها سعيدها
قد جاءكم نور من الله فمن
به اهتدى فإنه رشيدها
جلا ظلام الظلم نور الدين عن
أرض الشام فله تحميدها
إن الرعايا منه في رعاية
ونعمة مستوجب مزيدها
لنومها يسهر بل لأمنها
يخاف بل لخصبها بجودها
بالدين والملك له قيامه
والملوك عنها قعودها
ودأبه ثلم ثغور الكفر لا
لثم ثغور نافع برودها
قد أسبغ الله لنا بعدله
ظلام أمن وارف مديدها
غدا ملوك الروم في أولته
وهم على رغمهم عبيدها
لما أبت هاماتهم سجودها
لله أضحى للظبى سجودها
إن فارقت سيوفه غمودها
فإنّ هاماتهم غمودها
كم مغلقات من حصون عزمه
مفتاحها وسيفه أقليدها

قد ودّت الفرنج لو فرّت نجت
منك ولكن روعها مبيدها
قهرتها حتى لودّ حيها
من ذلة لو أنه فقيدها
أماتها رعبك في حصونها
كأنها حصونها لحودها
وإن مصر الملك تعنو بعدما
لسيفك الصعب عنا صعيدها
والملة الغراء خال بالها
عال سناها بك حال جيدها
مفترّة ثغورها ممنوعة
ثغورها محفوظة حدودها
وإن بغى جالوتها ضلالة
فأنت في إهلاكه داودها
يابن قسيم الدولة الملك الذي
خرّت له من الملوك صيدها
دع العدى بغيظها فإنما
يذيب أكباد العدى حقودها
يا دولة نورية أمن الورى
وخصبها وجودها وجودها
ما مثل الدنيا لمن يجمعها
بالحرص إلاّ قزة ودودها
أين الذي يرفضها عن قدرة
فلا يشوب زهده زهيدها
فابق لنا يا ملكا بقاؤه
في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعودها
ودولة سعيدة جدودها

- ٧٩١١ -

وهي طـويلة، فرتبـه نورالديـن في ديوانـه منشئا لاستقبال سنـة ثلاث وستين.

قال: ووجدت على الأيام منه الإعزاز والتمكين .

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو البشر شـاكر بن عبد الله من الخدمة في كتابـة الانشا وقعـد في بيته، كـذا ذكر العماد في الخريـدة، وقال : تـولى ديوان الانشـا بالشام سنين كثيرة وله مقـاصد حسنة في الكتب وهـو جيد السيرة جميل السريرة (٩٩) .

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبـد الكريم محمد السمعاني المروزي رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

فذكر العماد أن نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حماه ثم شتى بقلعة حلب ومعه الأسد والصلاح، ونزل العماد بمدرسة ابن العجمي وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد عثر فرسه في الميدان وهو يلعب بالكرة مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لا تنكرن لسابح عثرت به
قدم وقد حمل الخضمّ الزاخرا
ألقى على السلطان طرفك طرفه
فهوى هنالك للسلام مبادرا
سبق الرياح بجريه وكففته
عنها فليس على خلافك قادرا
ضعفت قواه إذ تذكر أنه
في السرج منك يقل ليثا خادرا
ومتى تطيق الريح طودا شامخا
أو يستطيع البرق جونا ماطرا
فاعذر سقوط البرق عند مسيره
فالبرق يسقط حين يخطف سائرا
وأقل جوادك عثرة ندرت له
إن الجواد لمن يقيل العاثرا
وتوق من عين الحسود وشرّها
لا كان ناظرها يسوء ناظرا
وأسلم لنور الدين سلطان الورى
في الحادثات معاضدا ومؤازرا
فإذا صلاح الدين دام لأهله
لم يحذروا للدهر صرفا ضائرا

وجرت بين العماد وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيـــا شرف الــــديــــن إن الشتــــا
بكـــافـــاتـــه كـــف آفـــاقـــه
وكفـــك مــــن كـــرم كـــافهـــا
قـــد كفلـــت لي بكـــافـــاتـــه
وإنـــك مـــن عـــرفـــه شكـــرنـــا
غـــداعـــاجـــزاعـــن مكـــافـــاتـــه

قال: فكتب إلي شرف الدين في جوابها
إذا مـــــا الشتـــــاء وأمطـــــاره
عـــن الخير حـــابســـة رادعـــه
فكـــافـــاتـــه ألســـت أعطيتهـــا
وحـــوشيـــت مـــن كـــافـــه الـــرابعـــة
وكـــف المهـــابـــة والاحتشـــا
م لكفـــي عـــن بـــره مـــانعـــة
وهمة كـــل كـــريـــم النجـــا
ربميســـور أحبـــابـــه قـــانعـــة
ونفسي في بســـط عـــذري إليـــ
ـــه جعلـــت الفـــداء لـــه طـــامعـــه
وشـــوقـــي إلى قـــربـــه زائد
ومعـــذرتي إن جفـــا واسعـــه

قال: فكتبت إليه في جوابها:
أيـــا مـــن لـــه همة في العلى
لـــذروتها أبـــدا فـــارعـــه
ومـــن كفـــه ديمـــة مـــاتـــزا
ل بـــالعـــرف هـــاميـــة هـــامعـــه
وللفضـــل في ســـوق أفضـــالـــه
بضـــائع نـــافقـــة نـــافعـــة
وهـــل كـــابـــن عصرون في عصرنـــا
إمـــام أدلتـــه قـــاطعـــة

فخير فـــــــــــــوائده جمة
وبحـــــر مــــــوارده واسعـــــة
أيـــا شرف الـــــديـــن شرفتنـــي
بـــاهــــداء زائعـــة رائعـــة
أطعـــت أوامـــرك الســـاميـــا
ت ومــا بـــرحـــت همتـــي طـــائعـــة
أرى كـــل جـــارحـــة لي تـــــ
ـــــودّلـــو أنها أذن ســـامعـــه
وأمـــا الشتـــاء وكـــافـــاتـــه
وكفـــك عـــن كـــافـــه الـــرابعـــة
فنفسي منـــزعـــة بـــالعفـــا
ف عنهـــا وفي غيرهـــا طـــامعـــه
ومـــاذا تطيـــق إذا لم تكـــن
بميســـور سيـــدنـــا قـــانعـــه

وهي أكثر من هذا

قال: وكان ابن حسان صاحب منبج قد ساءت أفعاله، فبعث إليه نور الدين من حاصره وانتزعها منه، ثم توجه نور الدين إليها لتهذيب أحوالها ومدحه العماد بقصيدة منها يقول:

بشرى الممالـــك فتـــح قلعـــة منبـــج
فليهـــن هـــذا النصر كـــل متـــوج
أعطيـــت هـــذا الفتـــح مفتـــاحـــابـــه
في الملـــك يفتـــح كـــل بـــاب مـــرتـــج
وافى يبشر بـــــالفتـــــوح وراءه
فـــانهض إليهـــا بـــالجيـــوش وعـــرج
أبشر فبيـــت القـــدس يتلـــو منبجـــا
ولمنبج كسواه كـــالانمـــوذج

مــا أعجــزتــك الشهــب في أبــراجهــا
طلبــا فكيـــف خـــوارج في أبـــرج
ولَقَـــدْ مـــن يعصيــك أحقــر أن يــرى
أثــر العبـــوس بـــوجهـــك المتبلـــج
لكـــن تهذب مـــن عصـــاك سيـاســة
في ضمنهـــا تقـــويـــم كـــل معـــوج
فـــانهد إلى البيـــت المقـــدّس غـــازيـــا
وعلى طـــرابلـــس ونـــابلـــس عـــج
قـــد سرت في الإســـلام أحســـن سيرة
مـــأثـــورة وسلكـــت أوضـــح منهـــج
وجميـــع مـــا استقـــريـــت مـــن سنـــن الهدى
جـــدّدت منـــه كـــل رســـم مبهـــج

قال العماد: وسار نـور الدين من منبج إلى قلعـة نجم وعبر الفرات إلى الرها، وكان بها ينال صاحب منبج، وهـو سديد الرأي رشيد المنهج فنقله إليها مقطعـا ووالياً، وأقـام نور الـدين بقلعـة الرهـا مدّة فمـدحه العماد بقصيدة وتحجب له صلاح الدين في عرضها وهي:

أدركـــت مـــن أمـــر الـــزمـــان المشتهـــى
وبلغـــت مـــن نيـــل الأمـــاني المنتهـــى
وبقيـــت في كنـــف الســـلامـــة آمنـــا
متكـــرمـــا بـــالطبـــع لا متكـــرهـــا
لا زلـــت نـــور الـــديـــن في فلـــك الهدى
ذا غـــرّة للعـــالمين بها البهـــا
يـــا محيـــي العـــدل الـــذي في ظلـــه
مـــن عـــدلـــه رعـــت الأســـود مـــع المهـــا
محمـــود المحمـــود مـــن أيـــامـــه
لبهـــائهـــا ضحـــك الـــزمـــان وقهقهـــا
مـــولى الـــورى مـــولى النـــدى معلي الهدى
مـــردي العـــدى مســـدي الجدى معطي المهـــا

آراؤه بصـــــوابها مقـــــرونـــــة
وبمقتضـــاهـــا دائر فلـــك النهـــا
متلبـــس بحصـــافـــه وحصـــانـــه
متقـــدّس عـــن شـــوب مكـــر أو دهـــا
يـــا مـــن أطـــاع الله في خلـــواتـــه
متـــأوبـــا مـــن خـــوفـــه متـــأوهـــا
أبـــدا تقـــدّم في المعـــاش لـــوجهـــه
عمـــلا يبيـــض في المعـــاد الأوجهـــا
كـــل الأمـــور وهـــا وأمـــرك مبرم
مستحكـــم لا نقـــض فيـــه ولا وهـــا
مـــا صين عنـــك الصين لـــو حـــاولتهـــا
والمشرقـــان فكيـــف منبـــج والـــرهـــا
مـــا للملـــوك لـــدى ظهـــورك رونـــق
وإذا بـــدت شمـــس الضحـــى خفـــي السهـــا
إن الملـــوك لهوا وإنـــك مـــن غـــدا
وبها لـــه والملـــك منـــه مـــا لها
شرهـــت نفـــوسهـــم إلى دنيـــاهـــم
وأبـــى لنفســـك زهـــدهـــا أن تشرهـــا
مـــا نمـــت عـــن خير ولم يـــك نـــائما
مـــن لا يـــزال على الجميـــل منبهـــا
أخملـــت ذكـــرا الجاهلين ولم تـــزل
ملكـــا يـــذكـــر العـــالمين منـــوّهـــا
ورأيـــت إرعـــاء الـــرعـــايـــا واجبـــا
تغنـــي فقيرا أو تجير مـــدلها
لـــرضـــاهـــم متحفظـــا ولحالهم
متفقـــدا ولـــدينهـــم متفقهـــا
وبما بـــه أمـــر الالـــه أمـــرتهم
مـــن طـــاعـــة ونهيتهـــم عما نهى

عـــن رحمة لصغيرهـــم لم تشتغـــل
عــن رأفــة لكبيرهــم لــن تشــدهــا
بــاليـــأس عنـــدك أمـــل لم يمتحــن
بــالــردّ دونــك ســائل لــن يجبهــا
أتعبــت نفســك كــي تنــال رفــاهــة
مــن ليــس يتعــب لا يعيــش مــرفهــا
فقــت الملــوك سماحــة وحماســة
حتــى عــد منــافيهــم لــك مشبهــا
ولــك الفخـــار على الجميـــع فــدونهم
أصبحــت عــن كــل العيــوب منــزهــا
وأراك تحلــم حين تصبــح ســاخطــا
ويكــاد غيرك ســاخطــا أن يسفهــا

قلت : رحـم الله العماد فقد نظم أوصـاف نور الـدين الجليلة بـأحسن لفظ وأرقـه، وهذا البيـت الأخير مؤكد لما نقلنـاه في أول الكتاب مـن قول الحافظ أبي القـاسم رحمه الله في وصـف نور الـدين رحمه الله أنـه لم يسمع منه كلمه فحـش في رضاه ولافي ضجره، وقل مـن الملوك من له حـظ من هذه الأوصاف الفاضلة، والنعوت الكاملة.

قـال العماد: ثم عـاد نور الـديـن إلى حلب في شهـر رجب، وضربـت خيمتـه في رأس الميدان الأخضر، قـال: وكان مـولعا بضرب الكـرة، وربما دخل الظلام فلعب بها بالشموع في الليلة المسفـره، ويركب صلاح الدين مبكـراً كل بكـره، وهو عـارف بآدابها في الخدمـة وشروطها المعتبره، قـال: وأقطعه في تلك السنـة ضيعتين، إحداهما من ضياع حلـب، والأخرى من ضياع كفر طاب، قال : وكتب إليه في طلب كنبوش:

أصبحـــت بغلتـــي تشكـــي مـــن العـــر
ى وإسراجهـــــا بــــــلا كنبـــــوش
قلـــت كفـــي فخير يـــوميـــك عنـــدي
أن تفـــوزي بـــالتبـــن أو بـــالحشيـــش

وأفــــرحــــي ليلــــة الشعير كما يفـــر
ح قــــوم بليلـــــة المأشـــــوش
لـــــو تبصرت حـــالتـــــي لتصبر
ت فـــإيـــاك عنـــدهـــا أن تطيشي
أومـــامـــات في الشتـــاء مـــن البر
دومـــن فـــرط جـــوعـــه اكـــديشي
فيقـــي واسكنـــي بجـــود صـــلاح الـــد
يـــن غـــرس الملـــوك ملـــك الجيـــوش
فهـــو يجلـــوك للعيـــون بكنبـــو
ش جـــديـــد مستحســـن منقـــوش
كـــم عـــدوّ مـــن بـــأســـه في عثـــار
وولي بجـــــــوده منعـــــــوش
والموالي على الأسرة والأعـــــــ
داء تحت الهوان فـــوق النعـــوش

قـال: وأقطع أسـد الديـن حمص وأعمالها، فسـار إليها فسـد ثغورهـا، وضبـط أمورهـا ، وحمى جمهـورها، وكـان نـور الـدين قـد جـدد سورهـا، وحصن دورهـا وبلي الفرنـج منه بالمغـاور ، والمراوغ ذي البأس الـدامغ، وسـأله نـور الـديـن في السلو عـن حـب مصر وقـال: قد تعبت مـرتين واجتهـدت، ولم يحصل لـك مـا طلبـت، وقد أذعنـوا بـالطـاعه وشفعـوا السؤال بـالشفاعة وسمحـوا بكل مـا يدخل تحت الاستطـاعة (١٠) قلت وأنشد العماد أسد الدين في رجب من هذه السنة:

دمـــت في الملـــك آمـــراً ذا نفـــاذ
أســـد الـــديـــن شيركـــوه بـــن شـــاذي
يـــا كـــريـــم عـــن كـــل شر بطيـــا
وإلى الخير دائم الأغـــــــــــــذاذ
ومـــلاذ الإســـلام أنـــت فـــلا زلـــت
لأهـــل الإســـلام خير مـــلاذ

في نفوس الكفار رعيك قد حل
بصدع الأكباد والأفلاذ
لم تدع بالظبى رؤوساً وأصنا
ماً من المشركين غير جذاذ
أنت من نازل الدعيين في مصـ
ـر لنصر الإمام في بغداذ
وبلاد الإسلام أنقذتها أنـ
ـت من الشرك أيما انقاذ

فصل
في وفاة زين الدين

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاث وستين سار زين الدين علي بن بكتكين نائب أتابك قطب الدين عن الموصل إلى إربل وسلم جميع ما كان ببلاده من البلاد والقلاع إلى قطب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زنكي رحمه الله تعالى، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية جميعها، وكان نائبه بتكريت الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلمها فقال: إن المولى أتابك لايقيم بتكريت ولا بدّ له من نائب فيها، وأنا أكون ذلك النائب فليس له مثلي فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد، وأما شهرزور فكان بها الأمير بوزان فقال مثله أيضا، فأقرت بيده، فكان في طاعة قطب الدين، وسبب فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم وأقام بإربل إلى أن توفي بها في ذي الحجة من هذه السنة، وكان قد استولى عليه الهرم، وضعفت قوته، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة، جواداً محافظاً على حسن العهد، وأداء الأمانة قليل الغدر بل عديمه وكان إذا وعد بشيء لابدّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً ، وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدل على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدل على إفراط الذكاء وغلبة

الدهاء، بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذنب فرس ذكر أنه نفق له فأمر له بفرس فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيره من الأجناد فأحضره وذكر أنه نفق له دابةفأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب إثنا عشر رجلا كلهم يأخذ فرساً، فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تستحيون مني كما أستحي أنا منكم، قد أحضر هذا عندي إثنا عشر رجلاً وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم أتظنون أنني لاأعرفه، بلى والله وإنما أردت أن يصلكم عطائي بغير من ولا تكدير فلم تتركوني.

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلف شيئاً بل أنفده جميعه في العطايا والإنعام على الناس، وكان يلبس الغليظ، ويشدّ على وسطه كل ما يحتاج إليه من سكين ودرفش ومطرقة ومسلة وخيوط ودسترك وغير ذلك، وكان أشجع الناس ميمون النقيبة لم تهزم له راية، وكان يقوم المقام الخطير فيسلم منه بحسن نيته، وكان تركيا أسمر اللون خفيف العارضين قصيراً جداً، وبنى مدارس وربطاً بالموصل وغيرها، وبلغني أنه مدحه الحيص بيص فلما أراد الإنشاد قال له : أنا لاأدري ماتقول لكن أعلم أنك تريد شيئاً، فأمر له بخمسمائة دينار وأعطاه فرساً وخلعاً وثياباً يكون مجموع ذلك ألف دينار، قال: ومكارمه كثيرة، ولما توفي بإربل كان الحاكم بها خادمه مجاهد الدين قايماز وهو المتولي لأمورها، وولي بعد زين الدين ولده مظفر الدين كوكبري مدّة، ثم فارقها بخلف كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجرت أمور يطول ذكرها، ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخر الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذموه، فلم تطل أيامه وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ست وستين إن شاء الله تعالى.

- ٧٩٢١ -

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

ففي أوّلها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جعبر، وأخذها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي من آل عقيل من بني المسيب وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السلطان ملكشاه، وقد تقدّم ذكر ذلك، وهي من أمنع الحصون وأحسنها مطلة على الفرات لايطمع فيها بحصار، وقد أعجز جماعة من الملوك أخذها منه، وقتل عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين، ثم اتفق أن خرج صاحبها منها يوما يتصيد، فصاده بنو كلاب فأخذوه أسيراً وأوثقوه وحملوه إلى نور الدين فتقربوا به إليه وذلك في رجب من سنة ثلاث وستين، فحبسه بحلب وأحسن إليه ورغبه في الاقطاع والمال ليسلم إليه القلعة، فلم يفعل فعدل به نور الدين إلى الشدّة والعنف وتهدّده فلم يفعل أيضاً، فسير إليها عسكراً مقدمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزعفراني فحصرها مدّة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الداية، وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله، فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللين وأشار عليه بأخذ العوض من نور الدين ولم يزل يتوسط معه حتى أذعن على أن يعطى سروج وأعمالها والملاحة التي في عمل حلب والباب وبزاعة، وعشرين ألف دينار معجلة، فأخذ جميع ماشرط مكرها في صورة مختار.

قال ابن الأثير: وهذا إقطاع عظيم جداً ، لكنه لاحظ فيه، وتسلم مجد الدين قلعة جعبر، وصعد إليها منتصف المحرم، ووصل كتابه إلى نورالدين بحلب، فسار إليها وصعد القلعة في العشرين من المحرم، ثم سلمها نور الدين إلى مجد الدين بن الداية، فولاها أخاه شمس الدين

علي، وكان هذا آخر أمر بني مالك، ولكل أمر آخر ولكل ولاية نهاية يؤتى الله الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء [١٠١]

قال ابن الأثير، بلغني أنه قيل لشهاب الدين أيما أحب إليك وأحسن مقاماً أسروج والشام أم القلعة؟قال: هذا أكثر مالاً، والعز بالقلعة فارقناه.

قال العماد: وأنشدت نور الدين بقلعة جعبر قصيدة أولها:

أسلم لبكر الفتوح مفترعا
ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك
غدا بعبء الخطوب مضطلعا
إن ضاق أمر فغير همته
لكشف ضيق الأمور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته
ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الـ
ـشرك وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ
ـملك وتحكي بزهدك اليسعا
حزت النقا والحياء والكرم المحـ
ـض وحسن اليقين والورعا
أسقطت أقساطاً وجدت من المكـ
ـس بعدل والقاسط إرتدعا
ولم تدع في ابتغاء مصلحة الد
ين لنا باقياً ولن تدعا
وكل ما في الملوك مفترق
من المعالي لملك اجتمعا
هتك الربط والمدارس تبنيـ
ـها ثواباً وتهدم البيعا

مـــــازلـــــت ذا فطنـــــة مـــؤيـــــدة
على غيـــــــوب الأسرار مطلعـــــــا
بيـــأســـك البيـــض والطلى اصطحبـــت
بعـــد لـــك الـــذئب والطـــلا رتعـــا
كـــم صـــائد لم يقـــع لـــه قنـــص
في شرك وهـــو فيـــه قـــد وقعـــا
ومـــالـــك حين رمـــت قلعتـــه
غـــدا مطيعـــا لـــلأمـــر متبعـــا
عنـــا خشـــوعـــا لـــرب مملكـــة
لغير رب السماء مـــــا خشعـــــا
كـــان مقيما منهـــا على الفلـــك الـــــ
أعلى شهـــابـــا بنـــوره سطعـــا
لكنها الشهـــــب مـــــا تنير إذا
لاح عمـــود الصبـــاح فـــانصـــدعـــا
يـــدفعهـــا طـــائعـــا إليـــك وكـــم
عنهـــا إبـــاء بجهـــده دفعـــا
هـــي التـــي في علـــوهـــا زحـــل
كـــر على وردهـــا ومـــا كـــرعـــا
وهـــي التـــي قـــاربـــت عطـــارد في الـــــ
ـــأفق فـــلاحـــا والفـــرقـــديـــن معـــا
كـــان منهـــا السهـــا إذا استرق السمـــــ
ــــع أتـــاهـــا في خفيـــة ودعـــا
هضبـــة عـــز لـــولاك مـــا ارتقيـــت
وطـــود ملـــك لـــولاك مـــا فـــرعـــا
مـــا قبلـــت في ارتقـــاء ذروتها
مـــن ملـــك لا رقـــى ولا جـــذعـــا
عـــزت على المالـــك الشهيـــد واعـــــ
ــــطتك قيـــاداً مـــا زال ممتنعـــا

لـــلأب لـــو حـــل خطبهــا الغـــدا
محرمـــا لابنـــه ومـــا شرعـــا
لازلـــت محمـــود في أمـــورك محمـــو
دأبثـــوب الاقبـــال مـــدرعـــا

وفي سابع عشر صفر من هـذه السنة تـوفي بهاء الدين عمـر أخو مجد الدين بن الداية، وفيه وفي أخويه يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتـــم لمحمـــود كـــآل محمـــد
متصـــادقـــي الأفعـــال والأسماء
يتلـــو أبـــابكـــر على حسنـــاتـــه
عمـــر الممـــدح في سنـــا وسنـــاء
ويليـــه عثمان المرجـــى للعـــلا
وعلي المأمـــول في الـــلأواء
وتقيـــل الحســـن المجـــد مجدهـــم
فهـــم ذوو الإحســـان والنعماء
فـــرعـــت لمجـــد الـــديـــن أخـــوتـــه الـــذرى
دون الـــورى في المجـــد والعليـــاء
مـــن ســـابـــق كـــرمـــا وشمـــس سيـــاده
شرفـــا وبـــدر دجنـــة وبهاء
سرج الهدى سحـــب النـــدى شهـــب النهـــى
أســـد الحروب ضراغـــم الهيجـــاء

يريـد سابـق الدين عثمان، وشمـس الدين علي، وبـدر الديـن حسن، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين هو الأكبر، فهم خمسة رحمهم الله تعالى.

فصل

وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية سار إليها أسد الدين مرة ثالثة، فهزم العدو، وقتل شاوراً وولي الوزارة مكانه، ثم مات فوليها صلاح الدين، وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوليين اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شيركوه قد خبروا الديار المصرية واطلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية، وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل، ولا لأهلها منا موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام وقوينا بتملك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص وشايعهم على قصد مصر جماعة من أهلها كابن الخياط وابن قرجلة وغيرهما من أعداء شاور، وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر والقاهرة، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم على ما سبق ذكره، وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مرى، ولم يكن ملك الفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة و مكراً ودهاء يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها، وسهلوا أمرها عليه فلم يجبهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشاروا عليه بالمسير إليها،والإستيلاء عليها، فقال لهم : الرأي عندي أن لانقصدها فإنها طعمة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلاحيه لايسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج

وإجلاؤهم من أرض الشام، فلم يصغوا إلى قـوله وقالوا: إن مصر لامانع لها ولا حـافـظ وإلى أن يصـل الخبر إلى نـور الـديـن ويجهـز العسـاكـر ويسيرهم إلينـا نكون نحن قد ملكنـاها وفرغنـا من أمرها، وحينئـذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد، وانكشف لهم أمرهـا فأجـابهم إلى ذلك على كره شـديد، وتجهـزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتـوجهوا من عسقلان في النصف من المحـرم، ووصلـوا أول يـوم مـن صفـر إلى بلبيـس ونـازلـوهـا وحصروهـا فملكوهـا قهراً ونهبوها ، وسبـوا أهلها، وأقامـوا بها خمسة أيام، ثم أنـاخوا على القاهـرة وحصروها عـاشر صفر فخـاف الناس منهـم أن يفعلوا بهم مثل فعلهـم بأهـل بلبيس، فحملهـم الخوف منهم على الامتنـاع فحفظوا البلد، وقـاتلوا دونـه وبذلوا جهـدهم في حفظه، ولـو أن الفرنـج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس ملكوا مصر والقاهرة سرعة، ولكن الله تعالى حسن لهم ذلـك ليقضي الله أمراً كـان مفعولا، وكـان شاور أمـر بإحـراق مدينـة مصر تاسـع صفر قبـل نزول الفـرنج عليهم بيـوم واحد خـوفاً عليهـا من الفرنـج . فبقيت النـار فيها تحرقها أربعـة وخمسين يومـاً إلى خامـس ربيع الآخر ، ثـم ضاق الحصار وخيـف البوار، وعـرف شاور أنه يضعـف عن الحماية فشرع في تمحـل الحيل وأرسـل إلى ملك الأفرنـج يذكـر له مـودته ومحبته القـديمة وأن هـواه معه، وتخوفـه من نـور الديـن والعاضـد، وإنما المسلمون لايـوافقونه على التسليم إليـه، ويشير بالصلح وأخذ مـال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجـابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجـل البعض، ويؤخر البعـض، واستقرت القاعـدة على ذلك، ورأى الفـرنـج أن البلاد امتنعـت عليهـم، وربما سلمـت إلى نور الـديـن فأجابـوا كارهين، وقالوا نـأخذ المال نقوى به ونكثـر من الرجال ثـم نعود إلى البلاد بقـوة لانبالي معها بنـور الدين ولاغيره (ومكـروا ومكر الله والله خير الماكرين) (١٠٢) فعجل لهم شـاور مائة ألف دينـار، وسألهم الـرحيل عـن البلد ليجمـع لهم المال فرحلـوا قريبـاً، وكان خليفـة مصر العاضـد

عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاور الفرنج على ذلك المال، عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيما عنده في عسكر، واقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

وقال العماد: عجل شاور لملك الفرنج بمائة ألف دينار حيلة وخداعاً وإرغاما له واطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفراً، وبمانا ب الإسلام من الكفر مخبراً، ويقول إن لم تبادر ذهبت البلاد، وسير الكتب مسودة بمدادها كاسية لباس حدادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، أظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجابين سراعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيراً، وعامل الفرنج بالمطال ينقدهم في كل حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً ، ومازال يعطيهم ويستميلهم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله.

فصل
فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولا من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص، وهي اقطاعه، فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار لأنه كان قد

طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكفر، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسره، وأمره بالتجهز إلى مصر، والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس، فكان في مدة حشده للتركمان سار نور الدين لتسلم قلعة جعبر، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم: مملوكه عز الدين جرديك، وغرس الدين قليج، وشرف الدين بزغش ، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة ابن الياروقي، وقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وغيرهم، ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله تعالى النصر، وذلك منتصف ربيع الأول، وخيم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان يعني صلاح الدين: كنت أكره الناس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم﴾[١٠٣]

وقال ابن الأثير : أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه.

حكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستحضرين أحضرني وأعلمني الحال، وقال تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه تأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير، قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادما في هذا المعنى، فقال له نور الدين:تجهز للمسير.فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولايبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره. قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال : تجهز يا يوسف. قال : فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت : والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها فلّقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين لابد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا استقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ، ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين:لابدّ من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة، وقلة الدواب، وما احتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

قلت: وحرضة أيضاً حسان العرقلة بأبيات من شعره من جملة قصيدة مدحه بها قال:

وهل أخشى من الأنواء بخلاً
إذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحاً
وللأعداء لم يبرح فسادا

لئـــن أعطـــاه نـــور الـــديـــن حصنـــا
فــــإن الله يعطيــــــه البــــــلادا

إلى كـــــم ذا التـــــواني في دمشـــــق
وقـــــد جـــــاء تكـــــم مصر تهادى

عـــروس بعلهـــا أســـد هـــزبـــر
يصيـــد المعتـــديـــن ولـــن يصـــادا

ألا يـــــا معشر الأجنـــــاد سيروا
وراء لـــــوائه تلقـــــوا رشـــــادا

فما كـــل أمـــرىء صلى مـــع النـــا
س مـــأمـــومـــا كمـــن صلى فـــرادا

فلما سار صلاح الـدين إلى مصر، عبر العرقلة على داره فوجـدها مغلقة فقال:

عبرت على دار الصـــلاح وقـــد خلـــت
مـــن القمـــر الـــوضـــاح والمنهـــل العـــذب

فـــوالله لـــولا سرعـــة مثـــل عـــزمـــه
لغـــرقهـــا طـــرفي وأحـــرقهـــا قلبـــي

ودار صلاح الـدين هـي التي وقفها ربـاطاً للصوفيـة بحارة قطـامش، جوارقيسـارية القصـاع، وإليها يجري الماء مـن حمام نور الـدين رحمه الله، فقضـى الله مـا قضـى مـن رحيـل الفرنـج، وتملـك صـلاح الـديـن على ماسيـأتي، وللأمير الفاضل أسـامة بن منقـذ في صلاح الدين مـن قصيدة أوّلها:

(سلم على مصر لاربع بذي سلم)

يقول فيها:

النـــاصر الملـــك الموفي بـــذمتـــه
ومـــن نـــدى كفـــه يغنـــي عـــن الـــديـــم

ومـن إذا جـرد البيض الصـوارم في الـــ
ــــهيجاء أغمـدهـا في البيـض والقمـم
ومـن حـوى الملكمـن بعـد الطـاعـة في أنــ
ــتـزاعـه بشبـا الهنـديـة الخذم
ورد طـاغيـة الأفـرنـج يحسـب مـا
رجـاه مـن ملـك مصر كـان في الحلـم
ولى وراحتـه صفـر وقـد ملئـت
بعـد الطماعـة مـن يـأس ومـن نـدم
يصعـدون على مـا فـاتهم نفسـا
لـو لا فـح البحـر أضحـى الموج كـالحمـم
وفي السـلامـة لـو لا جهلهـم ظفـر
لمن أراد نـزال الأسـد في الأجـم
وهـم أسـود الشـرى لكـن أذلهم
ملـك لـديـه الأسـود الغلـب كـالغنـم

وله من قصيدة أخرى:
أقمـت عمـود الـديـن حين أمـالـه
لطـاغـي الفـرنـج الغتـم طـاغـي بنـي سعـد
وجـاهـدت حـزب الكفـر حتـى رددتهم
خـزايـا عليهـم خيبـة الـذل والـردّ
أفـدت بها قـدمـت ملكـا مخلـدا
وذكـرا مـدى الأيـام يقـرن بـالحمـد
وذكـرك في الآفـاق يسري كـأنـه الـــ
ــصباح لـه نشر الألـوّة والنـد

ولأبى الحسن بن الذروي فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مرّي:
ولكـم أشمـت الـروم أشـأم بـارق
أضحـت ميـاه نفـوسهـا مـن قطـره
وافـاك بحـر دروعهـا عـن مـدّه
ومضـى وقـد حكمـت ظبـاك بجـزره

ولقيت مرّيا وطعم حياته
حلو فبدّله القتال بمرّه .
فاعقد إليه الرأي في عذب القنا
واحلل بها عجلا معاقد كره
واطرده من وكر الشآم فإنه
قد طار منك بخافق من ذعره

فصل
في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر فخلع عليه وأكرمه، وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة والاقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين، ويسير معه ويعده ويمنيه (وما يعدهم الشيطان إلاغروراً)(١٠٤) ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل، وقال له : والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرّفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلنّ جميعاً، فقال : صدقت ولئن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلاّ أن يسمعوا بالقبض على شيركوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المطل من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد

الدين بذلك فنهاهم فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك، واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه، وقصد شاور عسكره على عادته للإجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جرديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوروه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه، وأخذ أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير أذن أسد الدين فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه ، فعلم أسد الدين الحال، فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلاّ إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك، فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور، فقصدها الناس ينهبونها، فتفرّقوا عنه ، هذا قول ابن الأثير.

وقال ابن شدّاد : أقام أسد الدين بها يتردّد إليه شاور في الأحيان، وكان وعدهم بمال في مقابلة ماخسروه من النفقة، فلم يوصل إليهم شيئاً وعلقت مخاليب الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد، وأن تردّدهم إليها في كل وقت لايفيد، وأن شاوراً يلعب بهم تارة وبالأفرنج أخرى، وملاكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لاسبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قبضه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به، وكان يركب على قاعدة وزارتهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه منهم إلاّ السلطان نفسه، يعنى صلاح الدين، وذلك أنه لما سار إليهم، تلقاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه وأمر العسكر أن أخذوا على أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وقبض شاور وأنزل إلى خيمة مفردة، وفي

الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لابد من رأسه جريا على عادتهم في وزارتهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فحزت رقبته وأنفذوا رأسه إليهم.

قال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخلع عليه، ولقى الإحسان، وتردّد شاور إلى أسد الدين وتودّد، وتجدّد بينهما من الوداد ماتأكد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة والأطعمة الواسعة والحلاوات والميرة، فقال صلاح الدين:هذا أمر يطول ، ومسألة فرضها يعول، ومعنا هذا العسكر الثقيل وإقامته بالإقامة يقصر عنها الأمد الطويل، ولا أمر لنا مع استيلاء شاور، لاسيما إذا راوغ وغادر، فأنفذ أسد الدين الفقيه عيسى إلى شاور يشير عليه بالاحتراس، وقال له: أخشى عليك من عندي من الناس، فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النوريه، وهو راكب على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته وقبضه وأثبته، ووكل به في خيمة ضربها له ، وحاول إمهاله فجاء من القصر من يطلب رأسه ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول وأبوا أ ن يرجعوا إلا بنجح السول، فحم حمامه، وحمل إلى القصر هامه.

قلت: وبلغني أن الذي حز رقبة شاور هو عز الدين جرديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفرسيهما، فأجابه ووافقهما في ذلك جرديك، وكان ذلك عن أمر قد تقرّر فحرّكوا خيلهم، فلما بعدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجرديك على شاور داخل الخيمة، وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عرقلة:

لقد فاز بالملك العقيم خليفة
له شيركوه العاضدي وزير

كــان ابــن شــاذي والصــلاح وسيفــه
علىّ لــديــه شبر وشبير
هــو الأســد الضــاري الــذي جــل خطبــه
وشــاور كلــب للــرجــال عقــور
بغــى وطغــى حتــى لقــد قــال قــائل
على مثلهــا كــان اللعين يــدور
فــلا رحــم الــرحمن تــربــة قبره
ولا زال فيهــا منكــر ونكير

وقال أيضاً:

إن أمير المؤمنين الــذي
مصر حماه وعليّ أبــوه
نــص على شــاور فــرعــونها
ونــص مــوســاهــا على شيركــوه

وقـد وصف الفقيـه الشـاعر أبـو حمزة عمارة اليمنـي في كتاب الـوزراء المصرية الـذي صنفه حال شـاور في وزارته الأولى، ثم قـال: وزارة شاور الثـانية:فيهـا تكشفت صفحـاته، وأحـرقـت لفحاتـه، وأغرقـت نفحاتـه، وغضـه الدهـر وعضـه وأوجعه الثكـل وأمضـه، وبان غمـره وثماده وجمره ورماده، ولم يجف من الانكاء لبده، ولا صفا من الاقذاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحـة، وسلمت له الهموم عوضاً عـن الراحة، وفي أوّل ليلة دخـل القاهـرة ارتحل أسد الـدين طـالباً بلبيس، فأقـام بها، ثم عـاد إلى القاهرة ، فكسر النـاس يوم التاج، وأسر أخوه صبـح ، وأصيب على باب القنطرة بحجـر كاد يموت منه، وتعقب ذلـك بنقل القتال على القـاهرة حتى دخلـت من الثغرة، ثم تبـع هذا مجيء الفرنج وعمـل البرج وحصار بلبيس، ثـم تلا ذلك قيـام يحيى بن الخيـاط طالبـاً للوزارة، ثم تـلا ذلك نفـاق لواتـه ومـن ضامهـا مـن قيس، وخـروج أخيـه نجم وابنـه سليمان وجماعة من غلمانهم لحربهم، ثـم خروج ابنه الكامـل في بقية العسكر، وفي

أثناء هذه المدّة قبضه على الأثير ابن جلب راغب وقتله ، وأسر معالي بن فريج ثم قتله، واتصل إليه الخبر من قدوم أسد الدين إلى أطفيح بأم النوائب الكبر، ووافق مجيء الغزّ قدوم الفرنج ناصرين للدولة، وتوجهوا من مصر في البرّ الشرقي تابعين للغز، ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال ما تنقطع دونه الآمال وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعهم إلى الشام ، فتجهز الكامل للمسير صحبة الأفرنج.

حدّثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمة، وليس معنا أحد إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغرب إلى سليم وما وراء ها ، وقال شاور: لكن لاأبرح أقاتل بمن صفا معي حتى أموت، فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الداعي ابن عبد القوي وصنيعة الملك جوهر وعز، وقد التزموا المال، وتفرّع على هذا الأصل مقام الغزّ بالجيزة ونوبة البابين، وحصار الاسكندرية، وانصراف الغز راجعين والفرنج بعدهم، فما هو إلاّ أن توهم شاور أن الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته معه وعفا، وإذا الأيام لاتخطب إلاّ زواله وفوته ، ولا تريد إلاّ إنتقاله وموته، فكان من قدوم الفرنج إلى بلبيس ، وقتل من فيها، وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين ابن القسيم، وإنجاده كلمة الإسلام بأسد الدين، ومن معه من المسلمين، الذين قلت فيهم ، وقد ربط الافرنج بالطريق عليهم:

أخذتم على الافرنج كل ثنية
وقلتم لأيدي الخيل مرّي على مرّي

لئن نصبوا في البرّ جسراً فإنكم
عبرتم ببحر من حديد على الجسر

قلت: وهذان البيتان من قصيدة ستأتي، ومرّي هو اسم ملك الأفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغز برحيل الفرنج عن الديار المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلا بعد قدوم الغز بثمانية عشر يوماً، وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له، قال: ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك، ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام، وكانت وزارته تسعة أشهر مدّة حمل الجنين، ولا أتلف أموالهم مثل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والأفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها، ولما عاد من حصار الاسكندرية أكثر من سفك الدماء بغير حق، كان يأمر بضرب الرقاب بين يديه في قاعة البستان من دار الوزارة، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار.

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيف من شر شاور ومكره، لما عرف من غدره وختره، واتضح الأمر في ذلك واستبان، تمارض الأسد ليقتنص الثعلبان، فجاءه قاصداً لعيادته جاريا في خدمته على عادته، فوثب جرديك وبزغش موليا نور الدين فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شرّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين فإنه أوّل من تولى القبض عليه، ومدّيده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين، وملك وخلع عليه الخلع وحنك، واستولى أصحابه على البلاد، وجرت أموره على السداد، وظهر منه جميل السيرة، وظهرت كلمة السنة.

-٧٩٣٨-

فصل
في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتـل شاور وتنفيذ رأسه إلى القصر، أنفذ إلى أسـد الدين خلعة الـوزارة فلبسها، وسار ودخـل القصر، وترتـب وزيراً ولقب بـالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنـزلها، وهي التي كان بها شاور فمن قبلـه من الوزراء، فلـم ير فيها مـا يقعد عليه، واستقـرّ في الأمر، ولم يبق لـه فيه منازع ولا مناو، وولى الأعمال من يثق إليـه، واستبدّ بالـولاية فأقطـع البلاد العساكر التـي قدمت معه، وصـلاح الدين مباشر لـلأمور مقرّر لها وزمـام الأمر والنهي مفـوّض إليه لمكـان كفايته ودرايتـه، وحسن تأتيه وسياسته.

قال العماد: وكتب لأسد الدين منشور من القصر بسيط الشرح طويل الطي والنشر، كتـب العاضد في طـرّته بخطه ، ولاشك أنـه باملاء كتـابه: هـذا عهـد لا عهد لـوزيـر بمثلـه، وتقلـد أمانـة رآك أمير المؤمنين أهـلا لحمله، والحجـة عليك عند الله بما أوضحـه لك مـن مراشد سبلـه، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقـوّة واسحب ذيـل الفخار بـأن اعتزت خـدمتك إلى بنوة النبـوّة، واتخذه للفوز سبيلا:(و لا تنقضوا الإيمان بعـد توكيدهـا وقد جعلتم الله عليكم كميلا) (١٠٥).

نسخة المنشور

من عبد الله ووليـه أبي محمد العاضد لـدين الله أمير المؤمنين إلى السيد

الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين أبي الحارث شيركوه العاضد، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو ، ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليما .

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتمل على كلام طويل، وحشو غير قليل على عادة الكتاب المتأخرين، الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبرين، والبلاغة عكس ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «بعثت بجوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً».

ولما استقل أسد الذين بالوزارة، طلب من القصر كاتب إنشاء فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم ابن البيساني، وكان أبوه من أهل بيسان الشام، ثم ولي قضاء عسقلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالاسكندرية على باب السدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور فاستكتبه، وزاحم به كتاب القصر فثقل عليهم أمره، فلما طلب أسد الدين كاتباً أرسل إليه، وظنّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لايتم، وأن أسد الدين سيقتل كما قتل من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه، وقالوا: لعله يقتل معه فنتخلص من مزاحمته لنا ، فكان من أمره ما كان واستمرّ في الدولة ولم يزدد في كل يوم الا تقدّما بصدقه ودينه، وحسن رأيه رحمه الله .

وأنفذ العماد قصيدة طويلة تهنئة لأسد الدين أوّلها.

بالجد أدركت ما ادركت لا اللعب
كم راحة جنيت من دوحة التعب

يــا شيركــوه بــن شــاذي الملــك دعــوة مــن
نـــادى فعـــرّف خير ابـــن بخير أب

جــرى الملــوك ومــا حــازوا بــركضهــم
مــن المدى في العلى مــا حــزت بــالخبــب

تمل مــن ملــك مصر رتبــة قصرت
عنهــا الملــوك فطــالــت ســائر الــرتــب

فتحـــت مصر وأرجـــو أن تصير بها
ميسرا فتــح بيــت القــدس عــن كثــب

قــد أمكنــت أســد الــديـن الفــريسة مــن
فتــح البــلاد فبــادر نحــوهــا وثــب

أنــت الــذي هــو فــرد مــن بســالتــه
والــديــن مــن عــزمــه في جحفــل لجب

في حلــق ذي الشرك من عــدوى سطاك شجــا
والقلــب في شجــن والنفــس في شجــب

زارت بنــي الأصفــر البيــض التــي لقيــت
حمر المنــايــا بها مــرفــوعــة الحجــب

وإنها نقـــد مـــن خلفهـــا أســـد
أرى ســلامتهــا مــن أعجــب العجــب

لقـــد رفعنـــا إلى الـــرحمن أيـــدينـــا
في شكــرنــا مــا بــه الاســلام منــك حبــي

شكـــا إليـــك بنـــو الاســـلام يتمهـــم
فقمـــت فيهـــم مقــام الـــوالـــد الحدب

في كـــل دار مـــن الأفـــرنـــج نـــادبـــة
بها دهـــاهـــم فقــد بــاتــوا على نــدب

مــن شر شــاور انقــذت العبــاد فكــم
وكـــم قضيـــت لحزب الله مـــن أرب

هــو الــذي أطمــع الأفــرنــج في بلــد الـــ
ـــإسلام حتــى سعــوا للقصــد والطلــب

وإن ذلـــــك عنــــد الله محتســـب
في الحشر مــن أفضــل الطـاعـات والقــرب
أذلــــه الملــــك المنصــــور منتصرا
لما دعـــا الشرك هــــذا قـــد تعــــزز بي
ومـــا غضبــت لـــديـــن الله منتميـــا
إلا لنيــل رضــى الــرحمن بـــالغضــب
وأنـــت مـــن وقعــت في الكفــر هيبتـــه
وفي ذويــــه وقـــوع النـــار في الحطـــب
وحين سرت إلى الكفـــار فـــانهزمـــوا
نصرت نصر رســـول الله بــــالـــرعـــب
يـــا محيـــي الأمـــة الهادي بـــدعـــوتـــه
للـــرشـــد كـــل غـــوي منهـــم وغبـــي
لما سعيـــت لـــوجـــه الله مـــرتقبـــا
ثـــوابـــه نلـــت عفـــوا كـــل مـــرتقـــب
أعـــدّت نقمـــة مصر نعمـــة فغـــدت
تقـــول كـــم نكـــت لله في النكـــب
أركبـــت رأس سنـــان رأس ظـــالمهـــا
عـــدلا وكنـــت لـــوزر غير مـــرتكـــب
ردّ الخلافـــة عبـــاسيـــة ودع الـــــــ
ـــدعي فيهـــا يصـــادف شر منقلـــب
لا تقطعـــن ذنـــب الأفعـــى وتـــرسلهـــا
فـــالحزم عنـدي قطـــع الـــرأس كـــالـذنـــب

وقال العماد في الخريدة: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه وقد أعفى الملك العادل نور الدين قدّس الله روحه أهل دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه

لما سمحـــت لأهـــل الشـــام بـــالخشـــب
عـــوضـــت مصر بما فيهـــا مـــن النشـــب

وإن بذلت لفتح القدس محتسبا
للأجر جوزيت أجراً غير محتسب
والأجر في ذلك عند الله مرتقب
فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه
خير من الفضة البيضاء والذهب

ولست تعذر في ترك الجهاد وقد
أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثلا
لما تريد فبادر فجأة النوب
فأحزم الناس من قوى عزيمته
حتى ينال بها العالي من الرتب
فالجدّ والجدّ مقرونان في قرن
والحزم في العزم والإدراك بالطلب
فطهر المسجد الأقصى وحوزته
من النجاسات والأشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا
وفي القيامة تلقى خير منقلب (١٠٦)

المحتوى